السّلسلة الصّوفيّة

١٦

محيي الدّين بن عربي

الفتوحات المكّية

الجزء الثّالث

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – عمارة عدد 3 – شقّة عدد 2 – المنار 2 – أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر : 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك : 978-9938-02-019-9
تمّ سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

محيي الدّين بن عربي

الفتوحات المكّية

الجزء الثّالث

محتويات الجزء الثّالث

من كتاب

الفتوحات المكّية

الباب الثّاني والعشرون
في معرفة علم منزل المنازل
وترتيب جميع العلوم الكونية

عجبا لأقوال النفوس السامية ..... إن المنازل في المنازل سارية
كيف العروج من الحضيض إلى العلى ..... إلا بقهر الحضرة المتعالية
فصناعة التحليل في معراجها ..... نحو اللطائف والأمور السامية
وصناعة التركيب عند رجوعها ..... بسنا الوجود إلى ظلام الهاوية

]ترتيب العلوم وإحصاؤها[

اعلم –أيدك الله– أنّه لمّا كان العلم المنسوب إلى الله لا يقبل الكثرة ولا التّرتيب، فإنّه غير مكتسب ولا مستفاد بل علمه عين ذاته كسائر ما ينسب إليه من الصفات وما سمي به من الأسماء وعلوم ما سوى الله لا بد أن تكون مرتبة محصورة سواء كانت علوم وهب أو علوم كسب فإنها لا تخلو من هذا الترتيب الذي نذكره وهو علم المفرد أولا ثم علم التركيب ثم علم المركب ولا رابع لها فإن كان من المفردات التي لا تقبل التركيب علمه مفردا وكذلك ما بقي فإن كل معلوم لا بد أن يكون مفردا أو مركبا والمركب يستدعي بالضرورة تقدم علم التركيب وحينئذ يكون علم المركب.

[للنازل للتّسعة عشر]

فهذا قد علمت ترتيب جميع العلوم الكونية فلنبين لك حصر المنازل في هذا المنزل وهي كثيرة لا تحصى ولنقتصر منها على ما يتعلق بما يختص به شرعنا ويمتاز به لا بالمنازل التي يقع فيها الاشتراك بيننا وبين غيرنا من سائر علوم الملل والنحل وجملتها تسعة عشر مرتبة أمهات ومنها ما يتفرع إلى منازل ومنها ما لا يتفرع فلنذكر أسماء هذه المراتب ولنجعل لها اسم المنازل فإنه كذا عرفنا بها في الحضرة الإلهية والأدب أولى فلنذكر ألقاب

هذه المنازل وصفات أربابها وأقطابها المتحققين بها وأحوالهم وما لكل حال من هذه الأحول من الوصف ثم بعد ذلك نذكر إن شاء الله كل صنف من هذه التسعة عشر ونذكر بعض ما يشتمل عليه من أمهات المنازل لا من المنازل فإنه ثم منزل يشتمل على ما يزيد على المائة من منازل العلامات والدلالات على أنوار جلية ويشتمل على آلاف وأقل من منازل الغايات الحاوية على الأسرار الخفيّة والخواص الجلية ثم نتلو ما ذكرنا بما يضاهي هذا العدد لهذه المنازل من الموجودات قديمها وحديثها ثم نذكر ما يتعلق ببعض معاني هذا المنزل على التقريب والاختصار –إن شاء الله تعالى–.

»ذكر ألقابها وصفات أقطابها«

فمن ذلك منازل الثناء والمدح هو لأرباب الكشوفات والفتح ومنازل الرموز والألغاز لأهل الحقيقة والمجاز ومنازل الدعاء لأهل الإشارات والبعد ومنازل الأفعال لأهل الأحوال والاتصال ومنازل الابتداء لأهل الهواجس والإيماء ومنازل التنزيه لأهل التوجيه في المناظرات والاستنباط ومنازل التقريب للغرباء المتألهين ومنازل التوقع لأصحاب البراقع من أجل السبحات ومنازل البركات لأهل الحركات ومنازل الأقسام لأهل التدبير من الروحانيين ومنازل الدهر لأهل الذوق ومنازل الإنية لأهل المشاهدة بالأبصار ومنازل اللام والألف للالتفاف الحاصل بالتخلق بالأخلاق الإلهية ولأهل السرّ الذي لا ينكشف ومنازل التقرير لأهل العلم بالكيمياء الطبيعية والروحانية ومنازل فناء الأكوان للضنائن المخدرات ومنازل الألفة لأهل الأمان من أهل الغرف ومنازل لوعيد للمتمسّكين بقائمة العرش الأمجد ومنازل الاستخبار لأهل غامضات الأسرار ومنازل الأمر للمتحققين بحقائق سره فيهم وأما صفاتهم فأهل المدح لهم الزهو وأهل الرموز لهم النجاة من الاعتراض وأما المتألهون فلهم التيه بالتخلق وأما أهل الأحوال والاتصال فلهم الحصول على العين وأما أهل الإشارة فلهم الحيرة عند التبليغ وأما أهل الاستنباط فلهم الغلط والإصابة وليسوا بمعصومين وأما الغرباء فلهم الانكسار وأما أهل البراقع فلهم الخوف وأما أهل الحركة فلهم مشاهدة الأسباب والمدبرون لهم الفكر والممكنون لهم الحدود وأهل المشاهد لهم الجحد وأهل الكتم لهم السلامة وأهل العلم لهم الحكم على المعلوم وأهل الستر منتظرون رفعه وأهل الأمن في موطن الخوف من المكر وأهل القيام لهم القعود وأهل الإلهام لهم التحكم وأهل التحقيق

لهم ثلاثة أثواب ثوب إيمان وكفر ونفاق

]أحوال أرباب للنازل[

وأما ذكر أحوالهم فاعلم إن الله تعالى قد هيأ المنازل للنازل ووطأ المعاقل للعاقل وزوي المراحل للراحل وأعلى المعالم للعالم وفصل المقاسم للقاسم وأعد القواصم للقاصم وبين العواصم للعاصم ورفع القواعد للقاعد ورتب المراصد للراصد وسخر المراكب للراكب وقرب المذاهب للذاهب وسطر المحامد للحامد وسهل المقاصد للقاصد وأنشأ المعارف للعارف وثبت المواقف للواقف ووعر المسالك للسالك وعين المناسك للناسك وأخرس المشاهد للشاهد وأحرس الفراقد للراقد

»ذكر صفات أحوالهم«

فإنه سبحانه جعل النازل مقدرا والعاقل مفكرا والراحل مشمرا والعالم مشاهدا والقاسم مكابدا والقاصم مجاهدا والعاصم مساعدا والقاعد عارفا والراصد واقفا والراكب محمولا والذاهب معلولا والحامد مسئولا والقاصد مقبولا والعارف مبخوتا والواقف مبهوتا والسالك مردودا والناسك مبعودا والشاهد محكما والراقد مسلما فهذا قد ذكرنا صفات هؤلاء التسعة عشر صنفا في أحوالهم فلنذكر ما يتضمن كل صنف من أمهات المنازل وكل منزل من هذه الأمهات يتضمن أربعة أصناف من المنازل الصف الأول يسمى منازل الدلالات والصنف الآخر يسمى منازل الحدود والصنف الثالث يسمى منازل الخواص والصنف الرابع يسمى منازل الأسرار ولا تحصى كثرة فلنقتصر على التسعة عشر ولنذكر أعداد ما تنطوي عليه من الأمهات وهذا أولها

]منزل المدح[

منزل المدح له منزل الفتح فتح السرين ومنزل المفاتيح الأول ولنا فيه جزء سميناه مفاتيح الغيوب ومنزل العجائب ومنزل تسخير الأرواح البرزخية ومنزل الأرواح العلوية ولنا في بعض معانيه من النظم قولنا

منازل المدح والتباهي ..... منازل ما لها تناهي

لا تطلبن في السمو مدحا ..... مدائح القوم في الثرى هي

من ظمئت نفسه جهادا ..... يشرب من أعذب المياه

نقول ليس مدح العبد أن يتصف بأوصاف سيده فإنه سوء أدب وللسيد أن يتصف بأوصاف عبده تواضعا فللسيد النزول لأنه لا يحكم عليه فنزوله إلى أوصاف عبده تفضل منه على

عبده حتى يبسطه فإن جلال السيد أعظم في قلب العبد من أن يدل عليه لو لا تنزله إليه وليس للعبد أن يتصف بأوصاف سيده لا في حضرته ولا عند إخوانه من العبيد وإن ولاة عليهم كما

قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر

وقال تعالى تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها أي نملكها ملكا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الْأَرْضِ فإن الأرض قد جعلها الله ذلولا والعبد هو الذليل والذلة لا تقتضي العلو فمن جاوز قدره هلك يقال ما هلك امرؤ عرف قدره وقوله ما لها تناهي يقول إنه ليس للعبد في عبوديته نهاية يصل إليها ثم يرجع ربا كما أنه ليس للرب حد ينتهي إليه ثم يعود عبدا فالرب رب إلى غير نهاية والعبد عبد إلى غير نهاية فلذا قال مدائح القوم في الثرى هي وهو أذل من وجه الأرض وقال لا يعرف لذة الماء إلا الظمآن يقول لا يعرف لذة الاتصاف بالعبودية إلا من ذاق الآلام عند اتصافه بالربوبية واحتياج الخلق إليه

مثل سليمان حين طلب أن يجعل الله أرزاق العباد على يديه حسا فجميع ما حضره من الأقوات في ذلك الوقت فخرجت دابة من دواب البحر فطلبت قوتها فقال لها خذي من هذا قدر قوتك في كل يوم فأكلته حتى أتت على آخره فقالت زدني فما وفيت برزقي فإن الله يعطيني كل يوم مثل هذا عشر مرات وغيري من الدواب أعظم مني وأكثر رزقا فتاب سليمان عليه السلام إلى ربه وعلم أنه ليس في وسع المخلوق ما ينبغي للخالق تعالى فإنه طلب من الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فاستقال من سؤاله حين رأى ذلك واجتمعت الدواب عليه تطلب أرزاقها من جميع الجهات فضاق لذلك ذرعا فلما قبل الله سؤاله وأقاله وجد من اللذة لذلك ما لا يقدر قدره

)منزل الرموز(

فاعلم وفقك الله أنه وإن كان منزلا فإنه يحتوي على منازل منها منزل الوحدانية ومنزل العقل الأولي والعرش الأعظم والصدا والإتيان من العلماء إلى العرش وعلم التمثل ومنزل القلوب والحجاب ومنزل الاستواء الفهواني والألوهية السارية واستمداد الكهان والدهر والمنازل التي لا ثبات لها ولا ثبات لأحد فيها ومنزل البرازخ والإلهية والزيادة والغيرة ومنزل الفقد والوجدان ومنزل رفع الشكوك والجود والمخزون ومنزل القهر والخسف ومنزل الأرض الواسعة ولما دخلت هذا المنزل وأنا بتونس وقعت مني صيحة ما لي بها علم أنها وقعت مني غير أنه ما بقي أحد ممن سمعها إلا سقط مغشيا عليه ومن كان على سطح

الدار من نساء الجيران مستشرفا علينا غشى عليه ومنهن من سقط من السطوح إلى صحن الدار على علوها وما أصابه بأس وكنت أول من أفاق وكنا في صلاة خلف إمام فما رأيت أحدا إلا صاعقا فبعد حين أفاقوا فقلت ما شأنكم فقالوا أنت ما شأنك لقد صحت صيحة أثرت ما ترى في الجماعة فقلت والله ما عندي خبر أني صحت ومنزل الآيات الغربية والحكم الإلهية ومنزل الاستعداد والزينة والأمر الذي مسك الله به الأفلاك السماوية ومنزل الذكر والسلب وفي هذه المنازل قلت

منازل الكون في الوجود ..... منازل كلها رموز

منازل للعقول فيها ..... دلائل كلها تجوز

لما أتى الطالبون قصدا ..... لنيل شيء فذاك جوزوا

فيا عبيد الكيان حوزوا ..... هذا الذي ساقكم وجوزوا

الرمز واللغز هو الكلام الذي يعطي ظاهره ما لم يقصده قائله وكذلك منزل العالم في الوجود ما أوجده الله لعينه وإنما أوجده الله لنفسه فاشتغل العالم بغير ما وجد له فخالف قصد موجدة ولهذا يقول جماعة من العلماء العارفين وهم أحسن حالا ممن دونهم إن الله أوجدنا لنا والمحقق والعبد لا يقول ذلك بل يقول إنما أوجدنا له لا لحاجة منه إلي فإنا لغز ربي ورمزه ومن عرف أشعار الألغاز عرف ما أردناه وأما قوله لما أتى الطالبون قصد النيل شيء بذاك جوزوا من المجازات يقول من طلب الله لأمر فهو لما طلب ولا ينال منه غير ذلك وقوله فيا عبيد الكيان يقول من عبد الله لشيء فذلك الشيء معبوده وربه والله بري ء منه وهو لما عبده وقوله حوزوا أي خذوا ما جئتم له أي بسببه وجوزوا أي روحوا عنا فإنكم ما جئتم إلينا ولا بسببنا

)منزل الدعاء(

هذا المنزل يحتوي على منازل منها منزل الأنس بالشبيه ومنزل التغذي ومنزل مكة والطائف والحجب ومنزل المقاصير والابتلاء ومنزل الجمع والتفرقة والمنع ومنزل النواشي والتقديس وفي هذا المنزل قلت

لتايه الرحمن فيك منازل ..... فأجب نداء الحق طوعا يا فل

رفعت إليك المرسلات أكفها ..... ترجو النوال فلا يخيب السائل

أنت الذي قال الدليل بفضله ..... ولنا عليه شواهد ودلائل

لو لا اختصاصك بالحقيقة ما زهت ..... بنزولك الأعلى لديه منازل

يقول إن نداء الحق عباده إنما هو لسان المرسلات تطلب اسما من أسمائه وذلك العبد في ذلك الوقت تحت سلطانها والمرسلات لطائف الخلق ترفع أكفها إلى من هي في يديه من الأسماء لتجود به على من يطلبها من الأسماء والمسئول أبدا إنما هو من له المهيمنية على الأسماء كالعليم الذي له التقدم على الخبير والحسيب والمحصي والمفضل ولهذا قال أنت الذي قال الدليل بفضله والحقيقة التي اختص بها إحاطته بما تحته في الرتبة من الأسماء الإلهية إذ القادر في الرتبة دون المريد والعالم في الرتبة فوق المريد والحي فوق الكل فالمنازل التي تحت إحاطة الاسم الجامع تفتخر بنزوله إليها إجابة لسؤالها

)منزل الأفعال(

وهو يشتمل على منازل منها منزل الفضل والإلهام ومنزل الإسراء الروحاني ومنزل التلطف ومنزل الهلاك وفي هذه المنازل أقول

لمنازل الأفعال برق لامع ..... ورياحها تزجي السحاب زعازع

وسهامها في العالمين نوافذ ..... وسيوفها في الكائنات قواطع

ألقت إلى العز المحقق أمرها ..... فالعين تبصر والتناول شاسع

الناس في أفعال العباد على قسمين طائفة ترى الأفعال من العباد وطائفة ترى الأفعال من الله وكل طائفة يبدو لها مع اعتقادها ذلك شبه البرق اللامع في ذلك يعطيها آن للذي نفى عنه ذلك الفعل نسبة ما وكل طائفة لها سحاب يحول بينها وبين نسبة الفعل لمن نفته عنه وقوله في رياحها إنها شديدة أي الأسباب والأدلة التي قامت لكل طائفة على نسبة الأفعال لمن نسبتها إليه قوية بالنظر إليه ووصف سهامها بالنفوذ في نفوس الذين يعتقدون ذلك وكذلك سيوفها فيهم قواطع وقوله إنها ألقت إلى العز أي احتمت بحمى مانع يمنع المخالف أن يؤثر فيه فيبقى على هذا كل أحد على ما هي إرادة الله فيه قال تعالى زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ وقوله فالعين تبصر يقول الحس يشهدان الفعل للعبد والإنسان يجد ذلك من نفسه بما له فيه من الاختيار وقوله التناول شاسع أي ونسبته إلى غير ما يعطيه الحس والنفس بعيد المتناول إلا أنه لا بد فيه من برق لامع يعطي نسبة في ذلك الفعل لمن نفى عنه لا يقدر على جحدها

)منزل الابتداء(

ويشتمل على منازل منها منزل الغلظة والسبحات ومنزل التنزلات والعلم بالتوحيد الإلهي

ومنزل الرحموت ومنزل الحق والفزع وفي هذا المنزل أقول
للابتداء شواهد ودلائل ..... وله إذا حط الركاب منازل

يحوي على عين الحوادث حكمه ..... ويمده الله الكريم الفاعل
ما بينه نسب وبين إلهه ..... إلا التعلق والوجود الحاصل
لا تسمعن مقالة من جاهل ..... مبني الوجود حقائق وأباطل
مبني الوجود حقائق مشهودة ..... وسوى الوجود هو المحال الباطل

يقول لابتداء الأكوان شواهد فيها إنها لم تكن لأنفسها ثم كانت وله الضمير يعود على الابتداء إذا حط الركاب أي إذا تتبعته من أين جاء وجدته من عند من أوجده ولذلك كان له البقاء قال تعالى وما عِنْدَ الله باقٍ فإذا حططت عنده عرفت منزلته منه الذي كان فيها إذ لم يكن لنفسه وتلك منزل الأولية الإلهية في قوله هو الأول ومن هذه الأولية صدر ابتداء الكون ومنه تستمد الحوادث كلها وهو الحاكم فيها وهي الجارية على حكمه ونفي النسب عنه فإن أولية الحق تمد أولية العبد وليس لأولية الكون إمداد لشيء فما ثم نسب إلا العناية ولا سبب إلا الحكم ولا وقت غير الأزل هذا مذهب القوم وما بقي مما لم يدخل تحت حصر هذه الثلاثة فعمى وتلبيس هكذا صرح به صاحب محاسن المجالس وقول من قال مبني الوجود حقائق وأباطل ليس بصحيح فإن الباطل هو العدم وهو صحيح فإن الوجود المستفاد في حكم العدم والوجود الحق من كان وجوده لنفسه وكل عدم وجد فما وجد إلا من وجود كان موصوفا به لغيره لا لنفسه والذي استفاد هو الوجود لعينه وأما المحال الباطل فهو الذي لا وجود له لا لنفسه ولا من غيره

)منزل التنزيه(

هذا المنزل يشتمل على منازل منها منزل الشكر ومنزل البأس ومنزل النشر ومنزل النصر والجمع ومنزل الربح والخسران والاستحالات ولنا في هذا
لمنازل التنزيه والتقديس ..... سر مقول حكمه معقول
علم يعود على المنزه حكمه ..... فردوس قدس روضة مطلول
فمنزه الحق المبين مجوز ..... ما قاله فمرامه تضليل

يقول المنزه على الحقيقة من هو نزيه لنفسه وإنما ينزه من يجوز عليه ما ينزه عنه وهو المخلوق فلهذا يعود التنزيه على المنزه

قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم

فمن كان عمله التنزيه عاد عليه تنزيهه فكان محله منزها عن أن يقوم به اعتقاد ما لا ينبغي أن يكون الحق عليه ومن هنا قال من قال سبحاني تعظيما لجلال الله تعالى ولهذا قال روضة مطلول وهو نزول التنزيه إلى محل العبد المنزه خالقه والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ

)منزل التقريب هذا المنزل يشتمل على منزلين منزل خرق العوائد ومنزل أحدية كن وفيه أنشدت(

لمنازل التقريب شرط يعلم ..... ولها على ذات الكيان تحكم

فإذا أتى شرط القيامة واستوى ..... جبارها خضع الوجود ويخدم

هيهات لا تجني النفوس ثمارها ..... إلا التي فعلت وأنت مجسم

يقول إن التقريب من صفات المحدثات لأنها تقبل التقريب وضده والحق هو القريب وإن كان قد وصف نفسه بأنه يتقرب والمصدر منه التقريب والتقرب ولما قال شرط يعلم وهو قبول التأثير قال ولا يعرف وينكشف الأمر عموما إلا في الآخرة وقال والنفوس ما لها جنى إلا ما غرسته في حياتها الدنيا من خير أو شر فلها التقريب من أعمالها فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ومن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

)منزل التوقع(

وهذا المنزل أيضا يشتمل على منزلين منزل الطريق الإلهي ومنزل السمع وفيه نظمت

ظهرت منازل للتوقع بادية ..... وقطوفها ليد المقرب دانية

فاقطف من أغصان الدنو ثمارها ..... لا تقطفن من الغصون العادية

لا تخرجن عن اعتدالك والزمن ..... وسط الطريق تر الحقائق بادية

يقول ما يتوقعه الإنسان قد ظهر لأنه ما يتوقع شيئا إلا وله ظهور عنده في باطنه فقد برز من غيبه الذي يستحقه إلى باطن من بتوقعه ثم إنه يتوقع ظهوره في عالم الشهادة فيكون أقرب في التناول وهو قوله قُطُوفُها دانِيَةٌ أي قريبة ليد القاطف يقول احفظ طريق الاعتدال لا تنحرف عنه والاعتدال هنا ملازمتك حقيقتك لا تخرج عنها كما خرج المتكبرون ومن كان برزخا بين الطرفين كان له الاستشراف عليهما فإذا مال إلى أحدهما غاب عن الآخر

)منزل البركات(

وهو أيضا يشتمل على منزلين على منزل الجمع والتفرقة ومنزل الخصام البرزخى وهو منزل

الملك والقهر وفيه قلت

لمنازل البركات نور يسطع ..... وله بحبات القلوب توقع

فيها المزيد لكل طالب مشهد ..... ولها إلى نفس الوجود تطلع

فإذا تحقق سر طالب حكمة ..... بحقائق البركات شد المطلع

فالحمد لله الذي في كونه ..... أعيانه مشهودة تتسمع

البركات الزيادة وهي من نتائج الشكر وما سمي الحق نفسه تعالى بالاسم الشاكر والشكور إلا لنزيد في العمل الذي شرع لنا أن نعمل به كما يزيد الحق النعم بالشكر منا فكل نفس متطلعة للزيادة يقول وإذا تحقق طالب الحكم الزيادة انفرد بأمور يجهد أن لا يشاركه فيها أحد لتكون الزيادة من ذلك النوع وصاحب هذا المقام تكون حاله المراقبة للحال الذي يطلبه

)منزل الأقسام والإيلاء(

وهذا المنزل يشتمل على منازل منها منزل الفهوانيات الرحمانية ومنزل المقاسم الروحانية ومنزل الرقوم ومنزل مساقط النور ومنزل الشعراء ومنزل المراتب الروحانية ومنزل النفس الكلية ومنزل القطب ومنزل انفهاق الأنوار على عالم الغيب ومنزل مراتب النفس الناطقة ومنزل اختلاف الطرق ومنزل المودة ومنزل علوم الإلهام ومنزل النفوس الحيوانية ومنزل الصلاة الوسطى وفي هذا قلت

منازل الأقسام في العرض ..... أحكامها في عالم الأرض

تجري بأفلاك السعود على ..... من قام بالسنة والفرض

وعلمها وقف على عينها ..... وحكمها في الطول والعرض

يقول القسم نتيجة التهمة والحق يعامل الخلق من حيث ما هم عليه لا من حيث ما هو عليه ولهذا لم يول الحق تعالى للملائكة لأنهم ليسوا من عالم التهمة وليس لمخلوق أن يقسم بمخلوق وهو مذهبنا وإن أقسم بمخلوق عندنا فهو عاص ولا كفارة عليه إذا حنث وعليه التوبة مما وقع فيه لا غير وإنما أقسم الحق بنفسه حين أقسم بذكر المخلوقات وحذف الاسم يدل على ذلك إظهار الاسم في مواضع من الكتاب العزيز مثل قوله فَوَ رَبِّ السَّماءِ والْأَرْضِ ... بِرَبِّ الْمَشارِقِ والْمَغارِبِ فكان ذلك أعلاما في المواضع التي لم يجر للاسم ذكر ظاهر أنه غيب هنالك لأمر أراده سبحانه في ذلك يعرفه من عرفه الحق ذلك من نبي وولي ملهم فإن القسم دليل على تعظيم المقسم به ولا شك أنه قد ذكر في القسم

من يبصر ومن لا يبصر فدخل في ذلك الرفيع والوضيع والمرضى عنه والمغضوب عليه والمحبوب والممقوت والمؤمن والكافر والموجود والمعدوم ولا يعرف منازل الأقسام إلا من عرف عالم الغيب فيغلب على الظن أن الاسم الإلهي هنا مضمر وقد عرفناك إن عالم الغيب هو الطول وعالم الشهادة هو العرض

)منزل الإنية(

ويشتمل على منازل منها منزل سليمان عليه السلام دون غيره من الأنبياء ومنزل الستر الكامل ومنزل اختلاف المخلوقات ومنزل الروح ومنزل العلوم وفيه أقول

إنية قدسية مشهودة ..... لوجودها عند الرجال منازل

تفني الكيان إذا تجلت صورة ..... في سورة أعلامها تتفاضل

وتريك فيك وجودها بنعوتها ..... خلف الظلال وجودها لك شامل

يقول إن الحقيقة الإلهية المعنوية بنعوت التنزيه إذا شوهدت تفني كل عين سواها وإن تفاضلت مشاهدها في الشخص الواحد بحسب أحواله وفي الأشخاص لاختلاف أحوالهم لما أعطت الحقيقة أنه لا يشهد الشاهد منا إلا نفسه كما لا تشهد هي منا إلا نفسها فكل حقيقة للأخرى مرآة المؤمن مرآة أخيه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ

)منزل الدهور(

يحتوي هذا المنزل على منازل منها منزل السابقة ومنزل العزة ومنزل روحانيات الأفلاك ومنزل الأمر الإلهي ومنزل الولادة ومنزل الموازنة ومنزل البشارة باللقاء وفيه أقول

ومن المنازل ما يكون مقدرة ..... مثل الزمان فإنه متوهم

دلت عليه الدائرات بدورها ..... وله التصرف والمقام الأعظم

يقول لما كان الأزل أمرا متوهما في حق الحق كان الزمان أيضا في حق الحق أمرا متوهما أي مدة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك فإن الأزل كالزمان للخلق فافهم

)منزل لام الألف(

هذا منزل الالتفاف والغالب عليه الائتلاف لا الاختلاف قال تعالى وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ وهو يحتوي على منازل منها منزل مجمع البحرين وجمع الأمرين ومنزل التشريف المحمدي الذي إلى جانب المنزل الصمدي وفيه أقول

منازل اللام في التحقيق والألف ..... عند اللقاء انفصال حال وصلهما

هما الدليل أعلى من قال إن أنا ..... سر الوجود وإني عينه فهما

نعم الدليلان إذ دلا بحالهما ..... لا كالذي دل بالأقوال فانصرما

يقول وإن ارتبط اللام بالألف وانعقد وصارا عينا واحدة وهو ظاهر في المزدوج من الحروف في المقام الثامن والعشرين بين الواو والياء اللذين لهما الصحة والاعتلال فلما في الألف من العلة ولما في اللام من الصحة وقعت المناسبة بينه وبين هذين الحرفين فيلي الصحيح منه حرف الصحة ويلي المعتل منه حرف العلة فيداه مبسوطة بالرحمة مقبوضة بنقيضها وليس للام الألف صورة في نظم المفرد بل هو غيب فيها ورتبة على حالها بين الواو والياء وقد استناب في مكانه الزاي والحاء والطاء اليابسة فله في غيبه الرتبة السابعة والثامنة والتاسعة فله منزلة القمر بين البدر والهلال فلم تزل تصحبه رتبة البرزخية في غيبته وظهوره فهو الرابع والعشرون إذ كانت له السبعة بالزاي والثمانية بالحاء والتسعة بالطاء واليوم أربع وعشرون ساعة ففي أي ساعة عملت به فيها أنجح عملك على ميزان العمل بالوضع لأنه في حروف الرقم لا في حروف الطبع لأنه ليس له في حروف الطبع إلا اللام وهو من حروف اللسان برزخ بين الحلق والشفتين والألف ليست من حروف الطبع فما ناب إلا مناب حرف واحد وهو اللام الذي عنه تولد الألف إذا أشبعت حركته فإن لم تشبع ظهرت الهمزة ولهذا جعل الألف بعض العلماء نصف حرف والهمزة نصف حرف في الرقم الوضعي لا في اللفظ الطبعي ثم نرجع فنقول إن انعقد اللام بالألف كما قلنا وصارا عينا واحدة فإن فخذيه يدلان على أنهما اثنان ثم العبارة باسمه تدل على أنه اثنان فهو اسم مركب من اسمين لعينين العين الواحدة اللام والأخرى الألف ولكن لما ظهرا في الشكل على صورة واحدة لم يفرق الناظر بينهما ولم يتميز له أي الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر الألف فاختلف الكتاب فيه فمنهم من راعى التلفظ ومنهم من راعى ما يبتدئ به مخططه فيجعله أولا فاجتمعا تقديم اللام على الألف لأن الألف هنا تولد عن اللام بلا شك وكذلك الهمزة تتلو اللام في مثل قوله لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً وأمثاله وهذا الحرف أعني لام ألف هو حرف الالتباس في الأفعال فلم يتخلص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو إن قلت هو لله صدقت وإن قلت هو للمخلوق صدقت ولو لا ذلك ما صح التكليف وإضافة العمل من الله للعبد

يقول صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم

ويقول الله وما يَفْعَلُوا من خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ واعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ والله يَقُولُ الْحَقَّ فكذلك أي الفخذين جعلت اللام أو الألف صدقت وإن اختلف العمل في وضع

الشكل عند العلماء به للتحقق بالصورة وكل من دل على إن الفعل للواحد من الفخذين دون الآخر فذلك غير صحيح وصاحبه ينقطع ولا يثبت وإن غيره من أهل ذلك الشأن يخالفه في ذلك ويدل في زعمه والقول معه كالقول مع مخالفه ويتعارض الأمر ويشكل إلا على من نور الله بصيرته وهداه إلى سواء السبيل

)منزل التقرير(

وهو يشتمل على منازل منها منزل تعداد النعم ومنزل رفع الضرر ومنزل الشرك المطلق وفي ذلك أقول

تقررت المنازل بالسكون ..... ورجحت الظهور على الكمون

ودلت بالعيان على عيون ..... مفجرة من الماء المعين

ودلت بالبروق سحاب مزن ..... إذا لمعت على النور المبين

اعلم أيدك الله أنه يقول الثبوت يقرر المنازل فمن ثبت وظهر لكل عين على حقيقتها أ لا ترى ما تعطيك سرعة الحركة من الشبه فيحكم الناظر على الشيء بخلاف ما هو عليه ذلك الشيء فيقول في النار الذي في الجمرة أو في رأس الفتيلة إذا أسرع بحركته عرضا إنه خط مستطيل أو يديره بسرعة فيرى دائرة نار في الهواء وسبب ذلك عدم الثبوت وإذا ثبتت المنازل دلت على ما تحوي عليه من العلوم الإلهية

)منزل المشاهدة(

وهو منزل واحد هو منزل فناء الكون فيه يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل وفيه أقول

في فناء الكون منزل ..... روحه فينا تنزل

إنه ليلة قدري ..... ما له نور ولا ظل

هو عين النور صرفا ..... ما له عنه تنقل

فأنا الإمام حقا ..... ملك في الصدر الأول

عنده مفتاح أمري ..... فيوليكم ويعزل

سمهرياتي طوال ..... لست بالسماك الأعزل

فالمقام الحق فيكم ..... دائم لا يتبدل

وهو القاهر منه ..... وهو الإمام الأعدل

ليس بالنور الممثل ..... بل من المهاة أكمل

وأنا منه يقينا ..... بمكان السر الأفضل
فبعين العين أسمو ..... وبأمر الأمر أنزل
يقول حالة الفناء لا نور ولا ظل مثل ليلة القدر ثم قال وذلك هو الضوء الحقيقي والظل الحقيقي فإنه الأصل الذي لا ضد له والأنوار تقابلها الظلم وهذا لا يقابله شيء وقوله أنا الإمام يعني شهوده للحق من الوجه الخاص الذي منه إلي وهو الصدر الأول ومن هذا المقام يقع التفصيل والكثرة والعدد في الصور وجعل السمهريات كناية عن تأثير القيومية في العالم ولها الثبوت ولذا قال لا تتبدل وله القهر والعدل لا يقبل التشبيه فبشهود الذات أعلو وبالأمر الإلهي أنزل إماما في العالم

)منزل الألفة(

هو منزل واحد وفيه أقول
منازل الألفة مألوفه ..... وهي بهذا النعت معروفه
فقل لمن عرس فيها أقم ..... فإنها بالأمن محفوفه
وهي على الاثنين موقوفه ..... وعن عذاب الوتر مصروفه
هذا منزل الأعراس والسرور والأفراح وهو مما امتن الله به على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقال لَوْ أَنْفَقْتَ ما في الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ يريد عليك ولكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ يريد على مودتك وإجابتك وتصديقك

)منزل الاستخبار(

وهو يشتمل على منازل منها منزل المنازعة الروحانية ومنزل حلية السعداء كيف تظهر على الأشقياء وبالعكس ومنزل الكون قبل الإنسان وفيه أقول
إذا استفهمت عن أحباب قلبي ..... أحالوني على استفهام لفظي
منازلهم بلفظك ليس إلا ..... فيا شؤمي لذاك وسوء حظي
وعظت النفس لا تنظر إليهم ..... فما التفتت بخاطرها لوعظي
لفظ تهمو عسى أحظى بكون ..... فكانوا عين كوني عين لفظي
وقال ومن عجب إني أحن إليهمو ..... وأسأل عنهم من أرى وهمو معي

وترصدهم عيني وهم في سوادها ..... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
يقول إنهم في لساني إذا سألت عنهم وفي سواد عيني إذا نظرت إليهم وفي قلبي إذا

فكرت فيهم واشتقت إليهم فهم معي في كل حال أكون عليها فهم عيني ولست عينهم إذ لم يكن عندهم مني ما عندي منهم

)منزل الوعيد(

وهو منزل واحد محوي على الجور والاستمساك بالكون وفيه قلت

إن الوعيد لمنزلان هما لمن ..... ترك السلوك على الطريق الأقوم

فإذا تحقق بالكمال وجوده ..... ومشى على حكم العلو الأقدم

عادا نعيما عنده فنعيمه ..... في النار وهي نعيم كل مكرم

منزل روحاني وهو عذاب النفوس ومنزل جسماني وهو العذاب المحسوس ولا يكون إلا لمن حاد عن الطريق المشروع في ظاهره وباطنه فإذا وفق للاستقامة وسبقت له العناية عصم من ذلك وتنعم بنار المجاهدة لجنة المشاهدة

)منزل الأمر(

وهو يشتمل على منازل منزل الأرواح البرزخية ومنزل التعليم ومنزل السري ومنزل السبب ومنزل التمائم ومنزل القطب والإمامين ولنا فيه

منازل الأمر فهو إنية الذات ..... بها تحصل أفراحي ولذاتي

فليتني قائم فيها مدى عمري ..... ولا أزول إلى وقت الملاقاة

فقرة العين للمختار كان له ..... إذا تبرز في صدر المناجاة

الأمر الإلهي من صفة الكلام وهو مسدود دون الأولياء من جهة التشريع وما في الحضرة الإلهية أمر تكليفي إلا أن يكون مشروعا فما بقي للولي إلا سماع أمرها إذا أمرت الأنبياء فيكون للولي عند سماعه ذلك لذة سارية في وجوده لكن يبقى للأولياء المناجاة الإلهية التي لا أمر فيها سمرا وحديثا فكل من قال من أهل الكشف إنه مأمور بأمر إلهي في حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي فقد التبس عليه الأمر وإن كان صادقا فيما قال إنه سمع وإنما يمكن إن ظهر له تجل إلهي في صورة نبيه صلى الله عليه وسلم فخاطبه نبيه أو أقيم في سماع خطاب نبيه وذلك أن الرسول موصل أمر الحق تعالى الذي أمر الله به عباده فقد يمكن أن يسمع من الحق في حضرة ما ذلك الأمر الذي قد جاءه به أولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول أمرني الحق وإنما هو في حقه تعريف بأنه قد أمر وانقطع هذا السبب بمحمد صلى الله عليه وسلم وما عدا الأوامر من الله المشروعة فللأولياء في ذلك القدم الراسخة فهذا قد أتينا على التسعة عشر صنفا من المنازل فلنذكر

أخص صفات كل منزل فنقول

)وصل) [في ذكر أخص صفات كل منزل من المنازل التسعة عشر[

أخص صفات منزل المدح تعلق العلم بما لا يتناهى وأخص صفات منزل الرموز تعلق العلم بخواص الأعداد والأسماء وهي الكلمات والحروف وفيه علم السيمياء وأخص صفات منزل الدعاء علوم الإشارة والتحلية وأخص صفات منزل الأفعال علم الآن وأخص صفات منزل الابتداء علم المبدأ والمعاد ومعرفة الأوليات من كل شيء وأخص صفات التنزيه علم السلخ والخلع وأخص صفات التقريب علم الدلالات وأخص صفات منزل التوقع علم النسب والإضافات أو أخص صفات منزل البركات علم الأسباب والشروط والعلل والأدلة والحقيقة وأخص صفات الأقسام علوم العظمة وأخص صفات منزل الدهر علم الأزل وديمومة الباري وجود أو أخص صفات منزل الإنية علم الذات وأخص صفات منزل لام ألف علم نسبة الكون إلى المكون وأخص صفات منزل التقرير علم الحضور وأخص صفات منزل فناء الكون علم قلب الأعيان وأخص صفات منزل الألفة علم الالتحام وأخص صفات منزل الوعيد علم المواطن وأخص صفات منزل الاستفهام علم لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ وأخص صفات منزل الأمر علم العبودة.

)وصل)

[في ذكر المنازل الإلهية التسعة عشر وما يقابلها من الممكنات[

اعلم أنّه لكل منزل من هذه المنازل التّسعة عشر صنف من الممكنات فمنهم صنف الملائكة وهم صنف واحد وإن اختلفت أحوالهم.

)و علم الأجسام ثمانية عشر(

الأفلاك أحد عشر نوعًا والأركان أربعة والمولدات ثلاثة ولها وجه آخر يقابلها من الممكنات في الحضرة الإلهية:

الجوهر للذّات وهو الأوّل

الثّاني الأعراض، وهي للصّفات

الثّالث الزمان وهو للأزل
الرّابع المكان وهو للاستواء أو النعوت
الخامس الإضافات للاضافات
السّادس الأوضاع للفهوانية
السّابع الكميات للأسماء
الثّامن الكيفيات للتجليات
التاسع التأثيرات للجود
العاشر الانفعالات للظهور في صور الاعتقادات
الحادي عشر الخاصية وهي للأحديّة
الثاني عشر الحيرة وهي للوصف بالنزول والفرح والقرض وأشباه ذلك
الثالث عشر حياة الكائنات للحي
الرابع عشر المعرفة للعلم
الخامس عشر الهواجس للإرادة
السادس عشر الأبصار للبصير
السابع عشر السمع للسميع
الثامن عشر الإنسان للكمال
التاسع عشر الأنوار والظلم للنّور.

)وصل في نظائر المنازل التّسعة عشر(

نظائرها من القرآن حروف الهجاء التي في أول السور وهي أربعة عشر حرفا في خمس مراتب أحدية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ونظائرها من النار الخزنة تسعة عشر ملكا نظائرها في التأثير اثنا عشر برجا والسبعة الدراري نظائرها من القرآن حروف البسملة ونظائرها من الرجال النقباء اثنا عشر والأبدال السّبعة وهؤلاء السبعة منهم الأوتاد أربعة والإمامان اثنان والقطب واحد والنظائر لهذه المنازل من الحضرة الإلهية ومن الأكوان كثير.

)وصل)

[في منزل المنازل أو الإمام المبين]

اعلم أن منزل المنازل عبارة عن المنزل الذي يجمع جميع المنازل التي تظهر في عالم الدنيا من العرش إلى الثرى وهو المسمى بالإمام المبين قال الله –تعالى–: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبِينٍ﴾[1] فقوله: ﴿أَحْصَيْناهُ﴾[2] دليل على أنّه ما أودع فيه إلا علوما متناهية فنظرنا هل ينحصر لأحد عددها فخرجت عن الحصر مع كونها متناهية لأنه ليس فيه إلا ما كان من يوم خلق الله العالم إلى أن ينقضي حال الدنيا وتنتقل العمارة إلى الآخرة فسألنا من أثق به من العلماء بالله هل تنحصر أمهات هذه العلوم التي يحويها هذا الإمام المبين فقال نعم فأخبرني الثقة الأمين الصادق الصاحب وعاهدني أني لا أذكر اسمه أن أمهات العلوم التي تتضمن كل أم منه ما لا يحصى كثرة تبلغ بالعدد إلى مائة ألف نوع من العلوم وتسعة وعشرين ألف نوع وستمائة نوع وكل نوع يحتوي على علوم جمة ويعبر عنها بالمنازل فسألت هذا الثقة هل نالها أحد من خلق الله وأحاط بها علما قال لا ثم قال: ﴿وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[3] وإذا كانت الجنود لا يعلمها إلا هو وليس للحق منازع يحتاج هؤلاء الجنود إلى مقابلته فقال لي لا تعجب ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ والْأَرْضِ﴾[4] لقد ثم ما هو أعجب فقلت ما هو فقال لي الذي ذكر الله في حق امرأتين من نساء رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثم تلا: ﴿وإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ وجِبْرِيلُ وصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ والْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾[5].

فهذا أعجب من ذكر الجنود فأسرار الله عجيبة فلما قال لي ذلك سألت الله أن يطلعني على فائدة هذه المسألة وما هذه العظمة التي جعل الله نفسه في مقابلتها وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة فأخبرت بها فما سررت بشيء سروري بمعرفة ذلك وعلمت لمن استندتا ومن يقويهما ولو لا ما ذكر الله نفسه في النصرة ما استطاعت الملائكة والمؤمنون مقاومتهما وعلمت أنهما حصل لهما من العلم بالله والتّأثير في العالم ما أعطاهما هذه القوة وهذا من العلم الذي كهيئة المكنون فشكرت الله على ما أولى فما أظن أن أحدا من خلق الله استند إلى ما استند هاتان المرأتان يقول لوط –عليه السّلام–: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ

1
2
3
4
5

آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، وكان عنده الرّكن الشّديد ولم يكن يعرفه
فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد له بذلك، فقال: يرحم الله أخي لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد
وعرفتاه عائشة وحفصة/ فلو علم النّاس علم ما كانتا عليه، لعرفوا معنى هذه الآية.
﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ، وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[2].

1

2

الباب الثّالث والعشرون
في معرفة القطاب المصونين وأسرار صونهم

إنّ لله حكمة أخفاهـــــــا ..... في وجودي فليس عين تراها
خلق الجسم دار لهو وأنس ..... فبناها وجوده سواها
ثم لما تعدلت واستقامت ..... جاء روح من عنده أحياها
ثم لما تحقق الحق علمـــــا ..... حبه وانقياده لهواها
قال للموت خذ إليك عبيدي ..... فدعاه له بما أخلاها
وتجلى له فقال إلهـــــــي ..... أين أنسي فقال ما تنساها
كيف أنسي دارا جعلت قواها ..... من قواكم فهي التي لا تضاهي
يا إلهي وسيدي واعتمادي ..... ما عشقنا منها سوى معناها
أعلمتنا بما تريدون منا ..... بلسان الرسول من أعلاها
فقطعنا أيامنا في سرور ..... بك يا سيدي فما أحلاها
قال ردوا عليه دار هواه ..... صدق الروح إنه يهواها
فرددنا مخلدين سكارى ..... طربا دائما إلى سكناها
وبناها على اعتدال قواها ..... وتجلى لها بما قواها

]الملاميّة أو مقام القربة في الولاية[

اعلم أيدك الله أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمين بالملاميّة.
وهم الرّجال الذين حلوا من الولاية في أقصى درجاتها وما فوقهم إلّا درجة النبوة.
وهذا يُسمّى: مقام القربة في الولاية، وآيتهم من القرآن: ﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ في الْخِيامِ﴾[1]
ينبّه بنعوت نساء الجنّة وحورها على نفوس رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون . أن تمتدّ إليهم عين فتشغلهم.
لا والله ما يشغلهم نظر الخلق إليهم لكنه ليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطّائفة

1

من الحق عليهم لعلو منصبها.
فتقف العباد في أمر لا يصلون إليه أبدا فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الأعمال الظاهرة والمثابرة على الفرائض منها والنوافل.
فلا يعرفون بخرق عادة فلا يعظمون ولا يشار إليهم بالصّلاح الذي في عرف العامة.
مع كونهم لا يكون منهم فساد فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم الغامضون في الناس فيهم

]أغبط الأولياء عند الله[

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل:
"إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السرّ والعلانيّة وكان غامضا في النّاس".
يريد أنهم لا يعرفون بين الناس بكبير عبادة ولا ينتهكون المحارم سرا وعلنا.
قال بعض الرّجال في صفتهم لمّا سئل عن العارف: قال: "مسوّد الوجه في الدّنيا والآخرة."
فإن كان أراد ما ذكرناه من أحوال هذه الطائفة فإنه يريد باسوداد الوجه استفراغ أوقاته كلها في الدنيا والآخرة في تجلّيات الحق له.
ولا يرى الإنسان عندنا في مرآة الحق إذا تجلى له غير نفسه ومقامه.
وهو كون من الأكوان والكون في نور الحق ظلمة فلا يشهد إلا سواده فإن وجه الشيء حقيقته وذاته.
ولا يدوم التّجلّي إلا لهذه الطائفة على الخصوص فهم مع الحق في الدّنيا والآخرة على ما ذكرناه من دوام التجلي وهم الأفراد.
وأمّا إن أراد بالتسويد من السيادة وأراد بالوجه حقيقة الإنسان أي له السيادة في الدنيا والآخرة.
فيمكن ولا يكون ذلك إلا للرسل خاصة فإنه كما لهم وهو في الأولياء نقص لأن الرسل مضطرون في الظهور لأجل التشريع والأولياء ليس لهم ذلك

]الكمال أو رجوع النّفس إلى الله[

أ لا ترى الله سبحانه لما أكمل الدين كيف أمره في السورة التي نعى الله إليه فيها نفسه فأنزل عليه: ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ الله والْفَتْحُ ورَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ الله أَفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ﴾[1].

أي أشغل نفسك بتنزيه ربك والثناء عليه بما هو أهله فاقتطعه بهذا الأمر من العالم لما كمل.

ما أريد منه من تبليغ الرسالة وطلب بالاستغفار أن يستره عن خلقه في حجاب صونه لينفرد به دون خلقه دائما.

فإنه كان في زمان التّبليغ والإرشاد وشغله بأداء الرسالة فإن له وقتا لا يسعه فيه غير ربه وسائر أوقاته فيما أمر به من النّظر في أمور الخلق فرده إلى ذلك الوقت الواحد الذي كان يختلسه من أوقات شغله بالخلق، وإن كان عن أمر الحقّ.

ثم قوله: ﴿إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً ﴾[2]، أي يرجع الحق إليك رجوعا مستصحبا لا يكون للخلق عندك فيه دخول بوجه من الوجوه.

ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة بكى أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– وحده دون من كان في ذلك المجلس.

وعلم أن الله –تعالى– قد نعى إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– نفسه، وهو كان أعلم النّاس به وأخذ الحاضرون يتعجّبون من بكائه ولا يعرفون سبب ذلك

]الظّهور أو التّصرّف في الكون[

والأولياء الأكابر إذا تركوا وأنفسهم لم يختر أحد منهم الظّهور أصلًا، لأنّهم علموا أنّ الله ما خلقهم لهم ولا لأحد من خلقه بالتّعلّق من القصد الأوّل.

وإنّما خلقهم له –سبحانه–، فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له فإن أظهرهم الحق عن غير

1
2

اختيار منهم بأن يجعل في قلوب الخلق تعظيمهم.
فذلك إليه –سبحانه– ما لهم فيه تعمل وإن سترهم فلم يجعل لهم في قلوب الناس قدرا يعظمونهم من أجله.
فذلك إليه –تعالى– فهم لا اختيار لهم مع اختيار الحقّ فإن خيرهم ولا بد فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله.
ولمّا كان حالهم ستر مرتبتهم عن نفوسهم، فكيف عن غيرهم تعين علينا أن نبين منازل صونهم.

]منازل صون الأولياء[

فمن منازل صونهم أداء الفرائض في الجماعات والدخول مع الناس في كل بلد بزى ذلك البلد ولا يوطن مكانا في المسجد وتختلف أماكنه في المسجد الذي تقام فيه الجمعة حتى تضيع عينه في غمار الناس.
وإذا كلم الناس فيكلمهم ويرى الحق رقيبا عليه في كلامه . وإذا سمع كلام الناس سمع كذلك.
ويقلل من مجالسة الناس إلا من جيرانه حتى لا يشعر به ويقضي حاجة الصغير والأرملة ويلاعب أولاده وأهله بما يرضي الله تعالى ويمزح ولا يقول إلا حقّا.
وإن عرف في موضع انتقل عنه إلى غيره فإن لم يتمكن له الانتقال استقضى من يعرفه وألح عليهم في حوائج النّاس حتى يرغبوا عنه.
وإن كان عنده مقام التحول في الصور تحول كما كان للروحاني التشكل في صور بنى آدم فلا يعرف أنه ملك.
وكذلك كان قضيب البان وهذا كله ما لم يرد الحق إظهاره ولا شهرته من حيث لا يشعر.
ثم إن هذه الطائفة إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله.
فليس لهم جلوس إلا مع الله
ولا حديث إلّا مع الله
فهم بالله قائمون

وفي الله ناظرون

وإلى الله راحلون ومنقلبون

وعن الله ناطقون

ومن الله آخذون

وعلى الله متوكّلون

وعند الله قاطنون.

فما لهم معروف سواه

ولا مشهود إلا إياه

صانوا نفوسهم عن نفوسهم.

فلا تعرفهم نفوسهم فهم في غيابات الغيب محجوبون.

هم ضنائن الحق المستخلصون

يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر وأكل حجاب.

فهذه حالة هذه الطّائفة المذكورة في هذا الباب

(

)نتمة شريفة لهذا الباب(

]الوليّ يتبع النّبيّ على بصيرة[

قلنا: ومن هذه الحضرة بعثت الرسّل –سلام الله عليهم أجمعين– مشرّعين ووجد معهم هؤلاء تابعين لهم قائمين بأمرهم من عين واحدة أخذ عنها الأنبياء والرّسل ما شرعوا، وأخذ عنها الأولياء ما اتبعوهم فيه؛ فهم التّابعون على بصيرة العالمون بمَن اتّبعوه وفيما اتبعوه وهم العارفون بمنازل الرّسل ومناهج السّبل من الله ومقاديرهم عند الله –تعالى–.

﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1].

انتهى الجزء السادس عشر.

والحمد لله

[1] سورة الأحزاب، الآية 4.

الباب الرّابع والعشرون
في معرفة جاءت عن العلوم الكونية

)بسم الله الرحمن الرحيم(
وما تتضمنه من العجائب ومن حصلها من العالم ومراتب أقطابهم وأسرار الاشتراك بين شريعتين والقلوب المتعشقة بعالم الأنفاس وبالأنفاس وأصلها وإلى كم تنتهي منازلها
تعجبت من ملك يعود بنا ملكا ..... ومن مالك أضحى لمملوكه ملكا
فذلك ملك الملك إن كنت ناظما ..... من اللؤلؤ المنثور من علمنا سلكا
فخذ عن وجود الحق علما مقدسا ..... ليأخذ ذاك العلم من شاءه عنكا
فإن كنت مثلي في العلوم فقد ترى ..... بأن الذي في كونه نسخة منكا
فهل في العلى شيء يقاوم أمركم ..... وقد فتكت أسيافكم في الورى فتكا
فلو كنت تدري يا حبيبي وجوده ..... ومن أنت كنت السيد العلم الملكا
وكان إله الخلق يأتيك ضعف ما ..... أتيت إليه إن تحققته ملكا
]ملك الملك: والرابطة الوجودية بين الحق والخلق[
اعلم أيدك الله أن الله يقول ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ فإذا علمت هذا علمت إن الله رب كل شيء ومليكه فكل ما سوى الله تعالى مربوب لهذا الرب وملك لهذا الملك الحق سبحانه ولا معنى لكون العالم ملك الله تعالى إلا تصرفه فيه على ما يشاء من غير تحجير وأنه محل تأثير الملك سيده جل علاه فتنوع الحالات التي هو العالم عليها هو تصرف الحق فيه على حكم ما يريده ثم إنه لما رأينا الله تعالى يقول كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ فأشرك نفسه مع عبده في الوجوب عليه وإن كان هو الذي أوجب على نفسه ما أوجب فكلامه صدق ووعده حق كما يوجب الإنسان بالنذر على نفسه ابتداء ما لم يوجبه الحق عليه فأوجب الله عليه الوفاء بنذره الذي أوجبه على نفسه فأمره بالوفاء بنذره ثم رأيناه تعالى لا يستجيب إلا بعد دعاء العبد إياه كما شرع كما إن العبد لا يكون مجيبا للحق حتى يدعوه الحق إلى ما يدعوه إليه قال تعالى فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي فصار للعبد والعالم الذي هو ملك لله سبحانه تصرف إلهي في الجانب الأحمى بما تقتضيه حقيقة العالم بالطلب الذاتي وتصريف آخر بما يقتضيه وضع الشريعة
]الوجوب على الله[

فلما كان الأمر على ما ذكرناه من كون الحق يجيب أمر العبد إذا دعاه وسأله كما إن العبد يجيب أمر الله إذا أمره وهو قوله وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ فشرك في القضية ولما كان الحق يقتضي بذاته أن يتذلل له سواء شرع لعباده أعمالا أو لم يشرع كذلك يقتضي ببقاء وجود عينه حفظ الحق إياه سواء شرع الحق ما شرعه أو لم يشرع ثم لما شرع للعبد أعمالا إذا عملها شرع لنفسه أن يجازي هذا العبد على فعل ما كلفه به فصار الجناب العالي ملكا لهذا الملك الذي هو العالم بما ظهر من أثر العبد فيه من العطاء عند السؤال فانطلق عليه صفة يعبر عنها ملك الملك فهو سبحانه مالك وملك بما يأمر به عباده وهو سبحانه ملك بما يأمره به العبد فيقول رَبِّ اغْفِرْ لِي كما قال له الحق أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي فيسمى ما كان من جانب الحق للعبد أمرا ويسمى ما كان من جانب العبد للحق دعاء أدبا إلهيا وإنما هو على الحقيقة أمر فإن الحد يشمل الأمرين معا وأول من اصطلح على هذا الاسم في علمي محمد بن علي الترمذي الحكيم وما سمعنا هذا اللفظ عن أحد سواه وربما تقدمه غيره بهذا الاصطلاح وما وصل إلينا إلا أن الأمر صحيح ومسألة الوجوب على الله عقلا مسألة خلاف بين أهل النظر من المتكلمين فمن قائل بذلك وغير قائل بها وأما الوجوب الشرعي فلا ينكره إلا من ليس بمؤمن بما جاء من عند الله

]الإضافة والمتضايفان[

واعلم أن المتضايفين لا بد أن يحدث لكل أحد من المتضايفين اسم تعطيه الإضافة فإذا قلت زيد فهو إنسان بلا شك لا يعقل منه غير هذا فإذا قلت عمرو فهو إنسان لا يعقل منه غير هذا فإذا قلت زيد بن عمرو أو زيد عبد عمرو فلا شك أنه قد حدث لزيد البنوة إذ كان ابن عمرو وحدث لعمرو اسم الأبوة إذ كان أبا لزيد فبنوة زيد أعطت الأبوة لعمرو والأبوة لعمرو أعطت البنوة لزيد فكل واحد من المتضايفين أحدث لصاحبه معنى لم يكن يوصف به قبل الإضافة وكذلك زيد عبد عمرو فأعطت العبودة أن يكون زيد مملوكا وعمرو مالكا فقد أحدثت مملوكية زيد اسم المالك لعمرو وأحدث ملك عمرو لزيد مملوكية زيد فقيل فيه مملوك وقيل في عمرو مالك ولم يكن لكل واحد منهما معقولية هذين الاسمين قبل أن توجد الإضافة فالحق حق والإنسان إنسان فإذا قلت الإنسان أو الناس عبيد الله قلت إن الله ملك الناس لا بد من ذلك فلو قدرت ارتفاع وجود العالم من الذهن جملة واحدة من كونه ملكا لم يرتفع وجود الحق لارتفاع العالم وارتفع وجود معنى الملك عن الحق ضرورة ولما كان وجود العالم مرتبطا بوجود الحق فعلا وصلاحية لهذا كان اسم

الملك لله تعالى أزلا وإن كان عين العالم معدوما في العين لكن معقوليته موجودة مرتبطة باسم المالك فهو مملوك لله تعالى وجودا وتقديرا قوة وفعلا فإن فهمت وإلا فافهم

]المعية والأينية الإلهيتان[

وليس بين الحق والعالم بون يعقل أصلا إلا التمييز بالحقائق فالله ولا شيء معه سبحانه ولم يزل كذلك ولا يزال كذلك لا شيء معه فمعيته معنا كما يستحق جلاله وكما ينبغي لجلاله ولو لا ما نسب لنفسه إنه معنا لم يقتض العقل أن يطلق عليه معنى المعية كما لا يفهم منها العقل السليم حين أطلقها الحق على نفسه ما يفهم من معية العالم بعضه مع بعض لأنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ قال تعالى وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وقال تعالى إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وأَرى لموسى وهارون فنقول إن الحق معنا على حد ما قاله وبالمعنى الذي أراده ولا نقول إنا مع الحق فإنه ما ورد والعقل لا يعطيه فما لنا وجه عقلي ولا شرعي يطلق به إننا مع الحق وأما من نفي عنه إطلاق الأينية من أهل الإسلام فهو ناقص الايمان فإن العقل ينفي عنه معقولية الأينية والشرع الثابت في السنة لا في الكتاب قد أثبت إطلاق لفظ الأينية على الله فلا تتعدى ولا يقاس عليها وتطلق في الموضع الذي أطلقها الشارع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للسوداء التي ضربها سيدها أين الله فأشارت إلى السماء فقبل إشارتها وقال أعتقها فإنها مؤمنة

فالسائل بالأينية أعلم الناس بالله تعالى وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأول بعض علماء الرسوم إشارتها إلى السماء وقبول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منها لما كانت الآلهة التي تعبد في الأرض وهذا تأويل جاهل بالأمر غير عالم وقد علمنا أن العرب كانت تعبد كوكبا في السماء يسمى الشعرى سنه لهم أبو كبشة وتعتقد فيها أنها رب الأرباب هكذا وقفت على مناجاتهم إياها ولذلك قال تعالى وأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى فلو لم يعبد كوكب في السماء لساغ هذا التأويل لهذا المتأول وهذا أبو كبشة الذي كان شرع عبادة الشعرى هو من أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمه ولذلك كانت العرب تنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فتقول ما فعل ابن أبي كبشة حيث أحدث عبادة إله واحد كما أحدث جده عبادة الشعرى

]أقطاب مقام ملك الملك[

ومن أقطاب هذا المقام ممن كان قبلنا محمد ابن علي الترمذي الحكيم ومن شيوخنا أبو مدين رحمه الله وكان يعرف في العالم العلوي بأبي النجا وبه يسمونه الروحانيون وكان يقول

رضي الله عنه سورتي من القرآن تبارك الذي بيده الملك ومن أجل هذا كنا نقول فيه إنه أحد الإمامين لأن هذا هو مقام الإمام ثم نقول ولما كان الحق تعالى مجيبا لعبده المضطر فيما يدعوه به ويسأله منه صار كالمتصرف فلهذا كان يشير أبو مدين بقوله فكان يقول فيه ملك الملك وأما صحة هذه الإضافة لتحقق العبد في كل نفس إنه ملك لله تعالى من غير أن يتخلل هذا الحال دعوى تناقضه فإذا كان بهذه المثابة حينئذ يصدق عليه أنه ملك عنده فإن شابته رائحة من الدعوى وذلك بأن يدعي لنفسه ملكا عريا عن حضوره في تمليك الله إياه ذلك الأمر الذي سماه ملكا له وملكا لم يكن في هذا المقام ولا صح له أن يقول في الحق إنه ملك الملك وإن كان كذلك في نفس الأمر فقد أخرج هذا نفسه بدعواه بجهله أنه ملك لله وغفلته في أمر ما فيحتاج صاحب هذا المقام إلى ميزان عظيم لا يبرح بيده ونصب عينه

)وصل) وأما أسرار الاشتراك بين الشريعتين

فمثل قوله تعالى أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي وهذا مقام ختم الأولياء ومن رجاله اليوم خضر والياس وهو تقرير الثاني ما أثبته الأول من الوجه الذي أثبته مع مغايرة الزمان ليصح المتقدم والمتأخر وقد لا يتغير المكان ولا الحال فيقع الخطاب بالتكليف للثاني من عين ما وقع للأول ولما كان الوجه الذي جمعهما لا يتقيد بالزمان والأخذ منه أيضا لا يتقيد بالزمان جاز الاشتراك في الشريعة من شخصين إلا أن العبارة يختلف زمانها ولسانها إلا أن ينطقا في آن واحد بلسان واحد كموسى وهارون لما قيل لهما اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ومع هذا كله فقد قيل لهما فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً فأتى بالنكرة في قوله قولا ولا سيما وموسى يقول هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً يعني هارون فقد يمكن أن يختلفا في العبارة في مجلس واحد فقد جمعهما مقام واحد وهو البعث في زمان واحد إلى شخص واحد برسالة واحدة

]التوسع الإلهي: أو فكرة الخلق الجديد[

وإن كان قد منع وجود مثل هذا جماعة من أصحابنا وشيوخنا كأبي طالب المكي ومن قال بقوله وإليه نذهب وبه أقول وهو الصحيح عندنا فإن الله تعالى لا يكرر تجليا على شخص واحد ولا يشرك فيه بين شخصين للتوسع الإلهي وإنما الأمثال والأشباه توهم الرائي والسامع للتشابه الذي يعسر فصله إلا على أهل الكشف والقائلين من المتكلمين إن العرض لا يبقى زمانين ومن الاتساع الإلهي أن الله أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وميز كل شيء في العالم بأمر ذلك الأمر هو الذي ميزه عن غيره وهو أحدية كل شيء فما اجتمع اثنان في

مزاج واحد قال أبو العتاهية

وفي كل شيء له آية ..... تدل على أنه واحد

وليست سوى أحدية كل شيء فما اجتمع قط اثنان فيما يقع به الامتياز ولو وقع الاشتراك فيه ما امتازت وقد امتازت عقلا وكشفا ومن هذا المنزل في هذا الباب تعرف إيراد الكبير على الصغير والواسع على الضيق من غير أن يضيق الواسع ويوسع الضيق أي لا يغير شيء عن حاله لكن لا على الوجه الذي يذهب إليه أهل النظر من المتكلمين والحكماء في ذلك فإنهم يذهبون إلى اجتماعهما في الحد والحقيقة لا في الجرمية فإن كبر الشيء وصغره لا يؤثر في الحقيقة الجامعة لهما ومن هذا الباب أيضا قال أبو سعيد الخراز ما عرف الله إلا بجمعه بين الضدين ثم تلا هُوَ الْأَوَّلُ والْآخِرُ والظَّاهِرُ والْباطِنُ يريد من وجه واحد لا من نسب مختلفة كما يراه أهل النظر من علماء الرسوم

]عيسى خاتم الولاية العامة[

واعلم أنه لا بد من نزول عيسى عليه السلام ولا بد من حكمه فينا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

يوحي الله بها إليه من كونه نبيا فإن النبي لا يأخذ الشرع من غير مرسله فيأتيه الملك مخبرا بشرع محمد الذي جاء به صلى الله عليه وسلم.

وقد يلهمه إلهاما فلا يحكم في الأشياء بتحليل وتحريم إلا بما كان يحكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان حاضرا.

ويرتفع اجتهاد المجتهدين بنزوله عليه السلام ولا يحكم فينا بشرعه الذي كان عليه في أوان رسالته ودولته.

فيما هو عالم بها من حيث الوحي الإلهي إليه بها هو رسول ونبي وبما هو الشرع الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم هو تابع له فيه.

وقد يكون له من الاطلاع على روح محمد صلى الله عليه وسلم كشفا بحيث أن يأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمته صلى الله عليه وسلم.

فيكون عيسى عليه السلام صاحبا ونابعا من هذا الوجه وهو عليه السلام من هذا الوجه خاتم الأولياء.

فكان من شرف النبي صلى الله عليه وسلم إن ختم الأولياء في أمته نبي رسول مكرم هو عيسى عليه السلام وهو أفضل هذه الأمة المحمدية.

وقد نبه عليه الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء له وشهد له بالفضيلة على أبي بكر الصديق وغيره.

فإنه وإن كان وليا في هذه الأمة والملة المحمدية فهو نبي ورسول في نفس الأمر فله يوم القيامة حشران يحشر في جماعة الأنبياء والرسل بلواء النبوة والرسالة وأصحابه تابعون له فيكون متبوعا كسائر الرسل ويحشر أيضا معنا وليا في جماعة أولياء هذه الأمة تحت لواء محمد صلى الله عليه وسلم تابعا له. مقدما على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر ولي يكون في العالم.

فجمع الله له بين الولاية والنبوة ظاهرا وما في الرسل يوم القيامة من يتبعه رسول إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يحشر يوم القيامة في أتباعه عيسى والياس عليهما السلام وإن كان كل من في الموقف من آدم فمن دونه تحت لوائه –صلّى الله عليه وسلّم –.

فذلك لواؤه العام وكلامنا في اللواء الخاص بأمته –صلّى الله عليه وسلّم–.

]ختم الولاية المحمّديّة الخاصّة[

وللولاية المحمدية المخصوصة بهذا الشرع المنزل على محمد –صلّى الله عليه وسلّم– ختم خاص.

هو في الرتبة دون عيسى –عليه السلام– لكونه رسولا وقد ولد في زماننا ورأيته أيضا واجتمعت به.

ورأيت العلامة الختمية التي فيه فلا ولي بعده إلا وهو راجع إليه كما أنه لا نبي بعد محمد –صلى الله عليه وسلم– إلا وهو راجع إليه كعيسى إذا نزل.

فنسبة كل ولي يكون بعد هذا الختم إلى يوم القيامة كنسبة كل نبي يكون بعد محمد –صلى الله عليه وسلم– في النبوة:

كإلياس وعيسى والخضر في هذه الأمة وبعد أن بينت لك مقام عيسى عليه السلام إذا نزل

فقل ما شئت إن شئت قلت شريعتين لعين واحدة وإن شئت قلت شريعة واحدة

)وصل)

[القلوب المتعشقة بالأنفاس الرحمانية]

وأمّا القلوب المتعشّقة بالأنفاس، فإنّه لمّا كانت خزائن الأرواح الحيوانيّة، تعشّقت بالأنفاس الرّحمانيّة للمناسبة.

قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–: "إن نفس الرحمن يأتيني من قبل اليمن".

ألا وإن الروح الحيواني نفس وإنّ أصل هذه الأنفاس عند القلوب المتعشّق بها النفس الرحماني الذي من قبل اليمن.

لمن أخرج عن وطنه وحيل بينه وبين مسكنه وسكنه ففيها تفريج الكرب ودفع النّوب.

وقال –صلّى الله عليه وسلّم–: "إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات ربكم"، وتنتهي منازل هذه الأنفاس في العدد إلى ثلاثمائة نفس وثلاثين نفسا.

في كل منزل من منازلها التي جملتها الخارج من ضرب ثلاثمائة وثلاثين في ثلاثمائة وثلاثين فما خرج فهو عدد الأنفاس التي تكون من الحق من اسمه الرحمن في العالم البشري والذي أتحقّقه أن لها منازل تزيد على هذا المقدار مائتين منزلا في حضرة الفهوانية خاصة.

فإذا ضربت ثلاثمائة وثلاثين في خمسمائة وثلاثين فما خرج لك بعد الضرب فهو عدد الأنفاس الرحمانية في العالم الإنساني كل نفس منها علم إلهي مستقل عن تجل إلهي خاص لهذه المنازل لا يكون لغيرها.

فمن شم من هذه الأنفاس رائحة عرف مقدارها وما رأيت من أهلها من هو معروف عند الناس وأكثر ما يكونون من بلاد الأندلس.

واجتمعت بواحد منهم بالبيت المقدس وبمكّة، فسألته يوما في مسألة.

فقال لي هل تشم شيئًا"، فعلمت أنه من أهل ذلك المقام وخدمني مدة.

وكان لي عمّ أخو والدي شقيقه، اسمه عبد الله بن محمّد بن العربي، كان له هذا المقام حسا ومعنى شاهدنا ذلك منه قبل رجوعنا لهذا الطريق في زمان جاهليتي.

﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1].

---

[1]

الباب الخامس والعشرون
في معرفة وتد مخصوص معمر
وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم
وسر المنزل والمنازل ومن دخله من العالم

إن الأمور لها حد ومطلع ..... من بعد ظهر وبطن فيه تجتمع
في الواحد العين سر ليس يعلمه ..... إلا مراتب أعداد بها تقع
هو الذي أبرز الأعداد أجمعها ..... وهو الذي ما له في العد متسع
مجاله ضيق رحب فصورته ..... كناظر في مراء حين ينطبع
فما تكثر إذ أعطت مراتبه ..... تكثرا فهو بالتنزيه يمتنع
كذلك الحق إن حققت صورته ..... بنفسه وبكم تعلو وتتضع

]الخضر في حياة المؤلّف] الشيخ ابن العربي

اعلم أيها الولي الحميم –أيدك الله– أنّ هذا الوتد هو خضر صاحب موسى عليه السلام أطال الله عمره إلى الآن.
وقد رأينا من رآه واتفق لنا في شأنه أمر عجيب.
وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبي رحمه الله جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.
فقال لي: "هو فلان ابن فلان"، وسمّى لي شخصًا أعرفه باسمه وما رأيته ولكن رأيت ابن عمّته فربما توقفت فيه ولم آخذ بالقبول، أعني قوله فيه لكوني على بصيرة في أمره.
ولا شكّ أنّ الشّيخ رجع سهمه عليه، فتأذّى في باطنه، ولم أشعر بذلك، فإنّي كنت في بداية أمري.
فانصرفت عنه إلى منزلي فكنت في الطّريق فلقيني شخص لا أعرفه فسلم علي ابتداء سلام محب مشفق.

وقال لي يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان وسمّى لنا الشّخص الذي ذكره أبو العبّاس العريبي.

فقلت له نعم وعلمت ما أراد ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرفه بما جرى.

فعند ما دخلت عليه قال لي يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك صدق فلانا فيما ذكره لك ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني.

فتتوقف فقلت إن باب التوبة مفتوح

فقال وقبول التوبة واقع

فعلمت إن ذلك الرجل كان الخضر ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه أهو هو قال نعم هو الخضر.

ثم اتفق لي مرة أخرى أني كنت بمرسى تونس بالحفرة في مركب في البحر فأخذني وجع في بطني وأهل المركب قد ناموا.

فقمت إلى جانب السفينة وتطلعت إلى البحر فرأيت شخصا على بعد في ضوء القمر وكانت ليلة البدر وهو يأتي على وجه الماء حتى وصل إلي.

فوقف معي ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى فرأيت باطنها وما أصابها بلل ثم اعتمد عليها ورفع الأخرى فكانت كذلك.

ثم تكلم معي بكلام كان عنده ثمّ سلّم وانصرف يطلب المنارة محرسا على شاطئ البحر على تل بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين.

فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاثة فسمعت صوته وهو على ظهر المنارة يسبح الله –تعالى–.

وربّما مشى إلى شيخنا جراح بن خميس الكتاني وكان من سادات القوم مرابطا بمرسى عيدون وكنت جئت من عنده بالأمس من ليلتي تلك.

فلما جئت المدينة لقيت رجلا صالحا فقال لي: "كيف كانت ليلتك البارحة في المركب مع الخضر؟ ما قال لك وما قلتَ له؟".

فلمّا كان بعد ذلك التأريخ خرجت إلى السياحة بساحل البحر المحيط ومعي رجل ينكر خرق العوائد للصّالحين فدخلت مسجدا خرابا منقطعا لأصلي فيه أنا وصاحبي صلاة الظهر.

فإذا بجماعة من السائحين المنقطعين دخلوا علينا يريدون ما نريده من الصلاة في ذلك المسجد وفيهم ذلك الرجل الذي كلمني على البحر الذي قيل لي إنه الخضر وفيهم رجل كبير القد أكبر منه منزلة.

وكان بيني وبين ذلك الرجل اجتماع قبل ذلك ومودة فقمت فسلمت عليه فسلم علي وفرح بي وتقدم بنا يصلي.

فلما فرغنا من الصلاة خرج الإمام وخرجت خلفه وهو يريد باب المسجد وكان الباب في الجانب الغربي يشرف على البحر المحيط بموضع يسمّى بكّة فقمت أتحدث معه على باب المسجد.

وإذا بذلك الرجل الذي قلت إنه الخضر قد أخذ حصيرا صغيرا كان في محراب المسجد فبسطه في الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض ووقف على الحصير في الهواء ينتقل.

فقلت لصاحبي أما تنظر إلى هذا وما فعل

فقال لي سر إليه وسله.

فتركت صاحبي واقفا وجئت إليه فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وأنشدته لنفسي

شغل المحب عن الهواء يسره ..... في حب من خلق الهواء وسخره

العارفون عقولهم معقولة ..... عن كل كون ترتضيه مطهره

فهمو لديه مكرمون وفي الورى ..... أحوالهم مجهولة ومستترة

فقال لي: يا فلان ما فعلت ما رأيت إلا في حق هذا المنكر وأشار إلى صاحبي الذي كان ينكر خرق العوائد وهو قاعد في صحن المسجد ينظر إليه ليعلم أن الله يفعل ما يشاء مع من يشاء.

فرددت وجهي إلى المنكر وقلت له ما تقول

فقال ما بعد العين ما يقال

ثمّ رجعت إلى صاحبي وهو ينتظرني بباب المسجد فتحدثت معه ساعة

وقلت له من هذا الرجل الذي صلى في الهواء وما ذكرت له ما اتفق لي معه قبل ذلك

فقال لي هذا الخضر فسكت وانصرفت الجماعة وانصرفنا نريد روطة موضع مقصود يقصده الصّلحاء من المنقطعين، وهو بمقربة من بشكنصار على ساحل البحر المحيط

فهذا ما جرى لنا مع هذا الوتد نفعنا الله برؤيته.
وله من العلم اللّدني ومن الرحمة بالعالم ما يليق بمن هو على رتبته وقد أثنى الله عليه.

]خرقة الخضر[

واجتمع به رجل من شيوخنا وهو علي بن عبد الله بن جامع من أصحاب علي المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان كان يسكن بالمقلى خارج الموصل في بستان له.
وكان الخضر قد ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر من بستانه وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها.
وقد كنت لبست خرقة الخضر بطريق أبعد من هذا من يد صاحبنا تقيّ الدّين عبد الرّحمن بن عليّ بن ميمون بن أب التّوزري.
ولبسها هو من يد صدر الدين شيخ الشيوخ بالديار المصرية وهو ابن حمويه وكان جده قد لبسها من يد الخضر.
ومن ذلك الوقت قلت بلباس الخرقة وألبستها الناس لما رأيت الخضر قد اعتبرها.
وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن فإن الخرقة عندنا إنما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلق.
ولهذا لا يوجد لباسها متصلا برسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–.
ولكن توجد صحبة وأدبا وهو المعبر عنه بلباس التقوى فجرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحدا من أصحابهم عنده نقص في أمر ما وأرادوا أن يكملوا له حاله يتحد به هذا الشيخ.
فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد تكملة حاله.
فيسري فيه ذلك الحال فيكمل له ذلك فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من شيوخنا.

]مراتب رجال الله في فهم مراتب القرآن[

ثم اعلم أن رجال الله على أربع مراتب:

رجال لهم الظاهر

ورجال لهم الباطن

ورجال لهم الحد

ورجال لهم المطلع

فإن الله –سبحانه– لمّا أغلق دون الخلق باب النبوة والرسالة أبقى لهم باب الفهم عن الله فيما أوحى به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز.

وكان علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– يقول: "إنّ الوحي قد انقطع بعد رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– وما بقي بأيدينا إلّا أن يرزق الله عبدا فهما في هذا القرآن"

وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحة خبرعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "في آي القرآن إنه ما من آية إلّا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع"

ولكلّ مرتبة من هذه المراتب رجال

ولكلّ طائفة من هؤلاء الطوائف قطب

وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف.

دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز من أهل باغة بأغرناطة سنة خمس وتسعين وخمسمائة وهو من أكبر من لقيته في هذا الطريق لم أر في طريقه مثله في الاجتهاد.

فقال لي الرّجال أربعة:

– ﴿رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عَلَيْهِ﴾[1]، وهم رجال الظّاهر.

– ﴿ورِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾[2]، وهم رجال الباطن جلساء الحقّ – تعالى–، ولهم المشورة.

– ورجال الأعراف، وهم رجال الحدّ. قال الله –تعالى–:﴿وعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ﴾[3]: أهل الشمّ والتّمييز والسّراح عن الأوصاف، فلا صفة لهم؛ كان منهم أبو يزيد البسطامي ورجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالًا لسرعة الإجابة لا يركبون ﴿وأَذِّنْ في النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ

1
2
3

رِجالًا﴾[1]، وهم رجال المطلع.

فرجال الظّاهر هم الذين لهم التصرف في عالم الملك والشهادة وهم الذين كان يشير إليهم الشّيخ محمّد بن قائد الأواني وهو المقام الذي تركه الشّيخ العاقل أبو السّعود بن الشّبل البغدادي أدبا مع الله.

أخبرني أبو البدر التماشكي البغدادي رحمه الله قال لما اجتمع محمد بن قائد الأواني وكان من الأفراد بأبي السعود هذا قال له:

يا أبا السعود إنّ الله قسم المملكة بيني وبينك فلم لا تتصرّف فيها كما أتصرف أنا.

فقال له أبو السعود يا ابن قائد وهبتك سهمي نحن تركنا الحق يتصرف لنا وهو قوله – تعالى– : ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[2] فامتثل أمر الله.

فقال لي أبو البدر قال لي أبو السّعود: "إنّي أعطيت التّصرّف في العالم منذ خمس عشرة سنة من تاريخ قوله فتركته وما ظهر علي منه شيء.

وأمّا رجال الباطن فهم الذين لهم التّصرّف في عالم الغيب والملكوت، فيستنزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه وأعني أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة.

وإنّما كان ذلك لمانع إلهي قوي يقتضيه مقام الأملاك.

أخبر الله به في قول جبريل –عليه السّلام– لمحمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، فقال: ﴿وما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[3]. ومَن كان تنزله بأمر ربه لا تؤثر فيه الخاصّيّة.

ولا ينزل بها نعم أرواح الكواكب تستنزل بالأسماء والبخورات وأشباه ذلك لأنه تنزل معنوي ولمن يشاهد فيه صورًا خيالي فإنّ ذات الكواكب لا تبرح من السّماء مكانها، ولكن قد جعل الله لمطارح شعاعاتها في عالم الكون والفساد تأثيرات معتادة عند العارفين بذلك.

كالري عند شرب الماء والشبع عند الأكل ونبات الحبة عند دخول الفصل بنزول المطر والصّحو حكمة أودعها العليم الحكيم جل وعز فيفتح لهؤلاء الرّجال في باطن الكتب المنزلة والصّحف المطهّرة وكلام العالم كلّه ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم اختصاصا إلهيا.

وأمّا رجال الحد فهم الذين لهم التصرف في عالم الأرواح النارية عالم البرزخ والجبروت. فإنّه تحت الجبر ألا تراه مقهورا تحت سلطان ذوات الأذناب وهم طائفة منهم من الشّهب

1
2
3

الثواقب فما قهرهم إلا بجنسهم.
فعند هؤلاء الرّجال استنزال أرواحها وإحضارها.
وهم رجال الأعراف والأعراف سور حاجز بين الجنة والنار برزخ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب فهو حد بين دار السعداء ودار الأشقياء دار أهل الرؤية ودار الحجاب.
وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذا السور ولهم شهود الخطوط المتوهمة بين كل نقيضين مثل قوله: ﴿بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾[1]، فلا يتعدّون الحدود.
وهم رجال الرحمة التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، فلهم في كل حضرة دخول واستشراف.
وهم العارفون بالصّفات التي يقع بها الامتياز لكلّ موجود عن غيره من الموجودات العقليّة والحسيّة.
وأمّا رجال المطلع فهم الذين لهم التّصرّف في الأسماء الإلهية فيستنزلون بها منها ما شاء الله، وهذا ليس لغيرهم.
ويستنزلون بها كل ما هو تحت تصريف الرجال الثلاثة رجال الحدّ والباطن والظّاهر.
وهم أعظم الرجال وهم الملاميّة هذا في قوتهم وما يظهر عليهم من ذلك شيء منهم أبو السّعود وغيره فهم والعامة في ظهور العجز وظاهر العوائد سواء.
وكان لأبي السعود في هؤلاء الرجال تميز بل كان من أكبرهم وسمعه أبو البدر على ما حدثنا مشافهة يقول: "إنّ من رجال الله مَن يتكلّم على الخاطر، وما هو مع الخاطر"، أي لا علم له بصاحبه، ولا يقصد التّعريف به.
ولمّا وصف لنا عمر البزّاز وأبو البدر وغيرهما حال هذا الشّيخ، رأيناه يجري مع أحوال هذا الصّنف العالي من رجال الله.
قال لي أبو البدر:
كان كثيرًا ما ينشد بيتًا لم نسمع منه غيره، وهو:
وأثبت في مستنقع الموت رجله ..... وقال لها من دون أخمصك الحشر
وكان يقول: "ما هو إلّا الصّلوات الخمس وانتظار الموت"، وتحت هذا الكلام علم كبير.
وكان يقول: "الرّجل مع الله –تعالى– كساعي الطّير فم مشغول وقدم تسعى".

1
2

وهذا كلّه أكبر حالات الرجال مع الله إذ الكبير من الرجال من يعامل كل موطن بما يستحقه وموطن هذه الدنيا لا يمكن أن يعامله المحقق إلّا بما ذكره هذا الشيخ.
فإذا ظهر في هذه الدّار من رجل خلاف هذه المعاملة، علم إنّ ثمّ نفسا ولا بدّ إلّا أن يكون مأمورًا بما ظهر منه، وهم الرّسل والأنبياء –عليهم السّلام–؛ وقد يكون بعض الورثة لهم أمر في وقت بذلك، وهو مكر خفي، فإنّه انفصال عن مقام العبوديّة التي خلق الإنسان لها.

]سرّ المنازل أو تجلّيات الحقّ في الصّور[

وأمّا سرّ المنزل والمنازل فهو ظهور الحق بالتجلي في صور كل ما سواه، فلولا تجلّيه لكلّ شيء ما ظهرت شيئيّة ذلك الشّيء.
قال –تعالى–: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾[1]. فقوله: ﴿إِذا أَرَدْناهُ﴾[2] هو التّوجّه الإلهي لإيجاد ذلك الشّيء.
ثمّ قال: ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ﴾[3]، فنفس سماع ذلك الشيء خطاب الحق تكون ذلك الشّيء، فهو بمنزلة سريان الواحد في منازل العدد، فتظهر الأعداد إلى ما لا يتناهى بوجود الواحد في هذه المنازل.
ولولا وجود عينه فيها ما ظهرت أعيان الأعداد ولا كان لها اسم.
ولو ظهر الواحد باسمه في هذه المنزلة ما ظهر لذلك العدد عين، فلا تجتمع عينه واسمه معًا أبدًا.
فيُقال اثنان ثلاثة أربعة خمسة إلى ما لا يتناهى، وكلّ ما أسقطت واحدًا من عدد معيّن زال اسم ذلك العدد وزالت حقيقته.
فالواحد بذاته يحفظ وجود أعيان الأعداد وباسمه يعدمها كذلك.
إذا قلت القديم فنى المحدث
وإذا قلت الله فنى العالم
وإذا أخليت العالم من حفظ الله لم يكن للعالم وجود وفنى.

1
2
3

وإذا سرى حفظ الله في العالم بقي العالم موجودا.

فبظهوره وتجليه يكون العالم باقيا.

وعلى هذه الطريقة أصحابنا وهي طريقة النبوة والمتكلّمون من الأشاعرة أيضًا عليها، وهم القائلون بانعدام الأعراض لأنفسها.

وبهذا يصحّ افتقار العالم إلى الله في بقائه في كلّ نفس، ولا يزال الله خلّاقا على الدّوام.

وغيرهم من أهل النظر لا يصحّ لهم هذا المقام.

وأخبرني جماعة من أهل النّظر من علماء الرّسوم أنّ طائفة من الحكماء عثروا على هذا، ورأيته مذهبًا لابن السيّد البطليوسي في كتاب ألّفه في هذا الفنّ.

﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1].

1

الباب السّادس والعشرون
في معرفة أقطاب الرّموز وتلويحات من أسرارهم وعلومهم في الطّريق

ألا إن الرموز دليل صدق ..... على المعنى المغيب في الفؤاد
وإن العالمين له رموز ..... والغاز ليدعى بالعباد
ولو لا اللغز كان القول كفرا ..... وأدى العالمين إلى العناد
فهم بالرمز قد حسبوا فقالوا ..... بإهراق الدماء وبالفساد
فكيف بنا لو أن الأمر يبدو ..... بلا ستر يكون له استنادي
لقام بنا الشقاء هنا يقينا ..... وعند البعث في يوم التنادي
ولكن الغفور أقام سترا ..... ليسعدنا على رغم الأعادي

]الرّمز والألغاز[

اعلم أيها الولي الحميم أيدك الله بروح القدس وفهمك إن الرموز والألغاز ليست مرادة لأنفسها وإنما هي مرادة لما رمزت له ولما ألغز فيها ومواضعها من القرآن آيات الاعتبار كلها والتنبيه على ذلك.
قوله –تعالى–: ﴿وتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ﴾[1]، فالأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها، وإنّما جاءت ليعلم منها ما ضربت له وما نصبت من أجله.
مثلا مثل قوله –تعالى–:﴿أَنْزَلَ من السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ في النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ والْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً﴾[2]، فجعله كالباطل، كما قال: ﴿وزَهَقَ الْباطِلُ﴾[3].
ثمّ قال: ﴿وأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الْأَرْضِ﴾[4] ضربه مثلًا للحقّ.
﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثالَ وقال فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾[5]، أي تعجّبوا وجوزوا واعبروا إلى ما أردته بهذا التعريف

1
2
3
4
5

﴿وإِنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ﴾[1]، من عبرت الوادي إذا جزته.
وكذلك الإشارة والإيماء. قال –تعالى– لنبيه زكريا: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً﴾[2]، أي بالإشارة.
وكذلك: ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ﴾[3] في قصّة مريم لمّا نذرت للرّحمن أن تمسك عن الكلام.
ولهذا العلم رجال كبير قدرهم من أسرارهم سرّ الأزل والأبد والحال والخيال والرّؤيا والبرازخ؛ وأمثال هذه من النّسب الإلهيّة.
ومن علومهم: خواصّ العلم بالحروف والأسماء والخواصّ المركّبة والمفردة من كلّ شيء من العالم الطبيعي، وهي الطّبيعة المجهولة.

]الأزل، أو أوّليّة الحقّ وأوّليّة العالم[

فأمّا علم سرّ الأزل فاعلم إن الأزل عبارة عن نفي الأولية لمن يوصف به، وهو وصف لله – تعالى– من كونه إلها وإذا انتفت الأولية عنه تعالى من كونه إلها فهو المسمى بكل اسم سمي به نفسه أزلا من كونه متكلما فهو العالم الحي المريد القادر السميع البصير المتكلم الخالق البارئ المصور الملك لم يزل مسمى بهذه الأسماء وانتفت عنه أولية التقييد، فسمع المسموع وأبصر المبصر إلى غير ذلك وأعيان المسموعات منّا والمبصرات معدومة غير موجودة، وهو يراها أزلا كما يعلمها أزلًا ويميزها ويفصلها أزلا ولا عين لها في الوجود النفسي العيني بل هي أعيان ثابتة في رتبة الإمكان فالإمكانية لها أزلا كما هي لها حالا.
وأبدًا لم تكن قط واجبة لنفسها ثم عادت ممكنة ولا محالا ثم عادت ممكنة، بل كان الوجوب الوجودي الذّاتي لله –تعالى– أزلًا كذلك وجوب الإمكان للعالم أزلًا.
فالله في مرتبته بأسمائه الحسنى يسمى منعوتا موصوفاتها فعين نسبة الأول له نسبة الآخر والظاهر والباطن لا يقال هو أول بنسبة كذا ولا آخر بنسبة كذا فإن الممكن مرتبط بواجب الوجود في وجوده وعدمه ارتباط افتقار إليه في وجوده فإن أوجده لم يزل في إمكانه وإن عدم لم يزل عن إمكانه فكما لم يدخل على الممكن في وجود عينه بعد أن كان معدوما صفة تزيله عن إمكانه كذلك لم يدخل على الخالق الواجب الوجود في إيجاده العالم

1
2
3

وصف يزيله عن وجوب وجوده لنفسه، فلا يعقل الحقّ إلّا هكذا، ولا يعقل الممكن لا هكذا.

فإن فهمتَ علمت معنى الحدوث ومعنى القدم فقل بعد ذلك ما شئت فأولية العالم وآخريته أمر إضافي إن كان له آخر أما في الوجود فله آخر في كل زمان فرد وانتهاء عند أرباب الكشف ووافقتهم الحسبانية على ذلك كما وافقتهم الأشاعرة على إن العرض لا يبقى زمانين فالأول من العالم بالنسبة إلى ما يخلق بعده والآخر من العالم بالنسبة إلى ما خلق قبلة وليس كذلك معقولية الاسم الله بالأول والآخر والظاهر والباطن فإن العالم يتعدد والحق واحد لا يتعدد ولا يصح أن يكون أولا لنا فإن رتبته لا تناسب رتبتنا ولا تقبل رتبتنا أوليته ولو قبلت رتبتنا أوليته لاستحال علينا اسم الأولية بل كان ينطلق علينا اسم الثاني لأوليته ولسنا بثان له –تعالى– عن ذلك فليس هو بأول لنا. فلهذا كان عين أوليته عين آخريته.

وهذا المدرك عزيز المنال يتعذّر تصوره على من لا أنسة له بالعلوم الإلهيّة التي يعطيها التّجلّي والنظر الصحيح وإليه كان يشير أبو سعيد الخرّاز بقوله: عرفت الله بجمعه بين الضدّين ثمّ يتلو: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ والْآخِرُ والظَّاهِرُ والْباطِنُ﴾[1].

فقد أبنت لك عن سر الأزل وإنه نعت سلبي.

]الأبد[

وأمّا سر الأبد، فهو نفي الآخرية فكما إنّ الممكن انتفت عنه الآخريّة شرعا من حيث الجملة، إذ الجنّة والإقامة فيها إلى غير نهاية كذلك الأوّليّة بالنّسبة إلى ترتيب الموجودات الزمانية معقولة موجودة فالعالم بذلك الاعتبار الإلهي لا يقال فيه أول ولا آخر وبالاعتبار الثاني هو أوّل وآخر بنسبتين مختلفتين بخلاف ذلك في إطلاقها على الحق عند العلماء بالله.

]الحال[

[1]

وأمّا سرّ الحال، فهو الدّيمومة وما لها أول ولا آخر وهو عين وجود كلّ موجود فقد عرفتك ببعض ما يعلمه رجال الرّموز من الأسرار وسكت عن كثير فإنّ بابه واسع وعلم الرّؤيا والبرزخ والنّسب الإلهيّة من هذا القبيل والكلام فيها يطول.

]في علم الحروف: خواصها[

وأمّا علومهم في الحروف والأسماء فاعلم إن الحروف لها خواص وهي على ثلاثة أضرب منها حروف رقمية ولفظية ومستحضرة وأعني بالمستحضرة الحروف التي يستحضرها الإنسان في وهمه وخياله ويصورها فأما إن يستحضر الحروف الرقمية أو الحروف اللفظية وما ثم للحروف رتبة أخرى فيفعل بالاستحضار كما يفعل بالكتاب أو التلفظ فأما حروف التلفظ فلا تكون إلّا أسماء فذلك خواص الأسماء وأما المرقومة فقد لا تكون أسماء.
واختلف أصحاب هذا العلم في الحرف الواحد هل يفعل أم لا؟
فرأيت منهم من منع من ذلك جماعة ولا شك أني لما خضت معهم في مثل هذا أوقفتهم على غلطهم في ذلك الذي ذهبوا إليه وإصابتهم وما نقصهم من العبارة عن ذلك.
ومنهم من أثبت الفعل للحرف الواحد وهؤلاء أيضا مثل الذين منعوا مخطئون ومصيبون ورأيت منهم جماعة وأعلمتهم بموضع الغلط والإصابة فاعترفوا كما اعترف الآخرون.
وقلت للطّائفتين جربوا ما عرفتم من ذلك على ما بيناه لكم فجربوه فوجدوا الأمر كما ذكرناه ففرحوا بذلك ولولا أنّي آليت عقدا أن لا يظهر مني أثر عن حرف، لأريتهم من ذلك عجبًا.

]الحروف الرّقميّة واللّفظيّة والمستحضرة[

فاعلم إنّ الحرف الواحد سواء كان مرقوما أو متلفظا به إذا عرى القاصد للعمل به عن استحضاره في الرقم أو في اللفظ خيالا لم يعمل وإذا كان معه الاستحضار عمل فإنه مركب من استحضار ونطق أو رقم وغاب عن الطائفتين صورة الاستحضار مع الحرف الواحد فمن اتفق له الاستحضار مع الحرف الواحد ورأى العمل غفل عن الاستحضار

ونسب العمل للحرف الواحد ومن اتفق له التلفظ أو الرقم بالحرف الواحد دون استحضار فلم يعمل الحرف شيئا قال بمنع ذلك وما واحد منهم تفطن لمعنى الاستحضار وهذه حروف الأمثال المركبة كالواوين وغيرهما.

فلما نبّهناهم على مثل هذا جربوا ذلك فوجدوه صحيحا وهو علم ممقوت عقلا وشرعا فأما الحروف اللفظية فإن لها مراتب في العمل وبعض الحروف أعمّ عملا من بعض وأكثر فالواو أعمّ الحروف عملا لأن فيها قوّة الحروف كلها والهاء أقل الحروف عملا وما بين هذين الحرفين من الحروف تعمل بحسب مراتبها على ما قررناه في كتاب المبادي والغايات فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات.

]علم الحروف هو علم الأولياء[

وهذا العلم يسمى علم الأولياء وبه تظهر أعيان الكائنات أ لا ترى تنبيه الحق على ذلك بقوله كُنْ فَيَكُونُ فظهر الكون عن الحروف ومن هنا جعله الترمذي علم الأولياء ومن هنا منع من منع أن يعمل الحرف الواحد فإنه رأى مع الاقتدار الإلهي لم يأت في الإيجاد حرف واحد وإنما أتى بثلاثة أحرف حرف غيبي وحرفين ظاهرين إذا كان الكائن واحدا فإن زاد على واحد ظهرت ثلاثة أحرف.

فهذه علوم هؤلاء الرجال المذكورين في هذا الباب وعمل أكثر رجال هذا العلم لذلك جدولا وأخطئوا فيه وما صحّ فلا أدري أ بالقصد عملوا ذلك حتّى يتركوا الناس في عماية من هذا العلم أم جهلوا ذلك وجرى فيه المتأخر على سنن المتقدم وبه قال تلميذ جعفر الصّادق وغيره.

وهذا هو الجدول في طبائع الحروف حار بارد يابس رطب فكل حرف منها وقع في جدول الحرارة فهو حار وما وقع منها في جدول البرودة فهو بارد وكذلك اليبوسة والرّطوبة ولم نر هذا التّرتيب يصيب في كل عمل بل يعمل بالاتفاق كأعداد الوفق.

]الحروف: خاصيتها في أشكالها لا في حروفها[

واعلم أنّ هذه الحروف لم تكن لها هذه الخاصية من كونها حروفا وإنما كان لها من كونها

أشكالا فلما كانت ذوات أشكال كانت الخاصية للشكل ولهذا يختلف عملها باختلاف الأقلام لأن الأشكال تختلف فأما الرقمية فأشكالها محسوسة بالبصر فإذا وجدت أعيانها وصحبتها أرواحها وحياتها الذاتية كانت الخاصية لذلك الحرف لشكله وتركيبه مع روحه وكذلك إن كان الشكل مركبا من حرفين أو ثلاثة أو أكثر كان للشكل روح آخر ليس الروح الذي كان للحرف على انفراده فإن ذلك الروح يذهب وتبقي حياة الحرف معه فإن الشكل لا يدبره سوى روح واحد وينتقل روح ذلك الحرف الواحد إلى البرزخ مع الأرواح فإن موت الشكل زواله بالمحو وهذا الشكل الآخر المركب من حرفين أو ثلاثة أو ما كان ليس هو عين الحرف الأول الذي لم يكن مركبا إن عمرا ليس هو عين زيد وإن كان مثله.

وأما الحروف اللفظية فإنها تتشكل في الهواء ولهذا تتصل بالسمع على صورة ما نطق بها المتكلم فإذا تشكلت في الهواء قامت بها أرواحها وهذه الحروف لا يزال الهواء يمسك عليها شكلها وإن انقضى عملها فإنّ عملها إنما يكون في أوّل ما تتشكّل في الهواء ثم بعد ذلك تلتحق بسائر الأمم فيكون شغلها تسبيح ربّها وتصعد علوا ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[1] وهو عين شكل الكلمة من حيث ما هي شكل مسبّح لله –تعالى– ولو كانت كلمة كفر فإنّ ذلك يعود وباله على المتكلّم بها لا عليها.

ولهذا قال الشّارع إن الرجل ليتكلّم بالكلمة من سخط الله ما لا يظن أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النّار سبعين خريفا فجعل العقوبة للمتلفظ بها بسببها وما تعرض إليها.

فهذا كلام الله –سبحانه– يعظم ويمجّد ويقدس المكتوب في المصاحف ويقرأ على جهة القربة إلى الله وفيه جميع ما قالت اليهود والنّصارى في حق الله من الكفر والسب وهي كلمات كفر عاد وبالها على قائلها وبقيت الكلمات على بابها تتولّى يوم القيامة عذاب أصحابها أو نعيمهم.

]الحروف اللّفظيّة والمستحضرة خالدة[

وهذه الحروف الهوائية اللفظية لا يدركها موت بعد وجودها بخلاف الحروف الرقمية وذلك لأن شكل الحرف الرقمي والكلمة الرقمية تقبل التّغيير والزوال لأنه في محل يقبل ذلك

[1]

والأشكال اللفظية في محل لا يقبل ذلك ولهذا كان لها البقاء فالجو كله مملوء من كلام العالم يراه صاحب الكشف صورا قائمة.

وأمّا الحروف المستحضرة، فإنّها باقية إذ كان وجود أشكالها في البرزخ لا في الحسّ وفعلها أقوى من فعل سائر الحروف ولكن إذا استحكم سلطان استحضارها واتحد المستحضر لها ولم يبق فيه متسع لغيرها ويعلم ما هي خاصيتها حتى يستحضرها من أجل ذلك فيرى أثرها فهذا شبيه الفعل بالهمة وإن لم يعلم ما تعطيه فإنه يقع الفعل في الوجود ولا علم له به وكذلك سائر أشكال الحروف في كلّ مرتبة.

وهذا الفعل بالحرف المستحضر يعبر عنه بعض من لا علم له بالهمة وبالصدق وليس كذلك وإن كانت الهمة روحا للحرف المستحضر لا عين الشّكل المستحضر وهذه الحضرة تعمّ الحروف كلّها لفظيها ورقميها.

]خواصّ أشكال الحروف[

فإذا علمتَ خواصّ الأشكال وقع الفعل بها علما لكاتبها أو المتلفظ بها وإن لم يعين ما هي مرتبطة به من الانفعالات لا يعلم ذلك وقد أينا من قرأ آية من القرآن وما عنده خبر فرأى أثرا غريبا حدث وكان ذا فطنة فرجع في تلاوته من قريب لينظر ذلك الأثر بأية آية يختص فجعل يقرأ وينظر فمر بالآية التي لها ذلك الأثر فرأى الفعل فتعداها فلم ير ذلك الأثر فعاود ذلك مرارًا حتّى تحقّقه فاتخذها لذلك الانفعال ورجع كلّما أراد أن يرى ذلك الانفعال تلا تلك الآية فظهر له ذلك الأثر وهو علم شريف في نفسه إلّا أنّ السّلامة منه عزيزة فالأولى ترك طلبه فإنه من العلم الذي اختصّ الله به أولياءه على الجملة وإن كان عند بعض النّاس منه قليل ولكن من غير الطّريق الذي يناله الصالحون ولهذا يشقى به من هو عنده ولا يسعد فالله يجعلنا من العلماء بالله.

﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1]

[1]

الباب الرّابع والعشرون
في معرفة أقطاب صلّ فقد نويت وصالك
وهو من منزل العالم النّوراني

ولو لا النور ما اتصلت عيون ..... بعين المبصرات ولا رأتها
ولو لا الحق ما اتصلت عقول ..... بأعيان الأمور فأدركتها
إذا سألت عقول عن ذوات ..... تعد مغايرات أنكرتها
شو قالت ما علمنا غير ذات ..... تمد ذوات خلق أظهرتها
شهي المعنى ونحن لها حروف ..... فمهما عينت أمرا عنتها

[الصّلاة: منازلها ومناهلها]

[1- محبّة الربّ تسبق محبّة العبد]

اعلم أيّها الوليّ الحميم -تولّاك الله بعنايته- إنّ الله -تعالى- يقول في كتابه العزيز: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ﴾[1]، فقدّم محبّته إيّاهم على محبّتهم إيّاه.
وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾[2]، فقدّم إجابته لنا إذا دعوناه على إجابتنا له إذا دعانا وجعل الاستجابة من العبيد، لأنّها أبلغ من الإجابة؛ فإنّه لا مانع له من الإجابة -سبحانه-، فلا فائدة للتّأكيد. وللإنسان موانع من الإجابة لمّا دعاه الله إليه، وهي الهوى والنّفس والشّيطان والدّنيا؛ فلذلك أمر بالاستجابة.
فإنّ الاستفعال أشدّ في المبالغة من الأفعال وأين الاستخراج من الإخراج ولهذا يطلب

1
2

الكون من الله العون في أفعاله ويستحيل على الله أن يستعين بمخلوق قال –تعالى– تعليمًا لنا أن نقول: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] من هذا الباب.

فلهذا قال في هذا الباب: "صل"، فقد نويت وصالك فقد قدم الإرادة منه لذلك فقال صل فإذا تعملتَ في الوصلة فذلك عين وصلته بك فلذلك جعلها نيّة لا عملًا.

– 2]القرب الإلهي الخاص والعام[

قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– يقول الله –تعالى–: "مَن تقرّب إليّ شبرًا تقرّبتُ منه ذراعا".

وهذا قرب مخصوص يرجع إلى ما تتقرّب إليه –سبحانه– به من الأعمال والأحوال. فإنّ القرب العامّ: قوله –تعالى–: ﴿ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ من حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2]، ﴿ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ولكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾[3].

فضاعف القرب بالذراع، فإنّ الذراع ضعف للبشر، أي قوله: "صل" هو قرب ثم تقريب إليه شبرا فتبدي لك إنك ما تقربت إليه إلا به، لأنّه لو لا ما دعاك وبين لك طريق القربة وأخذ بناصيتك فيها ما تمكن لك أن تعرف الطريق التي تقرب منه ما هي ولو عرفنها لم يكن لك حول ولا قوة إلا به.

ولمّا كان القرب بالسّلوك والسّفر إليه، لذلك كان من صفته: النّور، لنهتدي به في الطّريق. كما قال –تعالى–: ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ الْبَرِّ﴾[4]، وهو السّلوك الظّاهر بالأعمال البدنيّة.

والْبَحْرِ وهو السّلوك الباطن المعنوي بالأعمال النّفسيّة.

فأصحاب هذا الباب معارفهم مكتسبة لا موهوبة وأكلهم من تحت أقدامهم أي من كسبهم لها واجتهادهم في تحصيلها ولو لا ما أرادهم الحق لذلك ما وفقهم ولا استعملهم حين طرد غيرهم بالمعنى ودعاهم بالأمر، فحرمهم الوصول بحرمانه إياهم استعمال الأسباب التي جعلها طريقا إلى الوصول من حضرة القرب ولذلك بشرهم فقال: "صل"، فقد نويت وصالك، فسبقت لهم العناية، فسلكوا.

1
2
3
4

– 3]لباس النعلين في الصّلاة[

وهم الذين أمرهم الله بلباس النّعلين في الصّلاة إذ كان القاعد لا يلبس النعلين وإنما وضعت للماشي فيها فدل إن المصلي يمشي في صلاته ومناجاة ربّه في الآيات التي يناجيه فيها منزلا منزلا كلّ آية منزل وحال، فقال لهم: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

قال الصّاحب: لمّا نزلت هذه الآية أمرنا فيها بالصلاة في النّعلين، فكان ذلك تنبيها من الله –تعالى– للمصلّي أنّه يمشي على منازل ما يتلوه في صلاته من سور القرآن، إذ كانت السّور هي المنازل لغة.

قال النّابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ..... ترى كل ملك دونها يتذبذب

أراد منزلة وقيل لموسى –عليه السلام–: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[2]، أي قد وصلت المنزل، فإنّه كلمة الله بغير واسطة بكلامه –سبحانه– بلا ترجمان. ولذلك أكّده في التّعريف لنا بالمصدر، فقال –تعالى–: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾[3].

– 4]خلع النّعليْن لمَن وصل ومنازل الصّلاة[

ومَن وصل إلى المنزل خلع نعليه فبانت رتبة المصلي بالنعلين وما معنى المناجاة في الصلاة وإنها ليست بمعنى الكلام الذي حصل لموسى –عليه السلام–، فإنّه قال في المصلّي يناجي والمناجاة فعل فاعلين، فلا بدّ من لباس النّعلين، إذ كان المصلي مترددا بين حقيقتين والتردد بين أمرين يعطي المشي بينهما بالمعنى دلّ عليه باللفظ لباس النعلين ودلّ عليه قول الله –تعالى– بترجمة النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– عنه: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي؛ ولعبدي ما سأل".

ثم قال: يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾[4]، فوصفه إنّ العبد مع نفسه في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾[5] يسمع خالقه ومناجيه

1

2

3

4

5

ثم يرحل العبد من منزل قوله إلى منزل سمعه ليسمع ما يجيبه الحقّ –تعالى– على قوله؛ وهذا هو السّفر.

فلهذا لبس نعليْه ليسلك بهما الطّريق الذي بين هذين المنزلين. فإذا رحل إلى منزل سمعه سمع الحقّ يقول له: "حمدني عبدي".

فيرحل من منزل سمعه إلى منزل قوله، فيقول: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾[1]. فإذا فرغ رحل إلى منزل سمعه فإذا نزل سمع الحق –تعالى– يقول له: "أثنى على عبدي"، فلا يزال متردّدًا في مناجاته قولا ثم له رحلة أخرى من حال قيامه في الصّلاة إلى حال ركوعه فيرحل من صفة القيومية إلى صفة العظمة.

فيقول: سبحان ربي العظيم وبحمده ثم يرفع وهو رحلته من مقام التعظيم إلى مقام النيابة فيقول سمع الله لمن حمده

قال النّبيّ –صلى الله عليه وسلم– إنّ الله قال على لسان عبده: "سمع الله لمن حمده"، "فقولوا "ربنا لك الحمد"

فلهذا جعلنا الرّفع من الرّكوع نيابة عن الحقّ ورجوعا إلى القيوميّة. فإذا سجد اندرجت العظمة في الرفعة الإلهية، فيقول السّاجد: "سبحان ربّي الأعلى وبحمده"؛ فإنّ السّجود يناقض العلوّ. فإذا خلص العلوّ لله، ثم رفع رأسه من السّجود واستوى جالسًا، وهو قوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾[2].

فيقول: "ربّ اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني وعافني واعف عنّي".

– 5]المصلّي مسافر من حال إلى حال[

فهذه كلّها منازل ومناهل في الصّلاة فعلا فهو مسافر من حال إلى حال فمن كان حاله السّفر دائما كيف لا يقال له: البس نعليك.

أي استعن في سيرك بالكتاب والسنة، وهي زينة كل مسجد فإن أحوال الصلاة وما يطرأ فيها من كلام الله وما يتعرض في ذلك من الشبه في غوامض الآيات المتلوة وكون الإنسان في الصلاة يجعل الله في قبلته فيجده فهذه كلها بمنزلة لشوك والوعر الذي يكون بالطريق ولا سيما طريق التكليف فأمر بلباس النعلين ليتقي بهما ما ذكرناه من الأذى لقدمي السّالك

1
2

اللتين هما عبارة عن ظاهره وباطنه. فلهذا جعلناهما الكتاب والسنة.

وأمّا نعلا موسى –عليه السّلام–، فليستا هذه، فإنّه قال له ربّه: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ﴾[1].

فروينا أنهما كانتا من جلد حمار ميت فجمعت ثلاثة أشياء:

– الشّيء الواحد الجلد، وهو ظاهر الأمر أي لا تقف مع الظاهر في كلّ الأحوال

– والثّاني البلادة فإنها منسوبة إلى الحمار.

– والثّالث كونه ميتا غير مذكى

والموت الجهل وإذا كنت ميتا لا تعقل ما تقول ولا ما يقال لك والمناجي لا بد أن يكون بصفة من يعقل ما يقول ويقال له.

فيكون حيّ القلب فطنا بمواقع الكلام غوّاصا على المعاني التي يقصدها من يناجيه بها.

فإذا فرغ من صلاته سلّم على مَن حضر سلام القادم من عند ربّه إلى قومه بما أتحفه به.

– 6]سرّ لباس النّعلين في الصّلاة[

فقد نبهتك على سر لباس النعلين في الصّلاة في ظاهر الأمر وما المراد بهما عند أهل طريق الله –تعالى– من العارفين.

قال –صلّى الله عليه وسلّم–: "الصّلاة نور، والنّور يهتدى به"

واسم الصّلاة مأخوذة من المصلى، وهو المتأخّر الذي يلي السّابق في الحلبة. ولهذا ترجم هذا الباب بالوصلة وجعله من عالم النّور.

ولأهل هذا المشهد نور خلع النعلين ونور لباس النعلين فهم المحمديون الموسويون المخاطبون من شجر الخلاف بلسان النور المشبه بالمصباح، وهو نور ظاهر يمده نور باطن في زيت من شجرة زيتونة مباركة.

في خط الاعتدال منزهة عن تأثير الجهات كما كان الكلام لموسى –عليه السّلام– من شجرة فهو ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾[2].

1

2

أي نور من نور فأبدل حرف من بعلي لما يفهم به من قرينة الحال.

وقد تكون على على بابها فإن نور السّراج الظاهر يعلو حسا على نور الزيت الباطن، وهو الممد للمصباح فلولا رطوبة الدهن تمد المصباح لم يكن للمصباح ذلك الدوام وكذلك إمداد التّقوى للعلم العرفاني الحاصل منها في قوله تعالى–: ﴿واتَّقُوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله﴾[1]، وقوله –تعالى–: ﴿إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾[2].

لا يقطع ذلك العلم الإلهي، فنور الزّيت باطن في الزيت محمول فيه يسرى منه معنى لطيف في رقيقة من رقائق الغيب لبقاء نور المصباح.

ولا لأقطاب هذا المقام أسرار:

منها سر الإمداد

وسر النكاح

وسر الجوارح

وسر الغيرة

وسر العنين وهو الذي لا يقوم بالنكاح

وسر دائرة الزمهرير

وسر وجود الحق في السراب

وسر الحجب الإلهية

وسر نطق الطير والحيوان

وسر البلوغ وسر الصديقين.

﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[3].

1
2
3

الباب الثّامن والعشرون
في معرفة أقطاب ألم تر كيف [1]

العلم بالكيف مجهول ومعلوم ..... لكنه بوجود الحق موسوم
فظاهر الكون تكييف وباطنه ..... علم يشار إليه فهو مكتوم
من أعجب الأمر أن الجهل من صفتي ..... بما لنا فهو في التحقيق معلوم
وكيف أدرك من بالعجز أدركه ..... وكيف أجهله والجهل معدوم
قد حرت فيه وفي أمري ولست أنا ..... سواه فالخلق ظلام ومظلوم
إن قلت إني يقول الإن منه أنا ..... أو قلت إنك قال الإن مفهوم
فالحمد لله لا أبغي به بدلا ..... وإنما الرزق بالتقدير مقسوم

]أمّهات المطالب العلميّة وحملها على الحقّ[

اعلم أنّ أمهات المطالب أربعة، وهي:
– "هل" سؤال عن الوجود؟
– و"ما" وهو سؤال عن الحقيقة التي يعبّر عنها بالماهيّة؟
– و"كيف" وهو سؤال عن الحال؟
– و"لِمَ" وهو سؤال عن العلّة والسّبب؟

واختلف النّاس فيما يصحّ منها أن يسأل بها عن الحقّ، واتّفقوا على كلمة: "هل"، فإنّه يتصوّر أن يسأل بها عن الحقّ؛ واختلفوا فيما بقي.

فمنهم مَن منع ومنهم من أجاز فالذي منع، وهم الفلاسفة وجماعة من الطائفة منعوا ذلك عقلا ومنهم من منع ذلك شرعا.

]مَن منع إطلاق «ما» و«كيف» و«لم» على الله عقلًا[

فأمّا صورة منعهم عقلا أنهم قالوا في مطلب ما إنه سؤال عن الماهية فهو سؤال عن الحد

1

والحق سبحانه لا حد له.

إذ كان الحد مركبا من جنس وفصل وهذا ممنوع في حق الحق لأن ذاته غير مركبة من أمر يقع فيه الاشتراك فيكون به في الجنس وأمر يقع به الامتياز وما ثم إلا الله والخلق ولا مناسبة بين الله والعالم ولا الصانع والمصنوع فلا مشاركة فلا جنس فلا فصل والذي أجاز ذلك عقلا ومنعه شرعا قال لا أقول إن الحد مركب من جنس وفصل بل أقول إن السؤال بما يطلب به العلم بحقيقة المسئول عنه ولا بد لكل معلوم أو مذكور من حقيقة يكون في نفسه عليها سواء كان على حقيقة يقع له فيها الاشتراك أو يكون على حقيقة لا يقع له فيها الاشتراك فالسؤال بما يتصور ولكن ما ورد به الشرع فمنعنا من السّؤال به عن الحقّ لقوله –تعالى–: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1].

وأما منعهم الكيفية وهو السؤال بكيف فانقسموا أيضا قسمين فمن قائل بأنه سبحانه ما له كيفيّة لأن الحال أمر معقول زائد على كونه ذاتا وإذا قام بذاته أمر وجودي زائد على ذاته أدّى إلى وجود واجبي الوجود لذاتهما أزلا وقد قام الدليل على إحالة ذلك وإنه لا واجب إلّا هو لذاته فاستحالت الكيفية عقلا ومن قائل إن له كيفية ولكن لا نعلم فهي ممنوعة شرعا لا عقلا لأنها خارجة عن الكيفيات المعقولة عندنا فلا تعلم وقد قال: ﴿ليس كمثله شيء﴾[2]، يعني في كلّ ما ينسب إليه ممّا نسبه إلى نفسه يقول هو على ما تنسبه إلى الحقّ وإن وقع الاشتراك في اللفظ فالمعنى مختلف.

وأما السؤال بلم فممنوع أيضا لأن أفعال الله تعالى لا تعلل لأن العلة موجبة للفعل فيكون الحق داخلا تحت موجب أوجب عليه هذا الفعل زائد على ذاته وأبطل غيره إطلاق لم على فعله شرعا بأن قال لا ينسب إليه ما لم ينسب إلى نفسه فهذا معنى قولي شرعا لا أنه ورد النهي من الله عن كلّ ما ذكرنا منعه شرعا وهذا كله كلام مدخول لا يقع التخليص منه بالصحّة والفساد إلّا بعد طول عظيم.

]مَن أجاز إطلاق «ما» و«كيف» و«لم» على الله شرعًا[

هذا قد ذكرنا طريقة من منع وأما من أجاز السؤال عنه بهذه المطالب من العلماء فهم أهل الشرع منهم وسبب إجازتهم لذلك إن قالوا ما حجر الشرع علينا حجرناه وما أوجب علينا

1
2

أن نخوض فيه خضنا فيه طاعة أيضا وما لم يرد فيه تحجير ولا وجوب فهو عافية إن شئنا تكلمنا فيه وإن شئنا سكتنا عنه وهو –سبحانه– ما نهى فرعون على لسان موسى عليه السلام عن سؤاله بقوله وما رب العالمين بل أجاب بما يليق به الجواب عن ذاك الجناب العالي.

وإن كان وقع الجواب غير مطابق للسؤال فذلك راجع لاصطلاح من اصطلح على أنه لا يسأل بذلك إلا عن الماهية المركبة واصطلح على إن الجواب بالأثر لا يكون جوابا لمن سأل بما وهذا الاصطلاح لا يلزم الخصم فلم يمنع إطلاق هذا السؤال بهذه الصّيغة عليه إذ كانت الألفاظ لا تطلب لأنفسها وإنما تطلب لما تدل عليه من المعاني التي وضعت لها فإنها بحكم الوضع وما كل طائفة وضعتها بإزاء ما وضعتها الأخرى، فيكون الخلاف في عبارة لا في حقيقة ولا يعتبر الخلاف إلا في المعاني.

وأمّا إجازتهم الكيفيّة، فمثل إجازتهم السؤال بما ويحتجون في ذلك بقوله –تعالى–: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾[1]، وقوله: إنّ لله عينا وأعينا ويدا وإن بيده الميزان يخفض ويرفع وهذه كلها كيفيات وإن كانت مجهولة لعدم الشبه في ذلك.

وأمّا إجازتهم السّؤال بلم، وهو سؤال عن العلّة، فلقوله –تعالى–: ﴿وما خَلَقْتُ الْجِنَّ والْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

فهذه لام العلّة والسبب فإن ذلك في جواب من سأل لم خلق الله الجنّ والإنس.

فقال الله لهذا السّائل: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، أي لعبادتي فمن ادعى التحجير في إطلاق هذه العبارات فعليه بالدليل.

فيقال للجميع من المتشرعين المجوزين والمانعين كلكم قال وما أصاب وما من شيء قلتموه من منع وجواز إلا وعليكم فيه دخل والأولى التوقف عن الحكم بالمنع أو بالجواز هذا مع المتشرعين.

وأمّا غير المتشرعين من الحكماء فالخوض معهم في ذلك لا يجوز إلّا إن أباح الّشرع ذلك أو أوجبه وأما إن لم يرد في الخوض فيه معهم نطق من الشّارع فلا سبيل إلى الخوض فيه معهم فعلا ويتوقف في الحكم في ذلك فلا يحكم على من خاض فيه أنه مصيب ولا

1
2
3

مخطئ وكذلك فيمن ترك الخوض إذ لا حكم إلا للشرع فيما يجوز أن يتلفظ به أو لا يتلفظ به يكون ذلك طاعة أو غير طاعة.
فهذا يا ولي قد فصلنا لك مآخذ الناس في هذه المطالب.

]التّشبيه والتّنزيه من طريق المعنى[

وأمّا العلم النافع في ذلك أن نقول كما أنه –سبحانه– لا يشبه شيئا كذلك لا تشبهه الأشياء وقد قام الدليل العقلي والشرعي على نفي التشبيه وإثبات التنزيه من طريق المعنى وما بقي الأمر إلا في إطلاق اللفظ عليه سبحانه الذي أباح لنا إطلاقه عليه في القرآن أو على لسان رسوله.
فأما إطلاقه عليه، فلا يخلو إمّا أن يكون العبد مأمورا بذلك الإطلاق فيكون إطلاقه طاعة فرضا ويكون المتلفظ به مأجورا مطيعا مثل قوله في تكبيرة الإحرام الله أكبر، وهي لفظة وزنها يقتضي المفاضلة، وهو –سبحانه– لا يفاضل؛ وإمّا أن يكون مخيّرا، فيكون بحسب ما يقصده المتلّفظ، وبحسب حكم الله فيه.
وإذا أطلقناه فلا يخلو الإنسان إمّا أن يطلقه ويصحب نفسه في ذاك الإطلاق المعنى المفهوم منه في الوضع بذلك اللّسان أو لا يطلقه إلّا تعبّدا شرعيّا على مراد الله فيه من غير أن يتصوّر المعنى الذي وضع له في ذلك اللّسان كالفارسي الذي لا يعلم اللّسان العربي، وهو يتلو القرآن ولا يعقل معناه وله أجر التلاوة كذلك العربي فيما تشابه من القرآن والسنّة يتلوه أو يذكر به ربه تعبدا شرعيا على مراد الله فيه من غير ميل إلى جانب بعينه مخصّص فإنّ التّنزيه ونفي التشبيه يطلبه أن وقف بوهمه عند التّلاوة لهذه الآيات.
فالأسلم والأولى في حقّ العبد أن يردّ علم ذلك إلى الله في إرادته إطلاق تلك الألفاظ عليه إلّا إن أطلعه الله على ذلك.
وما المراد بتلك الألفاظ من نبيّ أو ولي محدث ملهم ﴿عَلى بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ﴾[1] فيما يلهم فيه أو يحدث.
فذلك مباح له، بل واجب عليه أن يعتقد المفهوم منه الذي أخبر به في الهامة أو في حديثه، وليعلم أن الآيات المتشابهات إنّما نزلت ابتلاء من الله لعباده؛ ثمّ بالغ –سبحانه–

[1]

في نصيحة عباده في ذلك ونهاهم أن يتبعوا المتشابه بالحكم، أي لا يحكموا عليه بشيء فإن تأويله لا يعلمه إلا الله. وأمّا ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1]، إن علموه، فبإعلام الله لا بفكرهم واجتهادهم؛ فإنّ الأمر أعظم أن تستقلّ العقول بإدراكه من غير إخبار إلهي، فالتسليم أولى. ﴿والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾[2].

]العلم بالكيفيّات[

وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾[3]، وأطلق النظر على الكيفيات فإنّ المُراد بذلك بالضّرورة المكيفات لا التّكييف فإنّ التكييف راجع إلى حالة معقولة لها نسبة إلى المكيف وهو الله تعالى وما أحد شاهد تعلق القدرة الإلهية بالأشياء عند إيجادها قال –تعالى–: ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ والْأَرْضِ﴾[4].

فالكيفيّات المذكورة التي أمرنا بالنّظر إليها لا فيها إنما ذلك لنتّخذها عبرة ودلالة على إنّ لها من كيفها أي صيرها ذات كيفيات وهي الهيئات التي تكون عليها المخلوقات المكيفات فقال: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ... وإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[5]. وغير ذلك.

ولا يصحّ أن تنظر إلّا حتّى تكون موجودة، فننظر إليها، وكيف اختلفت هيئاتها.

ولو أراد بالكيف حالة الإيجاد لم يقل انظر إليها فإنها ليست بموجودة فعلمنا إن الكيف المطلوب منا في رؤية الأشياء ما هو ما يتوهم من لا علم له بذلك ألا تراه سبحانه لما أراد النظر الذي هو الفكر قرنه بحرف في ولم يصحبه لفظ كيف، فقال –تعالى–:﴿أَولَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّماواتِ والْأَرْضِ﴾[6]. المعنى: أن يفكّروا في ذلك، فيعلموا أنّها لم تقم بأنفسها، وإنّما أقامها غيرها.

وهذا النّظر لا يلزم منه وجود الأعيان مثل النظر الذي تقدم وإنما الإنسان كلف أن ينظر بفكره في ذلك لا بعينه ومن الملكوت ما هو غيب وما هو شهادة فما أمرنا قط بحرف في

1
2
3
4
5
6

إلّا في المخلوقات لا في الله لنستدل بذلك عليه أنّه لا يشبهها، إذ لو أشبهها لجاز عليه ما يجوز عليها من حيث ما أشبهها.

وكان يؤدّي ذلك إلى أحد محظورين إمّا أن يشبهها من جميع الوجوه وهو محال لما ذكرناه أو يشبهها من بعض الوجوه ولا يشبهها من بعض الوجوه فتكون ذاته مركّبة من أمرين والتركّيب في ذات الحق محال فالتشبيه محال.

والذي يليق بهذا الباب من الكلام يتعذر إيراده مجموعا في باب واحد لما يسبق إلى الأوهام الضعيفة من ذلك لما فيه من الغموض ولكن جعلناه مبددا في أبواب هذا الكتاب فاجعل بالك منه في أبواب الكتاب تعثر على مجموع هذا الباب، ولا سيما حيثما وقع لك مسألة تجل إلهي.

فهناك قف وانظر تجد ما ذكرته لك ممّا يليق بهذا الباب؛ والقرآن مشحون بالكيفيّة، فإنّ الكيفيّات أحوال، والأحوال منها ذاتيّة للمكيّف ومنها غير ذاتيّة، والذّاتيّة حكمها حكم المكيّف سواء كان المكيّف يستدعي مكيّفا في كيفيّته أو كان لا يستدعي مكيّفا لتكييفه، بل كيفيته عين ذاته، وذاته لا تستدعي غيرها، لأنّها لنفسها هي؛ فكيفيته كذلك، لأنّها عينه لا غيره، ولا زائد عليه؛ فافهم.

﴿والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1].

[1]

الباب التاسع والعشرون
في معرفة سر سلمان الذي ألحقه بأهل البيت
والخطاب الذين ورثه منهم ومعرفة أسرارهم

العبد مرتبط بالرب ليس له ..... عنه انفصال يرى فعلا وتقديرا
والابن أنزل منه في العلى درجا ..... قد حرر الشرع فيه العلم تحريرا
فالابن ينظر في أموال والده ..... إذ كان وارثه شحا وتقتيرا
والابن يطمع في تحصيل رتبته ..... وأن يراه مع الأموات مقبورا
والعبد قيمته من مال سيده ..... إليه يرجع مختارا ومجبورا
والعبد مقداره في جاه سيده ..... فلا يزال بستر العز مستورا
الذل يصحبه في نفسه أبدا ..... فلا يزال مع الأنفاس مقهورا
والابن في نفسه من أجل والده ..... عز فيطلب توقيرا وتعزيرا

]إرادة التجريد أو التّحرّر من جميع الأكوان[

اعلم –أيّدك الله– أنّا روينا من حديث جعفر بن محمّد الصّادق عن أبيه محمّد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عن رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: "مولى القوم منهم".
وخرّج التّرمذي عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنّه قال: "أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته".

وقال –تعالى– في حقّ المختصّين من عباده: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[1]، فكلّ عبد إلهي توجه لأحد عليه حقّ من المخلوقين، فقد نقص من عبوديّته لله بقدر ذلك الحق؛ فإنّ ذلك المخلوق يطلبه بحقه، وله عليه سلطان به، فلا يكون عبدًا محضًا خالصًا لله.

1

وهذا هو الذي رجح عند المنقطعين إلى الله انقطاعهم عن الخلق ولزومهم السياحات والبراري والسواحل والفرار من الناس والخروج عن ملك الحيوان فإنهم يريدون الحرية من جميع الأكوان.

ولقيت منهم جماعة كبيرة في أيام سياحتي ومن الزمان الذي حصل لي فيه هذا المقام ما ملكت حيوانا أصلا.

بل ولا الثوب الذي ألبسه، فإنّي لا ألبسه إلا عارية لشخص معيّن أذن لي في التصرف فيه.

والزّمان الذي أتملّك الشيء فيه أخرج عنه في ذلك الوقت، إمّا بالهبة أو بالعتق.

إن كان ممّن يعتق وهذا حصل لي لما أردت التحقق بعبوديّة الاختصاص لله.

قيل لي: لا يصح لك ذلك حتى لا يقوم لأحد عليك حجة

قلتُ: ولا لله إن شاء الله

قيل لي وكيف يصح لك أن لا يقوم لله عليك حجة

قلتُ: إنّما تقام الحجج على المنكرين لا على المعترفين، وعلى أهل الدّعاوي وأصحاب الحظوظ لا على من قال: "ما لي حقّ ولا حظ".

]أهل البيت ومواليهم[

ولمّا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدا محضا قد طهره الله وأهل بيته تطهيرا وأذهب عنهم الرجس، وهو كلّ ما يشينهم. فإن الرجس هو القذر عند العرب، هكذا حكي الفرّاء.

قال –تعالى–: ﴿إِنَّما يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

فلا يضاف إليهم إلّا مطّهر ولا بدّ. فإن المضاف إليهم هو الذي يشبههم فما يضيفون لأنفسهم إلا من له حكم الطّهارة والتّقديس.

فهذه شهادة من النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– لسلمان الفارسي بالطّهارة والحفظ الإلهي والعصمة، حيث قال فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلم–: "سلمان منّا أهل البيت".

وشهد الله لهم بالتّطهير وذهاب الرّجس عنهم وإذا كان لا ينضاف إليهم إلّا مطّهر مقدّس وحصلت له العناية الإلهيّة بمجرّد الإضافة، فما ظنك بأهل البيت في نفوسهم فهم المطهّرون، بل هم عين الطّهارة فهذه الآية تدلّ على إنّ الله قد شرّك أهل البيت مع رسول

[1]

الله –صلّى الله عليه وسلّم– في قوله –تعالى–: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ الله ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ﴾[1]؛ وأيّ وسخ وقذر أقذر من الذّنوب وأوسخ، فطهّر الله –سبحانه– نبيّه –صلّى الله عليه وسلّم– بالمغفرة فما هو ذنب بالنّسبة إلينا، لو وقع منه –صلّى الله عليه وسلّم–، لكان ذنبا في الصورة لا في المعنى، لأنّ الذمّ لا يلحق به على ذلك من الله ولا منّا شرعًا.

فلو كان حكمه حكم الذّنب لصحبة ما يصحب الذّنب من المذمّة، ولم يصدق قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

فدخل الشّرفاء أولاد فاطمة كلّهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران، فهم المطهّرون اختصاصًا من الله وعناية بهم لشرف محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– وعناية الله به ولا يظهر حكم هذا الشّرف لأهل البيت إلّا في الدار الآخرة، فإنّهم يحشرون مغفورًا لهم.

وأمّا في الدّنيا، فمن أتى منهم حدا أقيم عليه كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره، وقد زنى أو سرق أو شرب، أقيم عليه الحدّ مع تحقّق المغفرة، كما عزّ وأمثاله ولا يجوز ذمّه.

]أهل البيت: جميع ما يصدر منهم قد عفا الله عنه[

وينبغي لكلّ مسلم مؤمن بالله، وبما أنزله، أن يصدق الله –تعالى– في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[3].

فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت إنّ الله قد عفا عنهم فيه، فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمّة بهم.

ولا ما يشنأ أعراض من قد شهد الله بتطهيره وذهاب الرّجس عنه لا يعمل عملوه ولا بخير قدموه، بل سابق عناية من الله بهم.

﴿ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ من يَشاءُ والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4].

وإذا صحّ الخبر الوارد في سلمان الفارسي، فله هذه الدرجة؛ فإنه لو كان سلمان على أمر يشنؤه ظاهر الشّرع وتلحق المذمّة بعامله، لكان مضافًا إلى أهل البيت مَن لم يذهب عنه

1
2
3
4

الرّجس؛ فيكون لأهل البيت من ذلك بقدر ما أضيف إليهم، وهم المطهرون بالنصّ.
فسلمان منهم بلا شكّ، فأرجو أن يكون عقب عليّ وسلمان تلحقهم هذه العناية، كما لحقت أولاد الحسن والحسين وعقبهم وموالي أهل البيت، فإنّ رحمة الله واسعة.

]أهل البيت أقطاب العالم[

يا ولي وإذا كانت منزلة مخلوق عند الله بهذه المثابة أن يشرف المضاف إليهم بشرفهم وشرفهم ليس لأنفسهم وإنّما الله –تعالى–.
هو الذي اجتباهم وكساهم حلة الشرف كيف يا ولي بمن أضيف إلى من له الحمد والمجد والشرف لنفسه وذاته فهو المجيد –سبحانه وتعالى–.
فالمضاف إليه من عباده الذين هم عباده وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة.
قال –تعالى– لإبليس: ﴿إِنَّ عِبادِي فأضافهم إليه لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[1]
وما تجد في القرآن عبادًا مضافين إليه –سبحانه– إلّا السّعداء خاصّة، وجاء اللّفظ في غيرهم بالعباد.
فما ظنك بالمعصومين المحفوظين منهم القائمين بحدود سيدهم الواقفين عند مراسمه، فشرفهم أعلى وأتمّ، وهؤلاء هم أقطاب هذا المقام.

]سرّ سلمان[

ومن هؤلاء الأقطاب ورث سلمان شرف مقام أهل البيت، فكان –رضي الله عنه– من أعلم النّاس بما لله على عباده من الحقوق وما لأنفسهم، والخلق عليهم من الحقوق وأقواهم على أدائها.
وفيه قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم –: "لو كان الايمان بالثّريّا لنا له رجال من فارس وأشار إلى سلمان الفارسي."
وفي تخصيص النبي –صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم– ذكر الثريا دون غيرها من الكواكب.
إشارة بديعة لمثبتي الصّفات السّبعة، لأنّها سبعة كواكب؛ فافهم.

1

فسرّ سلمان الذي ألحقه بأهل البيت ما أعطاه النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– من أداء كتابته.

وفي هذا فقه عجيب، فهو عتيقة –صلى الله عليه وسلم–، ومولى القوم منهم، والكلّ موالي الحقّ ورحمته: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، وكلّ شيء عبده ومولاه.

]أهل البيت: لا ينبغي لمسلم أن يذمهم[

وبعد أن تبين لك منزلة أهل البيت عند الله وأنه لا ينبغي لمسلم أن يذمهم بما يقع منهم أصلا فإن الله طهرهم فليعلم الذام لهم أن ذلك راجع إليه ولو ظلموه فذلك الظلم هو في زعمه ظلم لا في نفس الأمر وإن حكم عليه ظاهر الشرع بأدائه بل حكم ظلمهم إيانا في نفس الأمر يشبه جرى المقادير علينا في ماله ونفسه بغرق أو بحرق وغير ذلك من الأمور المهلكة فيحترق أو يموت له أحد أحبائه أو يصاب في نفسه وهذا كله مما لا يوافق غرضه ولا يجوز له أن يذم قدر الله ولا قضاءه بل ينبغي له أن يقابل ذلك كله بالتسليم والرضي وإن نزل عن هذه المرتبة فبالصبر وإن ارتفع عن تلك المرتبة فبالشكر فإن في طي ذلك نعما من الله لهذا المصاب وليس وراء ما ذكرناه خير فإنه ما وراءه ليس إلا الضجر والسخط وعدم الرضي وسوء الأدب مع الله فكذا ينبغي أن يقابل المسلم جميع ما يطرأ عليه من أهل البيت في ماله ونفسه وعرضه وأهله وذويه فيقابل ذلك كله بالرضى والتسليم والصبر ولا يلحق المذمة بهم أصلا وإن توجهت عليهم الأحكام المقررة شرعا فذلك لا يقدح في هذا بل يجريه مجرى المقادير وإنما منعنا تعليق الذم بهم إذ ميزهم الله عنا بما ليس لنا معهم فيه قدم وأما أداء الحقوق المشروعة فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقترض من اليهود وإذا طالبوه بحقوقهم أداها على أحسن ما يمكن وإن تطاول اليهودي عليه بالقول يقول دعوه إن لصاحب الحق مقالا وقال صلى الله عليه وسلم في قصة لو أن فاطمة بنت محمد سرقت قطعت يدها

فوضع الأحكام لله يضعها كيف يشاء وعلى أي حال يشاء فهذه حقوق الله ومع هذا لم يذمهم الله وإنما كلامنا في حقوقنا وما لنا أن نطالبهم به فنحن مخيرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا والترك أفضل عموما فكيف في أهل البيت وليس لنا ذم أحد فكيف بأهل البيت

[1]

فإنا إذا نزلنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم في ذلك أي فيما أصابوه منا كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى

]محبة آل بيت النبي من محبة النبي[

فإن النبي صلى الله عليه وسلم ما طلب منا عن أمر الله إِلَّا الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبى وفيه سر صلة الأرحام ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه بأي وجه يلقاه غدا أو يرجو شفاعته وهو ما أسعف نبيه صلى الله عليه وسلم فيما طلب منه من المودة في قرابته فكيف بأهل بيته فهم أخص القرابة ثم إنه جاء بلفظ المودة وهو الثبوت على المحبة فإنه من ثبت وده في أمر استصحبه في كل حال وإذا استصحبته المودة في كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم في حقه مما له أن يطالبهم به فيتركه ترك محبة وإيثارا لنفسه لا عليها قال المحب الصادق

وكل ما يفعل المحبوب محبوب

وجاء باسم الحب فكيف حال المودة ومن البشرى ورود اسم الودود لله تعالى ولا معنى لثبوتها إلا حصول أثرها بالفعل في الدار الآخرة وفي النار لكل طائفة بما تقتضيه حكمة الله فيهم.

وقال الآخر في المعنى:

أحب لحبها السودان حتى ..... أحب لحبها سود الكلاب

ولنا في هذا المعنى

أحب لحبك الحبشان طرا ..... وأعشق لاسمك البدر المنيرا

قيل كانت الكلاب السود تناوشه وهو يتحبب إليها فهذا فعل المحب في حب من لا تسعده محبته عند الله ولا تورثه القربة من الله فهل هذا إلا من صدق الحب وثبوت الود في النفس

]محبة أهل البيت آية من محبة الله ورسوله[

فلو صحت محبتك لله ولرسوله أحببت أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت كل ما يصدر منهم في حقك مما لا يوافق طبعك ولا غرضك إنه جمال تتنعم بوقوعه منهم

فتعلم عند ذلك أن لك عناية عند الله الذي أحببتهم من أجله حيث ذكرك من يحبه وخطرت على باله وهم أهل بيت رسوله صلى الله عليه وسلم فتشكر الله تعالى على هذه النعمة فإنهم ذكروك بالسنة طاهرة بتطهير الله طهارة لم يبلغها علمك وإذا رأيناك على ضد هذه الحالة مع أهل البيت الذي أنت محتاج إليهم ولرسول صلى الله عليه وسلم حيث هداك الله به فكيف أثق أنا بودك الذي تزعم به أنك شديد الحب في والرعاية لحقوقي أو لجانبي وأنت في حق أهل نبيك بهذه المثابة من الوقوع فيهم والله ما ذاك إلا من نقص إيمانك ومن مكر الله بك واستدراجه إياك من حيث لا تعلم وصورة المكر أن تقول وتعتقد إنك في ذلك تذب عن دين الله وشرعه وتقول في طلب حقك إنك ما طلبت إلا ما أباح الله لك طلبه ويندرج الذم في ذلك الطلب المشروع والبغض والمقت وإيثارك نفسك على أهل البيت وأنت لا تشعر بذلك والدواء الشافي من هذا الداء العضال أن لا ترى لنفسك معهم حقا وتنزل عن حقك لئلا يندرج في طلبه ما ذكرته لك وما أنت من حكام المسلمين حتى يتعين عليك إقامة حد أو إنصاف مظلوم أو رد حق إلى أهله فإن كنت حاكما ولا بد فاسع في استنزال صاحب الحق عن حقه إذا كان المحكوم عليه من أهل البيت فإن أبي حينئذ يتعين عليك إمضاء حكم الشرع فيه فلو كشف الله لك يا ولي عن منازلهم عند الله في الآخرة لوددت أن تكون مولى من مواليهم فالله يلهمنا رشد أنفسنا فانظر ما أشرف منزلة سلمان رضي الله عن جميعهم

]أسرار الأقطاب «السلمانيين[«

ولما بينت لك أقطاب هذا المقام وأنهم عبيد الله المصطفون الأخيار فاعلم إن أسرارهم التي أطلعنا الله عليها تجهلها العامة بل أكثر الخاصة التي ليس لها هذا المقام والخضر منهم رضي الله عنه وهو من أكبرهم وقد شهد الله له أنه آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما اتبعه فيه كليم الله موسى عليه السلام الذي

قال فيه صلى الله عليه وسلم لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني

فمن أسرارهم ما قد ذكرناه من العلم بمنزلة أهل البيت وما قد نبه الله على علو رتبتهم في ذلك ومن أسرارهم علم المكر الذي مكر الله بعباده في بغضهم مع دعواهم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسؤاله المودة في القربى وهو صلى الله عليه وسلم من جملة أهل البيت فما فعل أكثر الناس ما سألهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر الله فعصوا الله ورسوله وما أحبوا من قرابته إلا من رأوا منه الإحسان فأغراضهم أحبوا وبنفوسهم تعشقوا

ومن أسرارهم الاطلاع على صحة ما شرع الله لهم في هذه الشريعة المحمدية من حيث لا تعلم العلماء بها فإن الفقهاء والمحدثين الذين أخذوا علمهم ميتا عن ميت إنما المتأخر منهم هو فيه على غلبة ظن إذ كان النقل شهادة والتواتر عزيز ثم إنهم إذا عثروا على أمور تفيد العلم بطريق التواتر لم يكن ذلك اللفظ المنقول بالتواتر نصا فيما حكموا به فإن النصوص عزيزة فيأخذون من ذلك اللفظ بقدر قوة فهمهم فيه ولهذا اختلفوا وقد يمكن أن يكون لذلك اللفظ في ذلك الأمر نص آخر يعارضه ولم يصل إليهم وما لم يصل إليهم ما تعبدوا به ولا يعرفون بأي وجه من وجوه الاحتمالات التي في قوة هذا اللفظ كان يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم المشرع فأخذه أهل الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكشف على الأمر الجلي والنص الصريح في الحكم أو عن الله بالبينة التي هم عليها من ربهم والبصيرة التي بها دعوا الخلق إلى الله عليها كما قال الله أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ وقال أَدْعُوا إِلَى الله عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا ومن اتَّبَعَنِي فلم يفرد نفسه بالبصيرة وشهد لهم بالاتباع في الحكم فلا يتبعونه إلا على بصيرة وهم عباد الله أهل هذا المقام ومن أسرارهم أيضا إصابة أهل العقائد فيما اعتقدوه في الجناب الإلهي وما تجلى لهم حتى اعتقدوا ذلك ومن أين تصور الخلاف مع الاتفاق على السبب الموجب الذي استندوا إليه فإنه ما اختلف فيه اثنان وإنما وقع الخلاف فيما هو ذلك السبب وبما ذا يسمى ذلك السبب فمن قائل هو الطبيعة ومن قائل هو الدهر ومن قائل غير ذلك فاتفق الكل في إثباته ووجوب وجوده وهل هذا الخلاف يضرهم مع هذا الاستناد أم لا هذا كله من علوم أهل هذا المقام.

انتهى الجزء السابع عشر

الباب الثلاثون في معرفة الطبقة الأولى والثانية من الأقطاب الركبان

)بسم الله الرحمن الرحيم(

إن لله عبادا ركبوا ..... نجب الأعمال في الليل البهيم

وترقت همم الذل بهم ..... لعزيز جل من فرد عليم

فاجتباهم وتجلى لهمو ..... وتلقاهم بكأسات النديم

من يكن ذا رفعة في ذلة ..... إنه يعرف مقدار العظيم

رتبة الحادث إن حققتها ..... إنما يظهر فيها بالقديم

إن لله علوما جمة ..... في رسول ونبي وقسيم

لطفت ذاتا فما يدركها ..... عالم الأنفاس أنفاس النسيم

]الأفراد هم الركبان[

اعلم أيدك الله أن أصحاب النجب في العرف هم الركبان قال الشاعر

فليت لي بهمو قوما إذا ركبوا ..... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

الفرسان ركاب الخيل والركبان ركاب الإبل فالأفراس في المعروف تركبها جميع الطوائف من عجم وعرب والهجن لا يستعملها إلا العرب والعرب أرباب الفصاحة والحماسة والكرم ولما كانت هذه الصفات غالبة على هذه الطائفة سميناهم بالركبان فمنهم من يركب نجب الهمم ومنهم من يركب نجب الأعمال فلذلك جعلناهم طبقتين أولى وثانية وهؤلاء أصحاب الركبان هم الأفراد في هذه الطريقة فإنهم رضي الله عنهم على طبقات فمنهم الأقطاب ومنهم الأئمة ومنهم الأوتاد ومنهم الأبدال ومنهم النقباء ومنهم النجباء ومنهم الرجبيون ومنهم الأفراد وما منهم طائفة إلا وقد رأيت منهم وعاشرتهم ببلاد المغرب وببلاد الحجاز والشرق فهذا الباب مختص بالإفراد وهي طائفة خارجة عن حكم القطب وحدها ليس للقطب فيهم تصرف ولهم من الأعداد من الثلاثة إلى ما فوقها من الأفراد ليس لهم ولا لغيرهم فيما دون الفرد الأول الذي هو الثلاثة قدم فإن الأحدية وهو الواحد لذات الحق والاثنان للمرتبة وهو توحيد الألوهية والثلاثة أول وجود الكون عن الله فالأفراد في الملائكة الملائكة المهيمون في جمال الله وجلاله الخارجون عن الأملاك المسخرة والمدبرة اللذين هما في عالم التدوين والتسطير وهم من القلم والعقل إلى ما دون ذلك والأفراد من الإنس مثل المهيمة من الأملاك فأول الأفراد الثلاثة وقد قال صلى الله عليه وسلم الثلاثة ركب فأول الركب الثلاثة إلى ما فوق ذلك

]ما للأفراد من الحضرات والأسماء والمواد[

ولهم من الحضرات الإلهية الحضرة الفردانية وفيها يتميزون ومن الأسماء الإلهية الفرد والمواد الواردة على قلوبهم من المقام الذي ترد منه على الأملاك المهيمة ولهذا يجهل مقامهم وما يأتون به مثل ما أنكر موسى عليه السلام على خضر مع شهادة الله فيه لموسى عليه السلام وتعريفه بمنزلته وتزكية الله إياه وأخذه العهد عليه إذ أراد صحبته ولما علم الخضر أن موسى عليه السلام ليس له ذوق في المقام الذي هو الخضر عليه كما إن الخضر ليس له ذوق فيما هو موسى عليه من العلم الذي علمه الله إلا أن مقام الخضر لا يعطي الاعتراض على أحد من خلق الله لمشاهدة خاصة هو عليها ومقام موسى والرسل يعطي الاعتراض من حيث هم رسل لا غير في كل ما يرونه خارجا عما أرسلوا به ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسى عليه السلام وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ به خُبْراً فلو كان الخضر نبيا لما قال له ما لَمْ تُحِطْ به خُبْراً فالذي فعله لم يكن من مقام النبوة وقال له في انفراد كل واحد منهما بمقامه الذي هو عليه

قال الخضر لموسى عليه السلام يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا

وافترقا وتميزا بالإنكار

]الأفراد لهم الأولية في الأمور[

فالإنكار ليس من شأن الأفراد فإن لهم الأولية في الأمور فهم ينكر عليهم ولا ينكرون قال الجنيد لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق وذلك لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم

]الأفراد هم أصحاب العلم الباطن[

وهم أصحاب العلم الذي كان يقول فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين يضرب بيده إلى صدره ويتنهد إن هاهنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة

فإنه كان من الأفراد ولم يسمع هذا من غيره في زمانه إلا أبي هريرة ذكر مثل هذا

اخرج البخاري في صحيحة عنه أنه قال حملت عن النبي صلى الله عليه وسلم جوابين أما الواحد فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم

البلعوم مجرى الطعام فأبو هريرة ذكر أنه حمله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيه ناقلا عن غير ذوق ولكنه علم لكونه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن

إنما نتكلم فيمن أعطى عين الفهم في كلام الله تعالى في نفسه وذلك علم الأفراد وكان من الأفراد عبد الله بن العباس البحر كان يلقب به لاتساع علمه فكان يقول في قوله عز وجل الله الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ ومن الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لو ذكرت تفسيره لرجمتموني وفي رواية لقلتم إني كافر وإلى هذا العلم كان يشير على ابن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين عليهم الصلاة والسلام بقوله فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما

يا رب جوهر علم لو أبوح به ..... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي ..... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فنبه بقوله يعبد الوثنا على مقصوده ينظر إليه تأويل

قوله صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم على صورته

بإعادة الضمير على الله تعالى وهو من بعض محتملاته

]مشكلة العلم الباطن[

بالله يا أخي أنصفي فيما أقوله لك لا شك أنك قد أجمعت معي على أنه كل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار في كل ما وصف به فيها ربه تعالى من الفرح والضحك والتعجب والتبشبش والغضب والتردد والكراهة والمحبة والشوق إن ذلك وأمثاله يجب الايمان به والتصديق فلو هبت نفحات من هذه الحضرة الإلهية كشفا وتجليا وتعريفا إلهيا على قلوب الأولياء بحيث أن يعلموا بإعلام الله وشاهدوا بإشهاد الله من هذه الأمور المعبر عنها بهذه الألفاظ على لسان الرسول وقد وقع الايمان مني ومنك بهذا كله إذا أتى بمثله هذا الولي في حق الله تعالى ألست تزندقه كما قال الجنيد ألست تقول إن هذا مشبه هذا عابد وثن كيف وصف الحق بما وصف به المخلوق ما فعلت عبدة الأوثان أكثر من هذا كما قال علي بن الحسين أ لست كنت تقتله أو تفتي بقتله كما قال ابن عباس فبأي شيء آمنت وسلمت لما سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق الله من الأمور التي تحيلها الأدلة العقلية ومنعت من تأويلها والأشعري تأولها على وجوه من التنزيه في زعمه فأين الإنصاف فهلا قلت القدرة واسعة أن تعطي لهذا الولي ما أعطت للنبي من علوم الأسرار فإن ذلك ليس من خصائص النبوة ولا حجر الشارع على أمته هذا الباب ولا تكلم فيه بشيء بل

قال إن يكن في أمتي محدثون فعمر منهم

فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن ثم من يحدث ممن ليس بنبي وقد يحدث بمثل هذا فإنه خارج عن تشريع الأحكام من الحلال والحرام فإن ذلك أعني التشريع من خصائص النبوة وليس الاطلاع على غوامض العلوم الإلهية من خصائص نبوة التشريع بل هي سارية في عباد الله من رسول وولي وتابع ومتبوع يا ولي فأين الإنصاف منك أ ليس هذا موجودا في الفقهاء وأصحاب الأفكار الذين هم فراعنة الأولياء ودجاجة عباد الله الصالحين والله يقول لمن عمل منا بما شرع الله له إن الله يعلمه ويتولى تعليمه بعلوم أنتجتها أعماله قال تعالى واتَّقُوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وقال إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً

]عمر بن الخطاب وابن حنبل[

ومن أقطاب هذا المقام عمر بن الخطاب وأحمد بن حنبل ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في عمر بن الخطاب يذكر ما أعطاه الله من القوة يا عمر ما لقيك الشيطان في فج إلا سلك فجا غير فجك!

فدل على عصمته بشهادة المعصوم وقد علمنا إن الشيطان ما يسلك قط بنا إلا إلى الباطل وهو غير فج عمر بن الخطاب فما كان عمر يسلك إلا فجاج الحق بالنص فكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم في جميع مسالكه وللحق صولة ولما كان الحق صعب المرام قويا حمله على النفوس لا تحمله ولا تقبله بل تمجه وترده لهذا

قال صلى الله عليه وسلم ما ترك الحق لعمر من صديق

وصدق صلى الله عليه وسلم يعني في الظاهر والباطن أما في الظاهر فلعدم الإنصاف وحب الرئاسة وخروج الإنسان عن عبوديته واشتغاله بما لا يعنيه وعدم تفرغه لما دعي إليه من شغله بنفسه وعيبه عن عيوب الناس وأما في الباطن فما ترك الحق لعمر في قلبه من صديق فما كان له تعلق إلا بالله

]مأساة العلم الباطن[

ثم الطامة الكبرى أنك إذا قلت لواحد من هذه الطائفة المنكرة اشتغل بنفسك يقول لك إنما أقوم حماية لدين الله وغيرة له والغيرة لله من الايمان وأمثال هذا ولا يسكن ولا ينظر هل ذلك من قبيل الإمكان أم لا أعني أن يكون الله قد عرف وليا من أوليائه بما يجريه في خلقه كالخضر ويعلمه علوما من لدنه تكون العبارة عنها بهذه الصيغ التي ينطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال الخضر وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي وآمن هذا المنكر بها على زعمه

إذ جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فو الله لو كان مؤمنا بها ما أنكرها على هذا الولي لأن الشارع ما أنكر إطلاقها في جناب الحق من استواء ونزول ومعية وضحك وفرح وتبشبش وتعجب وأمثال ذلك وما ورد عنه صلى الله عليه وسلم قط أنه حجرها على أحد من عباد الله بل أخبر عن الله أنه يقول لنا لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ففتح لنا وندبنا إلى التأسي به صلى الله عليه وسلم وقال فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وهذا من اتباعه والتأسي به فمن التأسي به إذا ورد علينا من الحق سبحانه وارد حق فعلمنا من لدنه علما فيه رحمة حبانا الله بها وعناية حيث كنا في ذلك على بينة من ربنا ويتلوها شاهد منا وهو اتباعنا سنته وما شرع لنا لم نخل بشيء منها ولا ارتكبنا مخالفة بتحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل فنطلب لذلك المعلوم الذي علمناه من جانب الحق أمثال هذه العبارات النبوية لنفصح بها عن ذلك ولا سيما إذا سألنا عن شيء من ذلك لأن الله أخبر عمن هذه صفته أنه يدعو إلى الله على بصيرة فمن التأسي المأمور به برسول الله صلى الله عليه وسلم أن نطلق على تلك المعاني هذه الألفاظ النبوية إذ لو كان في العبارة عنها ما هو أفصح منها لا طلقها صلى الله عليه وسلم فإنه المأمور بتبيين ما أنزل به علينا ولا نعدل إلى غيرها لما نريده من البيان مع التحقق ب لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ فإنا إذا عدلنا إلى عبارة غيرها ادعينا بذلك أنا أعلم بحق الله وأنزه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أسوأ ما يكون من الأدب ثم إن المعنى لا بد أن يختل عند السامع إذ كان ذلك اللفظ الذي خالفت به لفظ من كان أفصح الناس وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن لا يدل على ذلك المعنى بحكم المطابقة فشرع لنا التأسي وغاب هذا المنكر المكفر من أتى بمثل هذا عن النظر في هذا كله وذلك لأمرين أو لأحدهما إن كان عالما فلحسد قام به قال تعالى حَسَداً من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وإن كان جاهلا فهو بالنبوة أجهل

]أقطاب الأفراد واختصاصاتهم[

يا ولي لقينا من أقطاب هذا المقام بجبل أبي قبيس بمكة في يوم واحد ما يزيد على السبعين رجلا وليس لهذه الطبقة تلميذ في طريقهم أصلا ولا يسلكون أحدا بطريق التربية لكن لهم الوصية والنصيحة ونشر العلم فمن وفق أخذ به ويقال إن أبا السعود بن الشبل كان منهم وما لقيته ولا رأيته ولكن شممت له رائحة طيبة ونفسا عطريا وبلغني أن عبد القادر الجيلي وكان عدلا قطب وقته شهد لمحمد بن قائد الأواني بهذا المقام كذا نقل إلي والعهدة على الناقل فإن ابن قائد زعم أنه ما رأى هناك أمامه سوى قدم نبيه وهذا لا يكون

إلا لأفراد الوقت فإن لم يكن من الأفراد فلا بد أن يرى قدم قطب وقته أمامه زائدا على قدم نبيه إن كان إماما وإن كان وتدا فيرى أمامه ثلاثة أقدام وإن كان بدلا يرى أربعة قدام وهكذا إلا أنه لا بد أن يكون في حضرة الاتباع مقاما فإذا لم يقم في حضرات الاتباع وعدل به عن يمين الطريق بين المخدع وبين الطريق فإنه لا يبصر قدما أمامه وذلك هو طريق الوجه الخاص الذي من الحق إلى كل موجود ومن ذلك الوجه الخاص تنكشف للأولياء هذه العلوم التي تنكر عليهم ويزندقون بها ويزندقهم بها ويكفرهم من يؤمن بها إذا جاءته عن الرسل وهي العلوم عينها وهي التي ذكرناها آنفا ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرف في العالم فالطبقة الأولى من هؤلاء تركت التصرف لله في خلقه مع التمكن وتولية الحق لهم إياه تمكنا لا أمرا لكن عرضا فلبسوا الستر ودخلوا في سرادقات الغيب واستتر وبحجب العوائد ولزموا العبودة والافتقار وهم الفتيان الظرفاء الملامتية الأخفياء الأبرياء وكان أبو السعود منهم كان رحمه الله ممن امتثل أمر الله في قوله تعالى فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا فالوكيل له التصرف فلو أمر امتثل الأمر هذا من شأنهم وأما عبد القادر فالظاهر من حاله إنه كان مأمورا بالتصرف فلهذا ظهر عليه هذا هو الظن بأمثاله وأما محمد الأواني فكان يذكر إن الله أعطاه التصرف فقبله فكان يتصرف ولم يكن مأمورا فابتلي فنقصه من المعرفة القدر الذي علا أبو السعود به عليه فنطق أبو السعود بلسان الطبقة الأولى من طائفة الركبان وسميناهم أقطابا لثبوتهم ولأن هذا المقام أعني مقام العبودة يدور عليهم لم أرد بقطبيتهم أن لهم جماعة تحت أمرهم يكونون رؤساء عليهم وأقطابا لهم هم أجل من ذلك وأعلى فلا رياسة أصلا لهم في نفوسهم لتحققهم بعبوديتهم ولم يكن لهم أمر إلهي بالتقدم فما ورد عليهم فيلزمهم طاعته لما هم عليه من التحقق أيضا بالعبودية فيكونون قائمين به في مقام العبودية بامتثال أمر سيدهم وأما مع التخيير والعرض أو طلب تحصيل المقام فإنه لا يظهر به إلا من لم يتحقق بالعبودة التي خلق لها.

فهذا يا ولي قد عرفتك في هذا الباب بمقاماتهم وبقي التعريف بأصولهم وتعيين أحوال الأقطاب المدبرين من الطبقة الثانية منهم نذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ لا رب غيره

الباب الحادي والثلاثون في معرفة أصول الركبان

حدب الدهر علينا وحنا ..... ومضى في حكمه وما ونى

وعشقناه فغنينا عسى ..... يطرب الدهر بإيقاع الغنا

نحن حكمناك في أنفسنا ..... فاحكم إن شئت علينا أو لنا

ولقد كان له الحكم وما ..... كان ذاك الحكم للدهر بنا

فشفيعي هو دهري والذي ..... صرف الدهر كذا صرفنا

فركبنا نطلب الأصل الذي ..... جعل السر لدينا علنا

فلنا منه الذي حركنا ..... وله منا الذي سكننا

حركات الدهر فينا شهدت ..... أنه قال له ما سكنا

فأنا العبد الذليل المجتبى ..... وأنا حق وما الحق أنا

]التبري من الحركة[

اعلم أيدك الله أن الأصول التي اعتمد عليها الركبان كثيرة منها التبري من الحركة إذا أقيموا فيها فلهذا ركبوا فهم الساكنون على مراكبهم المتحركون بتحريك مراكبهم فهم يقطعون ما أمروا بقطعه بغيرهم لا بهم فيصلون مستريحين مما تعطيه مشقة الحركة متبرءين من الدعوى التي تعطيها الحركة حتى لو افتخروا بقطع المسافات البعيدة في الزمان القليل لكان ذلك الفخر راجعا للمركب الذي قطع بهم تلك المسافة لا لهم فلهم التبري وما لهم الدعوى فهجيرهم لا حول ولا قوة إلا بالله وآيتهم وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ الله رَمى يقال لهم وما قطعتم هذه المسافات حين قطعتموها ولكن الركاب قطعتها فهم المحمولون فليس للعبد صولة لا بسلطان سيده وله الذلة والعجز والمهانة والضعف من نفسه ولما رأوا أن الله قد نبه بقوله تعالى ولَهُ ما سَكَنَ فأخلصه له علموا إن الحركة فيها الدعوى وأن السكون لا تشوبه دعوى فإنه نفي الحركة فقالوا إن الله قد أمرنا بقطع هذه المسافة المعنوية وجوب هذه المفاوز المهلكة إليه فإن نحن قطعناها بنفوسنا لم نأمن على نفوسنا من أن نتمدح بذلك في حضرة الاتصال فإنها مجبولة على الرعونة وطلب التقدم وحب الفخر فنكون من أهل النقص في ذلك المقام بقدر ما ينبغي أن نحترم به ذلك الجلال الأعظم

]الحوقلة نجب الأفراد[

فلنتخذ ركابا نقطع به فإن أرادت الافتخار يكون الافتخار للركاب لا للنفوس فاتخذت من لا حول ولا قوة إلا بالله نجبا لما كانت النجب أصبر عن الماء والعلف من الأفراس وغيرها

والطريق معطشة جدبة يهلك فيها من المراكب من ليس له مرتبة النجب فلهذا اتخذوها نجبا دون غيرها مما يصح أن يركب ولا يصح أن يقطع ذلك الحمد لله فإن هذا الذكر من خصائص الوصول ولا سبحان الله فإنه من خصائص التجلي ولا لا إله إلا الله فإنه من خصائص الدعاوي ولا الله أكبر فإنه من خصائص المفاضلة فتعين لا حول ولا قوة إلا بالله فإنه من خصائص الأعمال فعلا وقولا ظاهرا وباطنا لأنهم بالأعمال أمروا والسفر عمل قلبا وبدنا ومعنى وحسا وذلك مخصوص بلا حول ولا قوة إلا بالله فإنه بها يقولون لا إله إلا الله وبها نقول سبحان الله وغير ذلك من جميع الأقوال والأعمال

»]السكون» مناط اختيار «الأفراد[«

ولما كان السكون عدم الحركة والعدم أصلهم لأنه قوله وقَدْ خَلَقْتُكَ من قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيْئاً يريد موجودا فاختاروا السكون على الحركة وهو الإقامة على الأصل فنبه سبحانه وتعالى في قوله ولَهُ ما سَكَنَ في اللَّيْلِ والنَّهارِ أن الخلق سلموا له العدم وادعوا له في الوجود فمن باب الحقائق عرى الحق خلقه في هذه الآية عن إضافة ما ادعوه لأنفسهم بقوله ولَهُ ما سَكَنَ في اللَّيْلِ والنَّهارِ أي ما ثبت والثبوت أمر وجودي عقلي لا عيني بل نسبي وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يسمع دعواكم في نسبة ما هو له وقد نسبتموه إليكم عليم بأن الأمر على خلاف ما دعيتموه

]توحيد الحق بلسان الحق[

ومن أصولهم التوحيد بلسان بي يتكلم وبي يسمع وبي يبصر وهذا مقام لا يحصل إلا عن فروع الأعمال وهي النوافل فإن هذه الفروع تنتج المحبة الإلهية والمحبة تورث العبد أن يكون بهذه الصفة فتكون هذه الصفة أصلا لهذا الصف من العباد فيما يعلمونه ويحكمون به من أحكام الخضر وعلمه فهو أصل مكتسب وهو للخضر أصل عناية إلهية بالرحمة التي آتاه الله وعن تلك الرحمة كان له هذا العلم الذي طلب موسى عليه السلام أن يعلمه منه فإن تفطنت لهذا الأمر الذي أوردناه عرفت قدر ولاية هذه الملة المحمدية والأمة ومنزلتها وأن ثمرة زهرة فروع أصلها المشروع لها في العامة هي أصل الخضر الذي امتن الله تعالى على عبده موسى عليه السلام بلقائه وأدبه به فانتج للمحمدي فرع فرع فرع أصله ما هو أصل للخضر ومثل موسى عليه السلام يطلب منه أن يعلمه مما هو عليه من العلم فانظر منزلة هذا العارف المحمدي أين تميزت فكيف لك بما ينتجه الأصل الذي ترجع إليه هذه الفروع

]محبة الامتنان ومحبة الجزاء[

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه إن الله يقول ما تقرب إلي المتقربون بأحب إلي من أداء ما افترضته عليهم

فهذا هو الأصل أداء الفرض ثم قال ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل وهو ما زاد على الفرائض ولكن من جنسها حتى تكون الفرائض أصلا لها مثل نوافل الخيرات من صلاة وزكاة وصوم وحج وذكر فهذا هو الفرع الأقرب إلى الأصل ثم ينتج له هذا العمل الذي هو نافلة محبة الله إياه وهي محبة خاصة جزاء ليست هي محبة الامتنان فإن محبة الامتنان الأصلية اشترك فيها جميع أهل السعادة عند الله تعالى وهي التي أعطت لهؤلاء التقرب إلى الله بنوافل الخيرات ثم إن هذه المحبة وهي الفرع الثاني الذي هو بمنزلة الزهرة أنتجت له أن يكون الحق سمعه وبصره ويده إلى غير ذلك وهذا هو الفرع الثالث وهو بمنزلة الثمرة التي تعقد عند الزهرة فعند ذلك يكون العبد يسمع بالحق وينطق به ويبصر به ويبطش به ويدرك به وهذا وحي خاص إلهي أعطاه هذا المقام ليس للملك فيه وساطة من الله ولهذا قال الخضر لموسى عليه السلام ما لَمْ تُحِطْ به خُبْراً فإن وحي الرسل إنما هو بالملك بين الله وبين رسوله فلا خبر له بهذا الذوق في عين إمضاء الحكم في عالم الشهادة فما تعود الإرسال لتشريع الأحكام الإلهية في عالم الشهادة إلا بواسطة الروح الذي ينزل به على قلبه أو في تمثله لم يعرف الرسول الشريعة إلا على هذا الوصف لا غير الشريعة فإن الرسول له قرب أداء الفرض والمحبة عليها من الله وما تنتج له تلك المحبة وله قرب النوافل ومحبتها وما يعطيه محبتها ولكن من العلم بالله لا من علم التشريع وإمضاء الحكم في عالم الشهادة فلم يحط به خبرا من هذا القبيل فهذا القدر هو الذي اختص به خضر دون موسى عليه السلام.

]نبوة التعريف ونبوة التشريع[

ومن هذا الباب يحكم المحمدي الذي لم يتقدم له علم بالشريعة بوساطة النقل وقراءة الفقه والحديث ومعرفة الأحكام الشرعية فينطق صاحب هذا المقام بعلم الحكم المشروع على ما هو عليه في الشرع المنزل من هذه الحضرة وليس من الرسل وإنما هو تعريف إلهي وعصمة يعطيها هذا المقام ليس للرسالة فيه مدخل فهذا معنى قوله ما لَمْ تُحِطْ به خُبْراً فإن الرسول لا يأخذ هذا الحكم إلا بنزول الروح الأمين على قلبه أو بمثال في شاهده يتمثل له

الملك رجلا ولما كانت النبوة قد منعت والرسالة كذلك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان التعريف لهذا الشخص بما هو الشرع المحمدي عليه في عالم الشهادة فلو كان في زمان التشريع كما كان زمان موسى لظهر الحكم من هذا الولي كما ظهر من الخضر من غير وساطة ملك بل من حضرة القرب فالرسول والنبي لهما حضرة القرب مثل ما لهذا وليس له التشريع منها بل التشريع لا يكون له لا بوساطة الملك الروح وما بقي إلا إذا حصل للنبي المتأخر من شرع المتقدم ما هو شرع له هل يحصل ذلك بوساطة الروح كسائر شرعه أو يحصل له كما حصل للخضر ولهذا الولي منا من حضرة الوحي فمذهبي أنه لا يحصل له إلا كما يحصل ما يختص به من الشرائع ذلك الرسول ولهذا ليصدق الثقة العدل في قوله ما لم تحط به خبرا وما يعرف له منازع ولا مخالف فيما ذكرناه من أهل طريقنا ولا وقفنا عليه غير أنه إن خالفنا فيه أحد من أهل طريقنا فلا يتصور فيه خلاف لنا إلا من أحد رجلين إما رجل من أهل الله التبس عليه الأمر وجعل التعريف الإلهي حكما فأجاز أن يكون النبي أو الرسول كذلك ولكن في هذه الأمة وأما في الزمان الأول فهو حكم لصاحبه ولا بد وهو تعريف للرسول بوساطة الملك أن هذا شرع لغيره قال تعالى لما ذكر الأنبياء أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ وما ذكر له هداهم إلا بالوحي بوساطة لروح والرجل الآخر رجل قاس الحكم على الأخبار وأما غير ذلك فلا يكون ومع هذا فلم يصل إلينا عن أحد منهم خلاف فيما ذكرناه ولا وفاق

]مشكلة الصفات والأسماء الإلهية[

ومن أصول هذه الطبقة أيضا أنه يتكلم بما به يسمع ولا يقول بذلك سواهم من حيث الذوق لكن قد يقول بذلك من يقول به من حيث الدليل العقلي فهؤلاء يأخذونه عن تجل إلهي وغيرهم يأخذه عن نظر صحيح موافق للأمر على ما هو عليه وهو الحق ووقوع الاختلاف في الطريق فهذا الطريق غير هذا الطريق وإن اتفقا في المنزل وهو الغاية فهو السميع لنفسه البصير لنفسه العالم لنفسه وهكذا كل ما تسميه به أو تصفه أو تنعته إن كنت ممن يسي ء الأدب مع الله حيث يطلق لفظ صفة على ما نسب إليه أو لفظ نعت فإنه ما أطلق على ذلك إلا لفظ اسم فقال سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ وتَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ولِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وقال في حق المشركين قُلْ سَمُّوهُمْ وما قال صفوهم ولا أنعتوهم بل قال سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ فنزه نفسه عن الوصف لفظا ومعنى إن كنت من أهل الأدب والتفطن فهذا معنى قولي إن كنت ممن يسي ء الأدب مع الله

]مذهب الأشاعرة في الذات والصفات[

والمخالف لنا يقول إنه يعلم بعلم ويقدر بقدرة ويبصر ببصر وهكذا جميع ما يتسمى به إلا صفات التنزيه فإنه لا يتكلم فيها بهذا النوع كالغني وأشباهه إلا بعضهم فإنه جعل ذلك كله معاني قائمة بذات الله لا هي هو ولا هي غيره ولكن هي أعيان زائدة على ذاته والأستاذ أبو إسحاق جعل السبعة أصولا لا أعيانا زائدة على ذاته اتصفت بها ذاته وجعل كل اسم بحسب ما تعطيه دلالته فجعل صفات التنزيه كلها في جدول الاسم الحي وجعل الخبير والحسيب والعليم والمحصي وأخواته في جدول العلم وجعل الاسم الشكور في جدول الكلام وهكذا الحق الكل كل صفة من السبعة ما يليق بها من الأسماء بالمعنى كالخالق والرازق للقدرة وغير ذلك على هذا الأسلوب هذا مذهب الأستاذ وأجمع المتكلمون من الأشاعرة على إن ثم أمورا زائدة على الذات ونصبوا على ذلك أدلة ثم إنهم مع إجماعهم على الزائد لم يجدوا دليلا قاطعا على إن هذا الزائد على الذات هل هو عين واحدة لها أحكام مختلفة وإن كان زائدا لا بد من ذلك أو هل هذا الزائد أعيان متعددة لم يقل حاذقوهم في ذلك شيئا بل قال بعضهم يمكن أن يكون الأمر في نفسه يرجع إلى عين واحدة ويمكن أن يرجع إلى أعيان مختلفة إلا أنه زائد ولا بد ولا فائدة جاء بها هذا المتكلم إلا عدم التحكم فإن الذات إذا قبلت عينا واحدة زائدة جاز أن تقبل عيونا كثيرة زائدة على ذاتها فيكون القدماء لا يحصون كثرة وهو مذهب أبي بكر بن الطيب والخلاف في ذلك يطول وليس طريقنا على هذا بنى أعني في الرد عليهم ومنازعتهم لكن طريقنا تبيين مآخذ كل طائفة ومن أين انتحلته في نحلها وما تجلى لها وهل يؤثر ذلك في سعادتها أو لا يؤثر هذا حظ أهل طريق الله من العلم بالله فلا نشتغل بالرد على أحد من خلق الله بل ربما يقيم لهم العذر في ذلك للاتساع الإلهي فإن الله أقام العذر فيمن يدعو مع الله إلها آخر ببرهان يرى أنه دليل في زعمه فقال عز من قائل ومن يَدْعُ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ به

]الخير والشر ونسبتهما إلى الله[

ومن أصولهم الأدب مع الله تعالى فلا يسمونه إلا بما سمي به نفسه ولا يضيفون إليه إلا ما أضافه إلى نفسه كما قال تعالى ما أَصابَكَ من حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وقال في السيئة وما أَصابَكَ من سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ثم قال قُلْ كُلٌّ من عِنْدِ الله قال ذلك في الأمرين إذا جمعتهما لا تقل من الله فراع اللفظ واعلم أن لجمع الأمر حقيقة تخالف حقيقة كل مفرد إذا انفرد ولم يجتمع مع غيره كسواد المداد بين العفص والزاج ففصل سبحانه بين ما يكون منه وبين ما

يكون من عنده يقول تعالى في حق طائفة مخصوصة والله خَيْرٌ وأَبْقى ببنية المفاضلة ولا مناسبة وقال في حق طائفة أخرى معينة صفتها وما عِنْدَ الله خَيْرٌ وأَبْقى فما هو عنده ما هو عين ما هو منه ولا عين هويته فبين الطائفتين ما بين المنزلتين كما قيل لواحد ما تركت لأهلك قال الله ورسوله وقيل للآخر فقال نصف مالي فقال بينكما ما بين كلمتيكما يعني في المنزلة فإذا أخذ العبد من كل ما سواه جعله في الله خير وأبقى وإذا أخذه من وجه من العالم يقتضي الحجاب والبعد والذم جعله فيما عند الله خير وأبقى فميز المراتب ثم إنه سبحانه عرفنا بأهل الأدب ومنزلهم من العلم به فقال عن إبراهيم خليله أنه قال الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ ولم يقل يجوعني وإِذا مَرِضْتُ ولم يقل أمرضني فَهُوَ يَشْفِينِ فأضاف الشفاء إليه والمرض لنفسه وإن كان الكل من عنده ولكنه تعالى هو أدب رسله إذ كان المرض لا تقبله النفوس بخلاف الموت فإن الفضلاء من العقلاء العارفين يطلبون الموت للتخلص من هذا الحبس وتطلبه الأنبياء للقاء الله الذي يتضمنه وكذلك أهل الله ولذلك ما خير نبي في الموت إلا اختاره لأن فيه لقاء الله فهو نعمة منه عليه ومنة والمرض شغل شاغل عن أداء ما أوجب الله على العبد أداءه من حقوق الله لإحساسه بالألم وهو في محل التكليف وما يحس بالألم إلا الروح الحيواني فيشغل الروح المدبر لجسده عما دعي إليه في هذه الدنيا فلهذا أضاف المرض إليه والشفاء والموت للحق كما فعل صاحب موسى عليه السلام في إضافة خرق السفينة إليه إذ جعل خرقها عيبا وأضاف قتل الغلام إليه وإلى ربه لما فيه من الرحمة بابويه وما ساءهما من ذلك أضافه إليه وأضاف إقامة الجدار إلى ربه لما فيه من الصلاح والخير فقال تعالى عن عبده خضر في خرق السفينة فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها تنزيها أن يضيف إلى الجناب العالي ما ظاهره ذم في العرف والعادة وقال في إقامة الجدار لما جعل إقامته رحمة باليتيمين لما يصيبانه من الخير الذي هو الكنز فَأَرادَ رَبُّكَ يخبر موسى عليه السلام أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما ويَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً من رَبِّكَ وقال لموسى في حق الغلام إنه طبع كافرا والكفر صفة مذمومة قال تعالى ولا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وأراد أن يخبره بأن الله يبدل أبويه خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وأَقْرَبَ رُحْماً فأراد أن يضيف ما كان في المسألة من العيب في نظر موسى عليه السلام حيث جعله نكرا من المنكر وجعله نفسا زاكية قتلت بِغَيْرِ نَفْسٍ قال فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما فأتى بنون الجمع فإن في قتله أمرين أمر يؤدي إلى الخير وأمر إلى غير ذلك في نظر موسى وفي مستقر العادة فما كان من خير في هذا الفعل فهو لله من حيث ضمير النون وما كان فيه من

نكر في ظاهر الأمر وفي نظر موسى عليه السلام في ذلك الوقت كان للخضر من حيث ضمير النون فنون الجمع لها وجهان لما فيها من الجمع وجه إلى الخير به أضاف الأمر إلى الله ووجه إلى العيب به أضاف العيب إلى نفسه وجاء بهذه المسألة والواقعة في الوسط لا في الطرف بين السفينة والجدار ليكون ما فيها من عيب من جهة السفينة وما فيها من خير من جهة الجدار فلو كانت مسألة الغلام في الطرف ابتداء أو انتهاء لم تعط الحكمة أن يكون كل وجه مخلصا من غير أن يشوبه شيء من الخير أو ضده فلو كان أولا وكانت السفينة وسط لم يصل ما في مسألة الغلام من الخير الذي له ولأبويه حتى يمر على حضرة مصيبة ظاهرا وهي السفينة وحينئذ يتصل بالخير الذي في الجدار ولو كان الجدار وسطا وتأخر حديث الغلام لم يصل عيب السفينة إلى الاتصال بعيب الغلام حتى يمر بخير ما في الجدار فيمر بغير المناسب ومن شأن الحضرات أن تقلب أعيان الأشياء أعني صفاتها إذا مرت بها فكانت مسألة الغلام وسطا فيلي وجه العيب جهة السفينة ويلي جهة الخير جهة الجدار واستقامت الحكمة فإن قلت فلم جمع بين الله وبين نفسه في ضمير النون أعني نون فأردنا وقال صلى الله عليه وسلم لما سمع بعض الخطباء وقد جمع بين الله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ضمير واحد في قوله ومن يعصهما بئس الخطيب أنت .

فاعلم أنه من الباب الذي قررناه وهو أنه لا يضاف إلى الحق إلا ما أضافه الحق إلى نفسه أو أمر به رسوله أو من آتاه علما من لدنه كالخضر المنصوص عليه فهذا من ذلك الباب فلما كان هذا الخطيب عريا من العلم اللدني ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم إليه في إباحة مثل هذا لهذا ذمه وقال بئس الخطيب أنت فإنه كان ينبغي له أن لا يجمع بين الحق والخلق في ضمير واحد إلا بإذن إلهي من رسول أو علم لدني ولم يكن واحد من هذين الأمرين عنده فلهذا ذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رويناه عنه في خطبة خطبها فذكر الله تعالى فيها وذكر نفسه صلى الله عليه وسلم ثم جمع بين ربه تعالى وبين نفسه فيها في ضمير واحد فقال من يُطِعِ الله ورَسُولَهُ فقد رشد ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا

وما يَنْطِقُ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى وكذا قال الخضر وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي يعني جميع ما فعله من الأعمال وجميع ما قال من الأقوال في العبارة لموسى عليه السلام عن ذلك فافهم

]الركبان مرادون لا مريدون[

فبهذا قد أبنت لك عن أصولهم ما فيه كفاية فالركبان هم المرادون المجذوبون المصونة أسرارهم في البيض فلا يتخللها هواء مثل القاصرات الطرف من الحور المقصورات في الخيام كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ

]صفات الركبان[

ومن صفاتهم أنهم لا يكشفون وجوههم عند النوم ولا ينامون إلا على ظهورهم لهم التلقي لا يتحركون إلا عن أمر إلهي ولا يسكنون إلا كذلك بإرادة إرادتهم ما يراد بهم ولما كان السكون أمرا عدميا لذلك قرنا به الإرادة دون الأمر ولما كان التحرك أمرا وجوديا لذلك قرنا به الأمر الإلهي إن فهمت وهم رضي الله عنهم لا يزاحمون ولا يزاحمون أكثر ما يجري على ألسنتهم ما شاء الله سخرت لهم السحاب لهم القدم الراسخة في علم الغيوب لهم في كل ليلة معراج روحاني بل في كل نومة من ليل أو نهار لهم استشراف على بواطن العالم فرأوا ملكوت السموات والأرض يقول الله تعالى وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ والْأَرْضِ ولِيَكُونَ من الْمُوقِنِينَ وقال في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا من الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ من آياتِنا وهو عين إسرائه والعلماء ورثة الأنبياء أحوالهم الكتمان لو قطعوا إربا إربا ما عرف ما عندهم لهذا قال خضر ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي فالكتمان من أصولهم إلا أن يؤمروا بالإفشاء والإعلان.

والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

الباب الثاني والثلاثون
في معرفة الأقطاب المدبرين أصحاب الركاب
من الطبقة الثانية

إن التدبر معشوق لصاحبه ..... به تعشقت الأسماء والدول
عليه عند الذي يقضي سوالفه ..... في كل ما يقتضيه كونه العمل
به ترتب ما في الكون من عجب ..... فكل كون له في علمه أجل

]الرّكبان المدبّرون في إشبيلية[

لقيت من هؤلاء الطبقة جماعة بإشبيلية من بلاد الأندلس منهم أبو يحيى الصنهاجي الضرير كان يسكن بمسجد الزبيدي صحبته إلى أن مات ودفن بجبل عال كثير الرياح بالشرق فكل الناس شق عليهم طلوع الجبل لطوله وكثرة رياحه فسكن الله الريح فلم تهب من الوقت الذي وضعناه في الجبل وأخذ الناس في حفر قبره وقطع حجره إلى أن فرغنا منه وواريناه في روضته وانصرفنا فعند انصرافنا هبت الريح على عادتها فتعجب الناس من ذلك ومنهم أيضا صالح البربري وأبو عبد الله الشرفي وأبو الحجاج يوسف الشبربلي فأما صالح فساح أربعين سنة ولزم بإشبيلية مسجد الرطند إلى أربعين سنة على التجريد بالحالة التي كان عليها في سياحته وأما أبو عبد الله الشرفي فكان صاحب خطوة بقي نحوا من خمسين سنة ما أسرج له سراجا في بيته رأيت له عجائب وأما أبو الحجاج الشبر بلي من قرية يقال لها شبربل بشرق إشبيلية كان ممن يمشي على الماء وتعاشره الأرواح وما من واحد من هؤلاء إلا وعاشرته معاشرة مودة وامتزاج ومحبة منهم فينا وقد ذكرناهم مع أشياخنا في الدرة الفاخرة عند ذكرنا من انتفعت به في طريق الآخرة.

]الآيات المعتادة وغير المعتادة[

فكان هؤلاء الأربعة من أهل هذا المقام وهم من أكابر الأولياء الملامية جعل بأيديهم علم

التدبير والتفصيل فلهم الاسم المدبر المفصل وهجيرهم يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ هم العرائس أهل المنصات فلهم الآيات المعتادة وغير المعتادة فالعالم كله عندهم آيات بينات والعامة ليست الآيات عندهم إلا التي هي عندهم غير معتادة فتلك تنبههم إلى تعظيم الله والله قد جعل الآيات المعتادة لأصناف مختلفين من عباده فمنها للعقلاء مثل قوله – تعالى–: ﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والْأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي في الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وما أَنْزَلَ الله من السَّماءِ من ماءٍ فَأَحْيا به الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فِيها من كُلِّ دَابَّةٍ وتَصْرِيفِ الرِّياحِ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]؛ فثم آيات للعقلاء كلّها معتادة؛ ﴿وآياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وآيات لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾[2]؛ وآيات لِأُولِي النُّهى؛ وآيات للسّامعين، وهم أهل الفهم عن الله وآيات للعالمين وآيات للعالمين وآيات للمؤمنين وآيات للمتفكرين وآيات لأهل التذكر.

فهؤلاء كلهم أصناف نعتهم الله بنعوت مختلفة وآيات مختلفات كلها ذكرها لنا في القرآن إذا بحثت عليها وتدبرتها علمت أنها آيات ودلالات على أمور مختلفة ترجع إلى عين واحدة غفل عن ذلك أكثر النّاس، ولهذا عدّد الأصناف.

]أصناف الخلق في إدراك الآيات المعتادة[

فإن من الآيات المذكورة المعتادة ما يدرك الناس دلالتها من كونهم ناسا وجنا وملائكة وهي التي وصف بإدراكها العالم بفتح اللام ومن الآيات ما تغمض بحيث لا يدركها إلا من له التفكر السليم ومن الآيات ما هي دلالتها مشروطة بأولي الألباب وهم العقلاء الناظرون في لب الأمور لا في قشورها فهم الباحثون عن المعاني وإن كانت الألباب والنهي العقول فلم يكتف سبحانه بلفظة العقل حتى ذكر الآيات لأولي الألباب فما كل عاقل ينظر في لب الأمور وبواطنها فإن أهل الظاهر لهم عقول بلا شك وليسوا بأولي الألباب ولا شك أن العصاة لهم عقول ولكن ليسوا بأولي نهى فاختلفت صفاتهم إذ كانت كل صفة تعطي صنفا من العلم لا يحصل إلا لمن حاله تلك الصفة فما ذكرها الله سدى وكثر الله ذكر الآيات في القرآن العزيز ففي مواضع أردفها وتلا بعضها بعضا وأردف صفة العارفين بها وفي مواضع

1
2

أفردها فمثل إرداف بعضها على بعض مساقها في سورة الروم فلا يزال يقول تعالى ومن آياتِهِ ومن آياتِهِ ومن آياتِهِ فيتلوها جميع الناس ولا يتنبه لها إلا الأصناف الذين ذكرهم في كل آية خاصة فكان تلك الآيات في حق أولئك أنزلت آيات وفي حق غيرهم لمجرد التلاوة ليؤجروا عليها.

]النّوم واليقظة: من آيات الله[

ولما قرأت هذه السورة وأنا في مقام هذه الطبقة ووصلت إلى قوله ومن آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ وابْتِغاؤُكُمْ من فَضْلِهِ تعجبت كل العجب من حسن نظم القرآن وجمعه ولما ذا قدم ما كان ينبغي في النظر العقلي في ظاهر الأمر أن يكون على غير هذا النظم فإن النهار لابتغاء الفضل والليل للمنام كما قال في القصص ومن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ فأعاد الضمير على الليل ولِتَبْتَغُوا من فَضْلِهِ يريد في النهار فأضمر وإن كان الضميران يعودان على المعنى المقصود فقد يعمل الصانع بالليل ويبيع ويشتري بالليل كما أنه ينام أيضا ويسكن بالنهار ولكن الغالب في الأمور هو المعتبر فلاح لي من خلف ستارة هذه الآية وحسن العبارة عنها الرافعة سترها وهو قوله مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ أمر زائد على ما يفهم منه في العموم بقرائن الأحوال في ابتغاء الفضل للنهار والمنام لليل ما نذكره.

]النّشأتان: الدّنيويّة والأخرويّة[

وهو أنّ الله نبه بهذه الآية على إن نشأة الآخرة الحسية لا تشبه هذه النشأة الدنياوية وإنها ليست بعينها بل تركيب آخر ومزاج آخر كما وردت به الشرائع والتعريفات النبوية في مزاج تلك الدار وإن كانت هذه الجواهر عينها بلا شك فإنها التي تبعثر في القبور وتنشر ولكن يختلف التركيب والمزاج بأعراض وصفات تليق بتلك الدار لا تليق بهذه الدار وإن كانت الصورة واحدة في العين والسمع والأنف والفم واليدين والرجلين بكمال النشأة ولكن الاختلاف بين فمنه ما يشعر به ويحس ومنه ما لا يشعر به ولما كانت صورة الإنشاء في الدار الآخرة على صورة هذه لنشأة لم يشعر بما أشرنا إليه ولما كان الحكم يختلف عرفنا إن المزاج اختلف فهذا الفرق بين حظ الحس والعقل.

]الدّنيا نوم والموت يقظة[

فقال –تعالى–: ﴿ومن آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ﴾[1]، ولم يذكر اليقظة، وهي من جملة لآيات فذكر المنام دون اليقظة في حال الدنيا فدل على إن اليقظة لا تكون إلا عند الموت وأنّ الإنسان نائم أبدا ما لم يمت، فذكر أنّه في منام بالليل والنهار في يقظته ونومه وفي الخبر: "النّاس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا".

أ لا ترى أنه لم يأت بالباء في قوله تعالى والنَّهارِ واكتفى بباء الليل ليحقق بهذه المشاركة أنه يريد المنام في حال اليقظة المعتادة فحذفها مما يقوي الوجه الذي أبرزناه في هذه الآية فالمنام هو ما يكون فيه النائم في حال نومه فإذا استيقظ يقول رأيت كذا وكذا فدل إن الإنسان في منام ما دام في هذه النّشأة في الدّنيا إلى أن يموت فلم يعتبر الحق اليقظة المعتادة عندنا في العموم بل جعل الإنسان في منام في نومه ويقظته كما أوردناه في الخبر النبوي من

قوله –صلّى الله عليه وسلّم–: "النّاس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"، فوصفهم بالنّوم في الحياة الدّنيا و

]الدّنيا حلم يجب تأويله وجسر يجب عبوره[

العامّة لا تعرف النّوم في المعتاد إلّا ما جرت به العادة أن يسمى نوما.

فنبه النبي صلى الله عليه وسلم بل صرح أن الإنسان في منام ما دام في الحياة الدنيا حتى ينتبه في الآخرة والموت.

أول أحوال الآخرة فصدقه الله بما جاء به في قوله تعالى "ومن آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ" وهو النوم العادي والنَّهارِ وهو هذا المنام الذي صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا جعل الدنيا عبرة جسرا يعبر أي تعبر كما تعبر الرؤيا التي يراها الإنسان في نومه فكما إن الذي يراه الرائي في حال نومه ما هو مراد لنفسه إنما هو مراد لغيره فيعبر من تلك الصورة المرئية في حال النوم إلى معناها المراد بها في عالم اليقظة إذا استيقظ من نومه كذلك

1

حال الإنسان في الدنيا ما هو مطلوب للدنيا فكل ما يراه من حال وقول وعمل في الدنيا إنما هو مطلوب للآخرة فهناك يعبر ويظهر له ما رآه في الدنيا كما يظهر له في الدنيا إذا استيقظ ما رآه في المنام فالدنيا جسر يعبر ولا يعمر كالإنسان في حال ما يراه في نومه يعبر ولا يعمر فإنه إذا استيقظ لا يجد شيئا مما رآه من خير يراه أو شر وديار وبناء وسفر وأحوال حسنة أو سيئة فلا بد أن يعبر له العارف بالعبارة ما رآه فيقول له تدل رؤياك لكذا على كذا فكذلك الحياة الدنيا منام إذا انتقل إلى الآخرة بالموت لم ينتقل معه شيء مما كان في يده وفي حسه من دار وأهل ومال كما كان حين استيقظ من نومه لم ير شيئا في يده مما كان له حاصلا في رؤياه في حال نومه.

فلهذا قال تعالى" إننا في منام بالليل والنهار" وفي الآخرة تكون اليقظة وهناك تعبر الرؤيا.

فمن نور الله عين بصيرته وعبر رؤياه هنا قبل الموت أفلح ويكون فيها مثل من رأى رؤيا ثم رأى في رؤياه إنه استيقظ فيقص ما رآه وهو في النوم على حاله.

على بعض الناس الذين يراهم في نومه فيقول رأيت كذا وكذا فيفسره ويعبره له ذلك الشخص بما يراه في علمه بذلك.

فإذا استيقظ حينئذ يظهر له أنه لم يزل في منام في حال الرؤيا وفي حال التعبير لها وهو أصح التعبير.

وكذلك الفطن اللبيب في هذه الدار مع كونه في منامه يرى أنه استيقظ فيعبر رؤياه في منامه لينتبه ويزدجر ويسلك الطريق الأسد.

فإذا استيقظ بالموت حمد رؤياه وفرح بمنامه وأثمرت له رؤياه خيرا.

فلهذه الحقيقة ما ذكر الله في هذه الآية اليقظة وذكر المنام وأضافه إلينا بالليل والنهار.

وكان ابتغاء الفضل فيه في حق من رأى في نومه أنه استيقظ في نومه فيعبر رؤياه وهي حالة الدنيا والله يلهمنا رشد أنفسنا هذا من قوله تعالى: " يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ" فهذا تفصيل آيات المنام بالليل والنهار والابتغاء من الفضل وجعله آيات" لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ" أي يفهمون.

كما قال "ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ" أراد الفهم عن الله.

وقال فيهم"صُمٌّ" مع كونهم يسمعون "بُكْمٌ" مع كونهم يتكلمون "عُمْيٌ " مع كونهم يبصرون فَهُمْ ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾[1]، فنبهتك على ما أراد بالسمع والكلام والبصر هنا.

---

[1]

فهذه الطبقة الركبانية الثانية مأخذهم للأشياء على هذا الحد الذي ذكرناه في هذه الآية وإنما ذكرنا هذا المأخذ لنعرفك بطريقتهم فتتبين لك منزلتهم من غيرهم فلطائفهم بالآيات المنصوبة المعتادة وغير المعتادة قائمة ناظرة إلى نفوس العالم ناظرة إلى الوجوه العرضية التي إليها يتوجهون بسبب أغراضهم ناظرة إلى الحدود الإلهية فيما إليه يتوجهون لا يغفلون عن النظر في ذلك طرفة عين فغفلتهم التي تقتضيها جبلتهم إنما متعلقها منهم عما ضمن لهم فهم متيقظون فيما طلب منهم غافلون عما ضمن لهم حتى لا يخرجون عن حكم الغفلة فإنها من جبلة الإنسان وغير هذه الطائفة صرفتها الغفلة عما يراد منها فإن كان الذي يقع إليه التوجه طاعة نظروا في دقائق تحصيلها ونظروا إلى الأمر الإلهي الذي يناسبها والاسم الإلهي الذي له السلطان عليها فيفصل لهم الأمر الإلهي الآية التي يطلبونها فإن كانت الآية معتادة مثل اختلاف الليل والنهار وتسخير السحاب وغير ذلك من الآيات المعتادة التي لا خبر لنفوس العامة بكونها حتى يفقدوها فإذا فقدوها حينئذ خرجوا للاستسقاء وعرفوا في ذلك الوقت موضع دلالتها وقدرها وإنهم كانوا في آية وهم لا يشعرون فإذا جاءتهم وأمطروا عادوا إلى غفلتهم هذا حال العامة كما قال الله فيهم معجلا في هذه الدار "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ في الْبَرِّ والْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الْمَوْجُ من كُلِّ مَكانٍ وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" ... "فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ وإِذا هُمْ يَبْغُونَ في الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يقول الله لهم يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا وهكذا يقولون في النار يا لَيْتَنا نُرَدُّ قال تعالى ولَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ."

كما عاد أصحاب الفلك إلى شركهم وبغيهم بعد إخلاصهم لله فإذا نظرت هذه الطائفة إلى هذه الآيات أرسلوها مع أمرها الإلهي إلى حيث دعاها وإن كانت الآية غير معتادة نظروا أي اسم إلهي يطلبها فإن طلبها القهار وأخواته فهي آية رهبة وزجر ووعيد أرسلوها على النفوس وإن طلبها أعني تلك الآية الاسم اللطيف وأخواته فهي آية رغبة أرسلوها على الأرواح فأشرق لها نور شعشعاني على النفوس فجنحت بذلك النفوس إلى بارئها فرزقت التوفيق والهداية وأعطيت التلذذ بالأعمال فقامت فيها بنشاط وتعرت فيها من ملابس الكسل

وتبغض إليها معاشرة البطالين وصحبة الغافلين اللاهين عن ذكر الله ويكرهون الملأ والجلوة ويؤثرون الانفراد والخلوة ولهذه الطبقة الثانية حقيقة ليلة القدر وكشفها وسرها ومعناها ولهم فيها حكم إلهي اختصوا به وهي حظهم من الزمان فانظر ما أشرف إذ حباهم الله من الزمان بأشرفه فإنها خير من ألف شهر فيه زمان رمضان ويوم الجمعة ويوم عاشوراء ويوم عرفة وليلة القدر.

فكأنه قال فتضاعف خيرها ثلاثا وثمانين ضعفا وثلث ضعف لأنها ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر وقد تكون الأربعة الأشهر مما يكون فيها ليلة القدر فيكون التضعيف في كل ليلة قدر أربعة وثمانين ضعفا فانظر ما في هذا الزمان من الخير وبأي زمان خصت هذه الطائفة والله يَقُولُ الْحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ انتهى الجزء الثامن عشر والحمد لله.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الباب الثّالث والثّلاثون

في معرفة أقطاب النّيات وأسرارهم وكيفيّة أصولهم ويقال لهم: النّياتيّون

الرّوح للجسم والنيّات للعمل * تحيا بها كحياة الأرض بالمطر
فتبصر الزّهر والأشجار بارزة * وكلّ ما تخرج الأشجار من ثمر
كذاك تخرج من أعمالنا صور * لها روائح من نتن ومن عطر
لولا الشّريعة كان المسك يخجل من * أعرافها هكذا يقضي به نظري
إذا كان مستند التّكوين أجمعه * له فلا فرق بين النّفع والضّرر
فألزم شريعته تنعم بها سورا * تحلّها صور تزهو على سرر
مثل الملوك تراها في أسرتها * أو كالعرائس معشوقين للبصر

روينا من حديث رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: "إنّما الأعمال بالنيّات"، وإنّما لامرئ ما نوى فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعلم أن لمراعاة النيات رجالا على حال مخصوص ونعت خاص أذكرهم إن شاء الله وأذكر أحوالهم والنية لجميع الحركات والسكنات في المكلفين للأعمال كالمطر لما تنبته الأرض فالنية من حيث ذاتها واحدة وتختلف بالمتعلق وهو المنوي فتكون النتيجة بحسب المتعلّق به لا بحسبها فإن حظ النية إنما هو القصد للفعل أو تركه وكون ذلك الفعل حسنا أو قبيحا وخيرا أو شرا ما هو من أثر النية وإنما هو من أمر عارض عرض ميزه الشارع وعينه للمكلف فليس للنية أثر البتة من هذا الوجه خاصة كالماء إنما منزلته أن ينزل أو يسبح في الأرض وكون الأرض الميتة تحيا به أو ينهدم بيت العجوز الفقيرة بنزوله ليس ذلك له فتخرج الزهرة الطيبة الريح والمنتنة والثمرة الطيبة والخبيثة من خبث مزاج البقعة أو

طيبها أو من خبث البزرة أو طيبها قال تعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ثم قال إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون فليس للنية في ذلك إلا الإمداد كما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا يعني المثل المضروب به في القرآن أي بسببه وهو من القرآن فكما كان الماء سببا في ظهور هذه الروائح المختلفة والطعوم المختلفة كذلك هي النيات سبب في الأعمال الصالحة وغير الصالحة ومعلوم أن القرآن مهداة كله ولكن بالتأويل في المثل المضروب ضل من ضل وبه اهتدى من اهتدى فهو من كونه مثلا لم تتغير حقيقته وإنما العيب وقع في عين الفهم كذلك النية أعطت حقيقتها وهو تعلقها بالمنوي وكون ذلك المنوي حسنا أو قبيحا ليس لها وإنما ذلك لصاحب الحكم فيه بالحسن والقبح وقال تعالى إنا هديناه السبيل أي بينا له طريق السعادة والشقاء ثم قال إما شاكرا وإما كفورا هذا راجع للمخاطب المكلف فإن نوى الخير أثمر خيرا وإن نوى الشر أثمر شرا فما أتى عليه إلا من المحل من طيبه أو خبثه يقول الله تعالى وعلى الله قصد السبيل أي هذا أوجبته على نفسي كان الله يقول الذي يلزم جانب الحق منكم أن يبين لكم السبيل الموصل إلى سعادتكم وقد فعلت فإنكم لا تعرفونه إلا بإعلامي لكم به وتبييني وسبب ذلك أنه سبق في العلم إن طريق سعادة العباد إنما هو في سبب خاص وسبب شقائهم أيضا إنما هو في طريق خاص وليس إلا العدول عن طريق السعادة وهو الايمان بالله وبما جاء من عند الله مما ألزمنا فيه الايمان به ولما كان العالم في حال جهل بما في علم الله من تعيين تلك الطريق تعين الإعلام به بصفة الكلام فلا بد من الرسول قال الله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا نوجب على الله إلا ما أوجبه على نفسه وقد أوجب التعريف على نفسه بقوله تعالى وعلى الله قصد السبيل مثل قوله وكان حقا علينا نصر المؤمنين وقوله كتب ربكم على نفسه الرحمة وعلى الحقيقة إنما وجب ذلك على النسبة لا على نفسه فإنه يتعالى أن يجب عليه من أجل حد الواجب الشرعي فكأنه لما تعلق العلم الإلهي أزلا بتعيين الطريق التي فيها سعادتنا ولم يكن للعلم بما هو علم صورة التبليغ وكان التبليغ من صفة الكلام تعين التبليغ على نسبة كونه متكلما بتعريف الطريق التي فيها سعادة العباد التي عينها العلم فأبان الكلام الإلهي بترجمته عن العلم ما عينه من ذلك فكان الوجوب على النسبة فإنها نسب مختلفة وكذلك سائر النسب الإلهية من إرادة وقدرة وغير ذلك وقد بينا محاضرة الأسماء الإلهية ومحاورتها ومجاراتها في حلبة المناظرة على إيجاد هذا العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله في كتاب عنقاء مغرب بوبنا عليه محاضرة

أزلية على نشأة أبدية وكذلك في كتاب إنشاء الجداول والدوائر لنا فقد علمت كيف تعلق الوجوب الإلهي على الحضرة الإلهية إن كنت فطنا لعلم النسب وعلى هذا يخرج قوله تعالى يوم نحشر المتقين إلى الرحمن ووفدا وكيف يحشر إليه من هو جليسه وفي قبضته سمع أبو يزيد البسطامي قارئا يقرأ هذه الآية يوم نحشر المتقين إلى الرحمن ووفدا فبكى حتى ضرب الدمع المنبر بل روى أنه طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وصاح وقال يا عجبا كيف يحشر إليه من هو جليسه فلما جاء زماننا سألنا عن ذلك فقلت ليس العجب إلا من قول أبي يزيد فاعلموا إنما كان ذلك لأن المتقي جليس الجبار فيتقي سطوته والاسم الرحمن ما له سطوة من كونه الرحمن إنما الرحمن يعطي اللين واللطف والعفو والمغفرة فلذلك يحشر إليه من الاسم الجبار الذي يعطي السطوة والهيبة فإنه جليس المتقين في الدنيا من كونهم متقين وعلى هذا الأسلوب تأخذ الأسماء الإلهية كلها وكذا تجدها حيث وردت في ألسنة النبوات إذا قصدت حقيقة الاسم وتميزه من غيره فإن له دلالتين دلالة على المسمى به ودلالة على حقيقته التي بها يتميز عن اسم آخر فافهم واعلم أن هؤلاء الرجال إنما كان سبب اشتغالهم بمعرفة النية كونهم نظروا إلى الكلمة وفيها فعلموا أنها ما ألفت حروفها وجمعت إلا لظهور نشأة قائمة تدل على المعنى الذي جمعت له في الاصطلاح فإذا تلفظ بها المتكلم فإن السامع يكون همه في فهم المعنى الذي جاءت له فإن بذلك تقع الفائدة ولهذا وجدت في ذلك اللسان على هذا الوضع الخاص ولهذا لا يقول هؤلاء الرجال بالسماع المقيد بالنغمات لعلو همتهم ويقولون بالسماع المطلق فإن السماع المطلق لا يؤثر فيهم إلا فهم المعاني وهو السماع الروحاني الإلهي وهو سماع الأكابر والسماع المقيد إنما يؤثر في أصحابه النغم وهو السماع الطبيعي فإذا ادعى من ادعى أنه يسمع في السماع المقيد بالألحان المعنى ويقول لولا المعنى ما تحركت ويدعي أنه قد خرج عن حكم الطبيعة في ذلك يعني في السبب المحرك فهو غير صادق وقد رأينا من ادعى ذلك من المتشيخين المتطفلين على الطريقة فصاحب هذه الدعوى إذا لم يكن صادقا يكون سريع الفضيحة وذلك أن هذا المدعي إذا حضر مجلس السماع فاجعل بالك منه فإذا أخذ القوال في القول بتلك النغمات المحركة بالطبع للمزاج القابل أيضا وسرت الأحوال أالنفوس الحيوانية فحركت الهياكل حركة دورية لحكم استدارة الفلك وهو أعني الدور مما يدلك على إن السماع طبيعي لأن اللطيفة الإنسانية ما هي عن الفلك وإنما هي عن الروح المنفوخ منه وهي غير متحيزة فهي فوق الفلك فما لها في الجسم تحريك دوري

ولا غير دوري وإنما ذلك للروح الحيواني الذي هو تحت الطبيعة والفلك فلا تكن جاهلا بنشأتك ولا بمن يحركك فإذا تحرك هذا المدعي وأخذه الحال ودار أو قفز إلى جهة فوق من غير دور وقد غاب عن إحساسه بنفسه وبالمجلس الذي هو فيه فإذا فرغ من حاله ورجع إلى إحساسه فاسأله ما الذي حركه فيقول إن القوال قال كذا وكذا ففهمت منه معنى كذا وكذا فذلك المعنى حركني فقل له ما حركك سوى حسن النغمة والفهم إنما وقع لك في حكم التبعية فالطبع حكم على حيوانيتك فلا فرق بينك وبين الجمل في تأثير النغمة فيك فيعز عليه مثل هذا الكلام ويثقل ويقول لك ما عرفتني وما عرفت ما حركني فاسكت عنه ساعة فإن صاحب هذه الدعوى تكون الغفلة مستولية عليه ثم خذ معه في الكلام الذي يعطي ذلك المعنى فقل له ما أحسن قول الله تعالى حيث يقول واتل عليه آية من كتاب الله تتضمن ذلك المعنى الذي كان حركه من صوت المغني وحققه عنده حتى يتحققه فيأخذ معك فيه ويتكلم ولا يأخذه لذلك حال ولا حركة ولا فناء ولكن يستحسنه ويقول لقد تتضمن هذه الآية معنى جليلا من المعرفة بالله فما أشد فضيحته في دعواه فقل له يا أخي هذا المعنى بعينه هو الذي ذكرت لي أنه حركك في السماع البارحة لما جاء به القوال في شعره بنغمته الطيبة فلأي معنى سرى فيك الحال البارحة وهذا المعنى موجود فيما قد صغته لك وسقته بكلام الحق تعالى الذي هو أعلى وأصدق وما رأيتك تهتز مع الاستحسان وحصول الفهم وكنت البارحة يتخبطك الشيطان من المس كما قال الله تعالى وحجبك عن عين الفهم السماع الطبيعي فما حصل لك في سماعك إلا الجهل بك فمن لا يفرق بين فهمه وحركته كيف يرجى فلاحه فالسماع من عين الفهم هو السماع الإلهي وإذا ورد على صاحبه وكان قويا لما يرد به من الإجمال فغاية فعله في الجسم أن يضجعه لا غير ويغيبه عن إحساسه ولا يصدر منه حركة أصلا بوجه من الوجوه سواء كان من الرجال الأكابر أو الصغار هذا حكم الوارد الإلهي القوي وهو الفارق بينه وبين حكم الوارد الطبيعي فإن الوارد الطبيعي كما قلنا يحركه الحركة الدورية والهيمان والتخبط فعل المجنون وإنما يضجعه الوارد الإلهي لسبب أذكره لك وذلك أن نشأة الإنسان مخلوقة من تراب قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم وإن كان فيه من جميع العناصر ولكن العنصر الأعظم التراب قال عز وجل فيه أيضا إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب والإنسان في قعوده وقيامه بعد عن أصله الأعظم الذي منه نشأ من أكثر جهاته فإن قعوده وقيامه وركوعه فروع فإذا جاءه الوارد الإلهي وللوارد الإلهي صفة القيومية وهي في الإنسان

من حيث جسميته بحكم العرض وروحه المدبر هو الذي كان يقيمه ويقعده فإذا اشتغل الروح الإنساني المدبر عن تدبيره بما يتلقاه من الوارد الإلهي من العلوم الإلهية لم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض المعبر عنه بالاضطجاع ولو كان على سرير فإن السرير هو المانع له من وصوله إلى التراب فإذا فرغ روحه من ذلك التلقي وصدر الوارد إلى ربه رجع الروح إلى تدبير جسده فأقامه من ضجعته هذا سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحي عليهم وما سمع قط عن نبي أنه تخبط عند نزول الوحي هذا مع وجود الواسطة في الوحي وهو الملك فكيف إذا كان الوارد برفع الوسائط لا يصح أن يكون منه قط غيبة عن إحساسه ولا يتغير عن حاله الذي هو عليه فإن الوارد الإلهي برفع الوسائط الروحانية يسرى في كلية الإنسان ويأخذ كل عضو بل كل جوهر فرد فيه حظه من ذلك الوارد الإلهي من لطيف وكثيف ولا يشعر بذلك جليسه ولا يتغير عليه من حاله الذي هو عليه من جليسه شيء إن كان يأكل بقي على أكله في حاله أو شربه أو حديثه الذي هو في حديثه فإن ذلك الوارد يعم وهو قوله تعالى وهو معكم أينما كنتم فمن كانت أينيته في ذلك الوقت حالة الأكل أو الشرب أو الحديث أو اللعب أو ما كان بقي على حاله فلما رأت هذه الطائفة الجليلة هذا الفرق بين الواردات الطبيعية والروحانية والإلهية ورأت أن الالتباس قد طرأ على من يزعم أنه في نفسه من رجال الله تعالى أنفوا أن يتصفوا بالجهل والتخليط فإنه محل الوجود الطبيعي فارتقت همتهم إلى الاشتغال بالنيات إذ كان الله قد قال لهم وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له والإخلاص النية ولهذا قيدها بقوله له ولم يقل مخلصين وهو من الاستخلاص فإن الإنسان قد يخلص نيته للشيطان ويسمى مخلصا فلا يكون في عمله لله شيء وقد يخلص للشركة وقد يخلص لله فلهذا قال تعالى مخلصين له الدين لا لغيره ولا لحكم الشركة فشغلوا نفوسهم بالأصل في قبول الأعمال ونيل السعادات وموافقة الطلب الإلهي منهم فيما كلفهم به من الأعمال الخالصة له وهو المعبر عنه بالنية فنسبوا إليها لغلبة شغلهم بها وتحققوا إن الأعمال ليست مطلوبة لأنفسها وإنما هي من حيث ما قصد بها وهو النية في العمل كالمعنى في الكلمة فإن الكلمة ما هي مطلوبة لنفسها وإنما هي لما تضمنته فانظر يا أخي ما أدق نظر هؤلاء الرجال وهذا هو المعبر عنه في الطريق بمحاسبة النفس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ولقيت من هؤلاء الرجال اثنين أبو عبد الله بن المجاهد وأبو عبد الله بن قسوم بإشبيلية كان هذا مقامهم وكانوا من أقطاب الرجال النياتيين

ولما شرعنا في هذا المقام تأسيا بهما وبأصحابهما وامتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب امتثاله في أمره حاسبوا أنفسكم وكان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيدونه في دفتر فإذا كان بعد صلاة العشاء وخلوا في بيوتهم حاسبوا أنفسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم في يومهم من قول وعمل وقابلوا كل عمل بما يستحقه إن استحق استغفارا استغفروا وإن استحق توبة تابوا وإن استحق شكرا شكروا إلى أن يفرغ ما كان منهم في ذلك اليوم وبعد ذلك ينامون فزدنا عليهم في هذا الباب بتقييد الخواطر فكنا نقيد ما تحدثنا به نفوسنا وما تهم به زائدا على كلامنا وأفعالنا وكنت أحاسب نفسي مثلهم في ذلك الوقت وأحضر الدفتر وأطالبها بجميع ما خطر لها وما حدثت به نفسها وما ظهر للحس من ذلك من قول وعمل وما نوته في ذلك الخاطر والحديث فقلت الخواطر والفضول إلا فيما يعني فهذا فائدة هذا الباب وفائدة الاشتغال بالنية وما في الطريق ما يغفل عنه أكثر من هذا الباب فإن ذلك راجع إلى مراعاة الأنفاس وهي عزيزة وبعد أن عرفتك بأصول هذه الطائفة وما هو سبب شغلهم بذلك وأنه لهم أمر شرعي وما لهم في ذلك من الأسرار والعلوم فاعلم أيضا مقامهم في ذلك وما لهم فهذه الطائفة على قلب يونس عليه السلام فإنه لما ذهب مغاضبا وظن أن الله لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمة الله فيه وما نظر ذلك الاتساع الإلهي الرحماني في حق غيره فتناله أمته واقتصر به على نفسه والغضب ظلمة القلب فأثرت لعلو منصبه في ظاهره فاسكن في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله لينبهه الله على حالته حين كان جنينا في بطن أمه من كان يدبره فيه وهل كان في ذلك الموطن يتصور منه أن يغاضب أو يغاضب بل كان في كنف الله لا يعرف سوى ربه فرده إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليما له بالفعل لا بالقول فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت عذرا عن أمته في هذا التوحيد أي تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على من تشاء سبحانك إني كنت من الظالمين مشتق من الظلمة أي ظلمتي عادت على ما أنت ظلمتني بل ما كان في باطني سرى إلى ظاهري وانتقل النور إلى باطني فاستنار فأزال ظلمة المغاضبة وانتشر فيه نور التوحيد وانبسطت الرحمة فسرى ذلك النور في ظاهره مثل ما سرت ظلمة الغضب فاستجاب له ربه فنجاه من الغم فقذفه الحوت من بطنه مولودا على الفطرة السليمة فلم يولد أحد من ولد آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام فخرج ضعيفا كالطفل كما قال وهو سقيم ورباه باليقطين فإن ورقه ناعم ولا ينزل عليه ذباب فإن الطفل لضعفه لا يستطيع أن يزيل الذباب عن نفسه فغطاه بشجرة خاصيتها

أن لا يقربها ذباب مع نعمة ورقها فإن ورق اليقطين مثل القطن في النعمة بخلاف سائر ورق الأشجار كلها فإن فيها خشونة وأنشأه الله عز وجل نشأة أخرى ولما رأت هذه الطائفة أن يونس عليه السلام ما أتى عليه إلا من باطنه من الصفة التي قامت به ومن قصده شغلوا نفوسهم بتمحيص النيات والقصد في حركاتهم كلها حتى لا ينوون إلا ما أمرهم الله به أن ينووه ويقصدوه وهذا غاية ما يقدر عليه رجال الله وهذه الطائفة في الرجال قليلون فإنه مقام ضيق جدا يحتاج صاحبه إلى حضور دائم وأكبر من كان فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه في حرب اليمامة فما هو إلا أن رأيت أن الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق لمعرفة عمر باشتغال أبي بكر بباطنه فإذا صدرت منه حركة في ظاهره فما تصدر إلا من إل وهو عزيز ولهذا كان من يفهم المقامات من المتقدمين من أهل الكتاب إذا سمعوا أو يقال لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا يقولون هذا كلام ما خرج إلا من إل أي هو كلام إلهي ما هو كلام مخلوق فانظر ما أحسن العلم وفي أي مقام ثبتت هذه الطائفة وبأي قائمة استمسكت جعلنا الله منهم فجل أعمالهم في الباطن مساكن السائحين منهم الغيران والكهوف وفي الأمصار ما بناه غيرهم من عباد الله تعالى لا يضعون لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن انتقل إلى ربه ما بنى قط مسكنا لنفسه وسبب ذلك أنهم رأوا الدنيا جسرا منصوبا من خشب على نهر عظيم وهم عابرون فيه راحلون عنه فهل رأيتم أحدا بنى منزلا على جسر خشب لا والله ولا سيما وقد عرف أن الأمطار تنزل وأن النهر يعظم بالسيول التي تأتي وأن الجسور تنقطع فكل من بنى على جسر فإنما يعرض به للتلف فلو أن عمار الدنيا يكشف الله عن بصيرتهم حتى يروها جسرا ويروا النهر الذي بنيت عليه أنه خطر قوي ما بنوا الذي بنوا عليه من القصور المشيدة فلم يكن لهم عيون يبصرون بها إن الدنيا قنطرة خشب على نهر عظيم خرار ولا كان لهم سمع يسمعون به قول الرسول العالم بما أوحى الله إليه به إن الدنيا قنطرة فلا بالإيمان عملوا ولا على الرؤية والكشف حصلوا فهم كما قال الله فيهم وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم في حال سماعهم من الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال لهم إن الدنيا قنطرة وأشباه ذلك فلا تشغلوا نفوسكم بعمارتها وانهضوا فما فرغ من قوله صلى الله عليه وسلم حتى رجع كثير منهم إلى عماهم وصممهم مع كونهم مسلمين مؤمنين فأخبر الله تعالى نبيه بقوله ثم عموا وصموا كثير منهم بعد التوبة يقول ما نفع القول

فيهم يا ولي لو فرضنا إن الدنيا باقية ألسنا نبصر رحلتنا عنها جيلا بعد جيل فمن أحوال هذه الطائفة مراعاتهم لقلوبهم وأسرارهم متعلقة بالله من حيث معرفة نفوسهم ولا اجتماع لهم بالنهار مع الغافلين بل حركتهم ليلية ونظرهم في الغيب الغالب عليهم مقام الحزن فإن الحزن إذا فقد من القلب خرب فالعارف يأكل الحلوى والعسل والمحقق الكبير يأكل الحنظل فهو كثير التنغيص لا يلتذ بنعمة أبدا ما دام في هذه الدار لشغله بما كلفه الله من الشكر عليها لقيت منهم بدنيسر عمر الفرقوي وبمدينة فاس عبد الله السماد والعارفون بالنظر إلى هؤلاء كالأطفال الذين لا عقول لهم يفرحون ويلتذون بخشخاشة فما ظنك بالمريدين فما ظنك بالعامة لهم القدم الراسخة في التوحيد ولهم المشافهة في الفهوانية يقدمون النفي على الإثبات لأن التنزيه شأنهم كلفظة لا إله إلا الله وهي أفضل كلمة جاءت بها الرسل والأنبياء توحيدهم كوني عقلي ليسوا من اللهو في شيء لهم الحضور التام على الدوام وفي جميع الأفعال اختصوا بعلم الحياة والأحياء لهم اليد البيضاء فيعلمون من الحيوان ما لا يعلمه سواهم ولا سيما من كل حيوان يمشي على بطنه لقربه من أصله الذي عنه تكون فإن كل حيوان يبعد عن أصله ينقص من معرفته بأصله على قدر ما بعد منه ألا ترى المريض الذي لا يقدر على القيام والقعود ويبقى طريحا لضعفه وهو رجوعه إلى أصله تراه فقيرا إلى ربه مسكينا ظاهر الضعف والحاجة بلسان الحال والمقال وذلك أن أصله حكم عليه لما قرب منه يقول الله خلقكم من ضعف وقال خلق الإنسان ضعيفا فإذا استوى قائما وبعد عن أصله تفرعن وتجبر وادعى القوة وقال أنا فالرجل من كان مع الله في حال قيامه وصحته كحاله في اضطجاعه من المرض والضعف وهو عزيز لهم البحث الشديد في النظر في أفعالهم وأفعال غيرهم معهم من أجل النيات التي بها يتوجهون وإليها ينسبون لشدة بحثهم عنها حتى تخلص لهم الأعمال ويخلصوها من غيرهم ولهذا قيل فيهم النياتيون كما قيل الملامية والصوفية لأحوال خاصة هم عليها فلهم معرفة الهاجس والهمة والعزم والإرادة والقصد وهذه كلها أحوال مقدمة للنية والنية هي التي تكون منه عند مباشرة أفعاله وهي المعتبرة في الشرع الإلهي ففيها يبحثون وهي متعلق الإخلاص وكان عالمنا الإمام سهل بن عبد الله يدقق في هذا الشأن وهو الذي نبه على نقر الخاطر ويقول إن النية هو ذلك الهاجس وأنه السبب الأول في حدوث الهم والعزم والإرادة والقصد فكان يعتمد عليه وهو الصحيح عندنا والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرّابع والثّلاثون

في معرفة شخص تحقّق في منزل الأنفاس
فعاين منها أمورًا أذكرها إن شاء الله

إن المحقّق بالأنفاس رحمان * فالعرش في حقه إن كان إنسان
وإن توجه نحو العين يطلبها * له العماء وإحسان فإحسان
مقامه باطن الأعراف يسكنه * يزوره فيه أنصار وأعوان
له من الليل إن حققت آخره * كما له من وجود العين إنسان
إن لاح ظاهره تقول قرآن * أو لاح باطنه تقول فرقان
قد جمع الله فيه كل منقبة * فهو الكمال الذي ما فيه نقصان

اعلم أيدك الله بروح القدس أنّ المعلومات مختلفة لأنفسها وأن الإدراكات التي تدرك بها المعلومات مختلفة أيضا لأنفسها كالمعلومات ولكن من حيث أنفسها وذواتها لا من حيث كونها إدراكات وإن كانت مسألة خلاف عند أرباب النظر وقد جعل الله لكل حقيقة مما يجوز أن يعلم إدراكا خاصا عادة لا حقيقة أعني محلها وجعل المدرك بهذه الإدراكات لهذه المدركات عينا واحدة وهي ستة أشياء سمع وبصر وشم ولمس وطعم وعقل وإدراك جميعها للأشياء ما عدا العقل ضروري ولكن الأشياء التي ارتبطت بها عادة لا تخطئ أبدا وقد غلط في هذا جماعة من العقلاء ونسبوا الغلط للحس وليس كذلك وإنما الغلط للحاكم وأما إدراك العقل المعقولات فهو على قسمين منه ضروري مثل سائر الإدراكات ومنه ما ليس بضروري بل يفتقر في علمه إلى أدوات ست منها الحواس الخمس التي ذكرناها ومنها القوة المفكرة ولا يخلو معلوم يصح أن يعلمه مخلوق أن يكون مدركا بأحد هذه الإدراكات وإنما قلنا إن جماعة غلطت في إدراك الحواس فنسبت إليها الأغاليط وذلك أنهم رأوا إذا كانوا في سفينة تجري بهم مع الساحل رأوا الساحل يجري بجري السفينة فقد أعطاهم البصر ما ليس بحقيقة ولا معلوم أصلا فإنهم عالمون علما ضروريا أن الساحل لم يتحرك من مكانه ولا يقدرون على إنكار ما شاهدوه من التحرك وكذلك إذا

طعموا سكرا أو عسلا فوجدوه مرا وهو حلو فعلموا ضرورة أن حاسة الطعم غلطت عندهم ونقلت ما ليس بصحيح والأمر عندنا ليس كذلك ولكن القصور والغلط وقع من الحاكم الذي هو العقل لا من الحواس فإن الحواس إدراكها لما تعطيه حقيقتها ضروري كما إن العقل فيما يدركه بالضرورة لا يخطئ وفيما يدركه بالحواس أو بالفكر قد يغلط فما غلط حس قط ولا ما هو إدراكه ضروري فلا شك أن الحس رأى تحركا بلا شك ووجد طعما مرا بلا شك فأدرك البصر التحرك بذاته وأدرك الطعم قوة المرارة بذاته وجاء عقل فحكم إن الساحل متحرك وأن السكر مر وجاء عقل آخر وقال إن الخلط الصفراوي قام بمحل الطعم فأدرك المرارة وحال ذلك الخلط بين قوة الطعم وبين السكر فاذن فما ذاق الطعم إلا مرارة الصفراء فقد أجمع العقلان من الشخصين على أنه أدرك المرارة بلا شك واختلف العقلان فيما هو المدرك للطعم فبان إن العقل غلط لا الحس فلا ينسب الغلط أبدا في الحقيقة إلا للحاكم لا للشاهد وعندي في هذه المسألة أمر آخر يخالف ما ادعوه وهو أن الحلاوة التي في الحلو وغير ذلك من المطعومات ليس هو في المطعوم لأمر إذا بحثت عليه وجدت صحة ما ذهبنا إليه وكذا الحكم في سائر الإدراكات ولو كان في العادة فوق العقل مدرك آخر يحكم على العقل ويأخذ عنه كما يحكم العقل على الحس لغلط أيضا ذلك المدرك الحاكم فيما هو للعقل ضروري وكان يقول إن العقل غلط فيما هو له ضروري فإذا تقرر هذا وعرفت كيف رتب الله المدركات والإدراكات وأن ذلك الارتباط أمر عادي فاعلم إن لله عبادا آخرين خرق لهم العادة في إدراكهم العلوم فمنهم من جعل له إدراك ما يدرك بجميع القوي من المعقولات والمحسوسات بقوة البصر خاصة وآخر بقوة السمع وهكذا بجميع القوي ثم بأمور عرضية خلاف القوي من ضرب وحركة وسكون وغير ذلك قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إن الله ضرب بيده بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي فعلمت علم الأولين والآخرين فدخل في هذا العلم كل معلوم معقول ومحسوس مما يدركه المخلوق.

فهذا علم حاصل لا عن قوة من القوي الحسية والمعنوية فلهذا قلنا إن ثم سببا آخر خلاف هذه القوي تدرك به المعلومات.

وإنما قلنا قد تدرك العلوم بغير قواها المعتادة فحكمنا على هذه الإدراكات لمدركاتها المعتادة بالعادة من أجل المتفرس فينظر صاحب الفراسة في الشخص فيعلم ما يكون منه أو ما خطر له في باطنه أو ما فعل وكذلك الزاجر وأشباهه وإنما جئنا بهذا كله تأنيسا لما

نريد أن ننسبه إلى أهل الله من الأنبياء والأولياء فيما يدركونه من العلوم على غير الطرق المعتادة فإذا أدركوها نسبوا إلى تلك الصفة التي أدركوا بها المعلومات فيقولون فلان صاحب نظر أي بالنظر يدرك جميع المعلومات وهذا ذقته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفلان صاحب سمع وفلان صاحب طعم وصاحب نفس وأنفاس يعني الشم وصاحب لمس وفلان صاحب معنى وهذا خارج عن هؤلاء بل هو كما يقال في العامة صاحب فكر صحيح فمن الناس من أعطى النظر إلى آخر القوي على قدر ما أعطى وهو له عادة إذا استمر ذلك عليه لأنه مشتق من العود أي يعود ذلك عليه في كل نظرة أو في كل شم ما ثم غير ذلك وكذلك أيضا لتعلم إن الأسماء الإلهية مثل هذا وأن كل اسم يعطي حقيقة خاصة ففي قوته أن يعطي كل واحد من الأسماء الإلهية ما تعطيه جميع الأسماء قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى وكذلك لو ذكر كل اسم لقال فيه إن له الأسماء الحسنى وذلك لاحدية المسمى فاعلم ذلك فمن الناس من يختص به الاسم الله فتكون معارفه إلهية ومنهم من يختص به الاسم الرحمن فتكون معارفه رحمانية كما كانت في القوي الكونية يقال فيها معارف هذا الشخص نظرية وفي حق آخر سمعية فهو من عالم النظر وعالم السمع وعالم الأنفاس هكذا تنسب معارفه في الإلهيات إلى الاسم الإلهي الذي فتح له فيه فتندرج فيه حقائق الأسماء كلها فإذا علمت هذا أيضا فاعلم إن الذي يختص بهذا الباب من الأسماء الإلهية لهذا الشخص المعين الاسم الرحمن والذي يختص به من القوي فينسب إليها قوة الشم ومتعلقها الروائح وهي الأنفاس فهو من عالم الأنفاس في نسبة القوي ومن الرحمانيين في مراتب الأسماء فنقول إن هذا الشخص المعين في هذا الباب سواء كان زيدا أو عمرا معرفته رحمانية فكل أمر ينسب إلى الاسم الرحمن في كتاب أو سنة فإنه ينسب إلى هذا الشخص فإن هذا الاسم هو الممد له وليس لاسم إلهي عليه حكم إلا بوساطة هذا الاسم على أي وجه كان ولهذا نقول إن الله سبحانه قد أبطن في مواضع رحمته في عذابه ونقمته كالمريض الذي جعل في عذابه بالمرض رحمته به فيما يكفر عنه من الذنوب فهذه رحمة في نقمة وكذلك من انتقم منه في إقامة الحد من قتل أو ضرب فهو عذاب حاضر فيه رحمة باطنة بها ارتفعت عنه المطالبة في الدار الآخرة كما أنه في نعمته في الدنيا من الاسم المنعم أبطن نقمته فهو ينعم الآن بما به يتعذب لبطون العذاب فيه في الدار الآخرة أو في زمان التوبة فإن الإنسان إذا ناب ونظر وفكر فيما تلذذ به من المحرمات تعود تلك الصور المستحضرة عليه عذابا وكان قبل التوبة حين

يستحضرها في ذهنه يلتذ بها غاية اللذة فسبحان من أبطن رحمته في عذابه وعذابه في رحمته ونعمته في نقمته ونقمته في نعمته فالمبطون أبدا هو روح العين الظاهرة أي شئ كان فهذا الشخص لما كانت معرفته رحمانية وكان الاسم الرحمن استوى على العرش فقال تعالى الرحمن على العرش استوى كانت همة هذا الشخص عرشية فكما كان العرش للرحمن كانت الهمة لهذه المعرفة محلا لاستوائها فقيل همته عرشية ومقام هذا الشخص باطن الأعراف وهو السور الذي بين أهل السعادة والشقاوة للأعراف رجال سيذكرون وهم الذين لم تقيدهم صفة كأبي يزيد وغيره وإنما كان مقامه باطن الأعراف لأن معرفته رحمانية وهمته عرشية فإن العرش مستوي الرحمن كذلك باطن الأعراف فيه الرحمة كما إن ظاهره فيه العذاب فهذا الشخص له رحمة بالموجودات كلها بالعصاة والكفار وغيرهم قال تعالى لسيد هذا المقام وهو محمد صلى الله عليه وسلم حين دعا على رعل وذكوان وعصية بالعذاب والانتقام فقال عليك بفلان وفلان وذكر ما كان منهم قال الله له إن الله ما بعثك سبابا ولا لعانا ولكن بعثك رحمة فنهى عن الدعاء عليهم وسبهم وما يكرهون وأنزل الله عز وجل عليه وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين فعم العالم أي لترحمهم وتدعوني لهم لا عليهم فيكون عوض قوله لعنهم الله تاب الله عليهم وهداهم كما قال حين جرحوه اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون يريد من كذبه من غير أهل الكتاب والمقلدة من أهل الكتاب لا غيرهم فلهذا قلنا في حق هذا الشخص صاحب هذا المقام إنه رحيم بالعصاة والكفار فإذا كان حاكما هذا الشخص وأقام الحد أو كان ممن تتعين عليه شهادة في إقامة حد فشهد به أو أقامه فلا يقيمه إلا من باب الرحمة ومن الاسم الرحمن في حق المحدود والمشهود عليه لا من باب الانتقام وطلب التشفي لا يقتضيه مقام هذا الاسم فلا يعطيه حاله هذا الشخص قال تعالى في قصة إبراهيم إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ومن كان هذا مقامه ومعرفته وهذا الاسم الرحمن ينظر إليه فيعاين من الأسرار ذوقا ما بين نسبة الاستواء إلى العرش وما بين نسبة الأين إلى العماء هل هما على حد واحد أو يختلف ويعلم ما للحق من نعوت الجلال واللطف معا بين العماء والاستواء إذ قد كان في العماء ولا عرش فيوصف بالاستواء عليه ثم خلق العرش واستوى عليه بالاسم الرحمن وللعرش حد يتميز به من العماء الذي هو الاسم الرب وللعماء حد يتميز به عن العرش ولا بد من انتقال من صفة إلى صفة فما كان نعته تعالى بين العماء والعرش أو بأي نسبة ظهر بينهما إذ قد تميز كل واحد منهما عن صاحبه بحده وحقيقته كما يتميز العماء الذي فوقه الهواء وتحته الهواء وهو السحاب

الرقيق الذي يحمله الهواء الذي تحته وفوقه عن العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء فهو عماء غير محمول فيعلم السامع أن العماء الذي جعل للرب أينية أنه عماء غير محمول ثم جاء قوله تعالى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام فهل هذا الغمام هو راجع إلى ذلك العماء فيكون العماء حاملا للعرش ويكون العرش مستوي الرحمن فتجمع القيامة بين العماء والعرش أو هو هذا المقام المقصود الذي فوقه هواء وتحته هواء فصاحب هذا المقام يعطي علم ذلك كله ثم إن صاحب هذا المقام يعطي أيضا من العلوم الإلهية من هذا النوع بالاسم الرحمن نزول الرب إلى سماء الدنيا من العرش يكون هذا النزول أو من العماء فإن العماء إنما ورد حين وقع السؤال عن الاسم الرب فقيل له أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه فقال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء فاسم كان المضمر هو ربنا وقال ينزل ربنا إلى السماء فيدلك هذا على إن نزوله إلى السماء الدنيا من ذلك العماء كما كان استواءه على العرش من ذلك العماء فنسبته إلى السماء الدنيا كنسبته إلى العرش لا فرق فما فارق العرش في نزوله إلى السماء الدنيا ولا فارق العماء في نزوله إلى العرش ولا إلى السماء الدنيا ولما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يقول في هذا النزول إلى السماء الدنيا هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فاغفر له هل من سائل فأعطيه هل من داع فأجيبه فهذا كله من باب رحمته ولطفه وهذا حقيقة الاسم الرحمن الذي استوى على العرش فنزلت هذه الصفة مع الاسم الرب إلى السماء الدنيا فهو ما أعلمناك به إن كل اسم إلهي يتضمن حكم جميع الأسماء الإلهية من حيث إن المسمى واحد فيعلم صاحب هذا المقام من هذا النزول الرباني السماوي ما يختص بالاسم الرحمن منه الذي قال به هل من تائب هل من مستغفر فإن الرحمن يطلب هذا القول بلا شك فهذا حظ ما يعلم صاحب هذا المقام من هذا النزول بلا واسطة ويعلم نزول الرب من العماء إلى السماء بوساطة الاسم الرحمن لأنه ليس للاسم الرب على صاحب هذا المقام سلطان فإنه كما قلنا الاسم الرحمن فلا يعلم من الاسم الرب ولا غيره أمرا إلا بالاسم الرحمن فيعلم عند ذلك بإعلام الرحمن إياه ما أراد الحق بنزوله من العماء إلى السماء على هذا الوجه هي معرفته ثم مما يختص بعلمه صاحب هذا المقام بوساطة الاسم الرحمن علم قول الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن فأتى بياء الإضافة في السعة والعبودية فلم يأخذ من الله إلا قدر ما تعطيه الياء خاصة ويتضمن هذا علمين علما بما فيه من العناية بعبده المؤمن فيأخذه من الاسم الرحمن بذاته وعلما بما فيه من سر الإضافة

بحرف الياء فيأخذه من الله بترجمة الاسم الرحمن فيعلم إن للسعة هنا المراد بها الصورة التي خلق الإنسان عليها كأنه يقول ما ظهرت أسمائي كلها إلا في النشأة الإنسانية قال تعالى وعلم آدم الأسماء كلها أي الأسماء الإلهية التي وجدت عنها الأكوان كلها ولم تعطها الملائكة وقال صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم على صورته وإن كان الضمير عندنا متوجها أن يعود على آدم فيكون فيه رد على بعض النظار من أهل الأفكار ويتوجه أن يعود على الله لتخلقه بجميع الأسماء الإلهية فعلمت إن هذه السعة إنما قبلها العبد المؤمن لكونه على الصورة كما قبلت المرآة صورة الرائي دون غيرها مما لا صقالة فيه ولا صفاء ولم يكن هذا للسماء لكونها شفافة ولا للأرض لكونها غير مصقولة فدل على إن خلق الإنسان وإن كان عن حركات فلكية هي أبوه وعن عناصر قابلة وهي أمه فإن له من جانب الحق أمرا ما هو في آبائه ولا في أمهاته من ذلك الأمر وسع جلال الله تعالى إذ لو كان ذلك من قبل أبيه الذي هو السماء أو أمه التي هي الأرض أو منهما لكان السماء والأرض أولى بأن يسعا الحق ممن تولد عنهما ولا سيما والله تعالى يقول الخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون يريد في المعنى لا في الجرمية ومع هذا فاختص الإنسان بأمر أعطاه هذه السعة التي ضاق عنها السماء والأرض فلم تكن له هذه السعة إلا من حيث أمر آخر من الله فضل به على السماء والأرض فكل واحد من العالم فاضل مفضول فقد فضل كل واحد من العالم من فضله لحكمة الافتقار والنقص الذي هو عليه كل ما سوى الله فإن الإنسان إذا زها بهذه السعة وافتخر على الأرض والسماء جاءه قوله تعالى لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس وإذا زهت السماء والأرض بهذه الآية على الإنسان جاء قوله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي فأزال عنه هذا العلم ذلك الزهو والفخر وعنهما وافتقر الكل إلى ربه وانحجب عن زهوه ونفسه وقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون يدل على إن بعض الناس يعلم ذلك وعلم هذا من علمه منا من الاسم الرحمن الذي هو له وبه تحقق فسل به خبيرا فرحمه عند ما زها بعلم ما فضل به على السماء والأرض وعلم من ذلك أنه ما حصل له من الاسم الرحمن إلا قدر ما كشف له مما فيه دواؤه فإن ذلك الأمر الذي به فضل السماء والأرض هذا العبد هو أيضا من الاسم الرحمن ما جاد به على هذا العبد ولا تقول إن هذا طعن في كونه نسخة من العالم بل هو على الحقيقة نسخة جامعة باعتبار إن فيه شيئا من السماء بوجه ما ومن الأرض بوجه ما ومن كل شئ بوجه ما لا من جميع الوجوه فإن الإنسان على الحقيقة من جملة المخلوقات

لا يقال فيه إنه سماء ولا أرض ولا عرش ولكن يقال فيه إنه يشبه السماء من وجه كذا والأرض من وجه كذا والعرش من وجه كذا وعنصر النار من وجه كذا وركن الهواء من وجه كذا والماء والأرض وكل شئ في العالم فبهذا الاعتبار يكون نسخة وله اسم الإنسان كما للسماء اسم السماء ومن علوم صاحب هذا المقام نزول القرآن فرقانا لا قرآنا فإذا علمه قرآنا فليس من الاسم الرحمن وإنما الاسم الرحمن ترجم له عن اسم آخر إلهي يتضمنه الاسم الرحمن وأنه نزل في ليلة مباركة وهي ليلة القدر فعرف بنزوله مقادير الأشياء وأوزانها وعرف بقدره منها كما نزل الرب تعالى في الثلث الباقي من الليل فالليل محل النزول الزماني للحق وصفته التي هي القرآن وكان الثلث الباقي من الليل في نزول الرب غيب محمد صلى الله عليه وسلم وغيب هذا النوع الإنساني فإن الغيب ستر والليل ستر وسمي هذا الباقي من الليل الثلث لأن هذه النشأة الإنسانية لها البقاء دائما في دار الخلود فإن الثلثين الأولين ذهبا بوجود الثلث الباقي أو الآخر من الليل فيه نزل الحق فأوجب له البقاء أيضا وهو ليل لا يعقبه صباح أبدا فلا يذهب لكن ينتقل من حال إلى حال ومن دار إلى دار كما ينتقل الليل من مكان إلى مكان أمام الشمس وإنما يفر أمامها لئلا تذهب عينه إذ كان النور ينافي الظلمة وتنافيه غير أن سلطان النور أقوى فالنور ينفر الظلمة والظلمة لا تنفر النور وإنما هو النور ينتقل فتظهر الظلمة في الموضع الذي لا عين للنور فيه ألا ترى الحق تسمى بالنور ولم يتسم بالظلمة إذ كان النور وجودا والظلمة عدما وإذ كان النور لا تغالبه الظلمة بل النور الغالب كذلك الحق لا يغالبه الخلق بل الحق الغالب فسمى نفسه نورا فتذهب السماء وهو الثلث الأول من الليل وتذهب الأرض وهو الثلث الثاني من الليل ويبقى الإنسان في الدار الآخرة أبد الآبدين إلى غير نهاية وهو الثلث الباقي من الليل وهو الولد عن هذين الأبوين السماء والأرض فنزل القرآن في الليلة المباركة في الثلث الآخر منها وهو الإنسان الكامل ففرق فيه كل أمر حكيم فتميز عن أبويه بالبقاء نزل به الروح الأمين على قلبك هو محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى الشارع كيف قال في ولد الزنا إنه شر الثلاثة وكذلك ولد الحلال خير الثلاثة من هذا الوجه خاصة فإن الماء الذي خلق منه الولد من الرجل والمرأة أراد الخروج وهو الماء الذي تكون منه الولد وهو الأمر الثالث فحرك لما أراد الخروج الأبوين للنكاح ليخرج وكان تحريكه لهما على غير وجه مرضي شرعا يسمى سفاحا فقيل فيه إنه شر الثلاثة أي هو سبب الحركة التي بها انطلق عليهم اسم الشر فجعله ثلاثة أثلاث الأبوان ثلثان والولد ثالث كذلك قسم الليل على ثلاثة أثلاث

ثلثان ذاهبان وهما السماء والأرض وثلث باق وهو الإنسان وفيه ظهرت صورة الرحمن وفيه نزل القرآن وإنما سميت السماء والأرض ليلا لأن الظلمة لها من ذاتها والإضاءة فيها من غيرها من الأجسام المستنيرة التي هي الشمس وأمثالها فإذا زالت الشمس أظلمت السماء والأرض فهذا يا أخي قد استفدت علوما لم تكن تعرفها قبل هذا وهي علوم هذا الشخص المحقق بمنزل الأنفاس وكل ما أدركه هذا الشخص فإنما أدركه من الروائح بالقوة الشمية لا غير وقد رأينا منهم جماعة بإشبيلية وبمكة وبالبيت المقدس وفاوضناهم في ذلك مفاوضة حال لا مفاوضة نطق كما أني فاوضت طائفة أخرى من أصحاب النظر البصري بالبصر فكنت أسأل وأجاب ونسأل ونجيب بمجرد النظر ليس بيننا كلام معتاد ولا اصطلاح بالنظر أصلا لكن كنت إذا نظرت إليه علمت جميع ما يريده مني وإذا نظر إلى علم جميع ما نريده منه فيكون نظره إلي سؤالا أو جوابا ونظري إليه كذلك فنحصل علوما جمة بيننا من غير كلام ويكفي هذا القدر من بعض علم هذا الشخص فإن علومه كثيرة أحطنا بها فمن أراد أن يعرف مما ذكرناه شيئا فليعلم الفرق بين في في قوله كان في عماء وبين استوى في قوله الرحمن على العرش استوى ولم يقل في كما قال في السماء وفي الليل ويتبين لك في كل ما ذكرناه مقام جمع الجمع ومقام الجمع ومقام التفرقة ومقام تمييز المراتب والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل انتهى الجزء التاسع عشر.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الباب الخامس والثّلاثون

في معرفة هذا الشّخص المحقّق في منزل الأنفاس وأسراره بعد موته -رضي الله عنه-

العبد من كان في حال الحياة به * كحاله بعد موت الجسم والروح
والعبد من كان في حال الحجاب به * نورا كإشراق ذات الأرض من يوح
فحالة الموت لا دعوى تصاحبها * كما الحياة لها الدعوى بتصريح
في حق قوم وفي قوم تكون لهم * تلك الدعاوي بإيماء وتلويح
فإن فهمت الذي قلناه قمت به * وزنا تنزه عن نقص وترجيح
وكنت ممن تزكيه حقائقه * ولا سبيل إلى طعن وتجريح
وإن جهلت الذي قلناه جئت إلى * دار السؤال بصدر غير مشروح

اعلم –أيدك الله بروح القدس– أنّ هذا الشخص المحقق في منزل الأنفاس أي شخص كان فإن حاله بعد موته يخالف سائر أحوال الموتى فلنذكر أولا حصر مآخذ أهل الله العلوم من الله كما قررناه في الباب قبل هذا ولنذكر ما لهم وآثار تلك المأخذ في ذواتهم فلنقل اعلم يا أخي أن علم أهل الله المأخوذ من الكشف إنه على صورة الايمان سواء فكل ما يقبله الايمان عليه يكون كشف أهل الله فإنه حق كله والمخبر به وهو النبي صلى الله عليه وسلم مخبر به عن كشف صحيح وذوات العلماء بالله تعالى تكون على صفة الشيء الذي تأخذ منه العلم بالله أي شيء كان واعلم أن الصفات على نوعين صفات نفسية وصفات معنوية فالصفات المعنوية في الموصوف هي التي إذا رفعتها عن الذات الموصوفة بها لم ترتفع الذات التي كانت موصوفة بها والصفات النفسية هي التي إذا رفعتها عن الموصوف بها ارتفع الموصوف بها ولم يبق له عين في الوجود العيني ولا في الوجود العقلي حيث ما رفعتها ثم إنه ما من صفة نفسية للموصوف التي هي ليست بشيء زائد على ذاته إلا ولها

صفة نفسية بها يمتاز بعضها عن بعض فإنه قد تكون ذات الموصوف مركبة من صفتين نفسيتين إلى ما فوق ذلك وهي الحدود الذاتية وهنا باب مغلق لو فتحناه لظهر ما يذهب بالعقول ويزيل الثقة بالمعلوم وربما كان يؤول الأمر في ذلك إلى أن يكون السبب الأول من صفات نفس الممكنات كما أنك إذا جعلت السبب شرطا في وجود المشروط ورفعت الشرط ارتفع المشروط بلا شك ولا يلزم العكس فهذا يطرد ولا ينعكس فتركناه مقفلا لمن يجد مفتاحه فيفتحه وإذا كان الأمر عندنا وعند كل عاقل بهذه المثابة فقد علمت إن الصفات معان لا تقوم بأنفسها وما لها ظهور إلا في عين الموصوف والصفات النفسية معان وهي عين الموصوف والمعاني لا تقوم بأنفسها فكيف تكون هي عين الموصوف لا غيره فيوصف الشيء بنفسه وصار قائما بنفسه من حقيقته ألا يقوم بنفسه فإن كل موصوف هو مجموع صفاته النفسية والصفات لا تقوم بأنفسها وما ثم ذات غيرها تجمعها وتظهر وقد نبهتك على أمر عظيم لتعرف لما ذا يرجع علم العقلاء من حيث أفكارهم ويتبين لك أن العلم الصحيح لا يعطيه الفكر ولا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم وأن العلم الصحيح إنما هو ما يقذفه الله في قلب العالم وهو نور إلهي يختص به من يشاء من عباده من ملك ورسول ونبي وولي ومؤمن ومن لا كشف له لا علم له ولهذا جاءت الرسل والتعريف الإلهي بما تحيله العقول فتضطر إلى التأويل في بعضها لتقبله وتضطر إلى التسليم والعجز في أمور لا تقبل التأويل أصلا وغايته أن يقول له وجه لا يعلمه إلا الله لا تبلغه عقولنا وهذا كله تأنيس للنفس لا علم حتى لا ترد شيئا مما جاءت به النبوة هذا حال المؤمن العاقل وأما غير المؤمن فلا يقبل شيئا من ذلك وقد وردت أخبار كثيرة مما تحيلها العقول منها في الجناب العالي ومنها في الحقائق وانقلاب الأعيان فأما التي في الجناب العالي فما وصف الحق به نفسه في كتابه وعلى لسان رسله مما يجب الايمان به ولا يقبله العقل بدليله على ظاهره إلا إن تأوله بتأويل بعيد فإيمانه إنما هو بتأويله لا بالخبر ولم يكن له كشف إلهي كما كان للنبي فيعرف مراد الحق في ذلك الخبر فوصف نفسه سبحانه بالظرفية الزمانية والمكانية ووصفه بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم وجميع الرسل وكلهم على لسان واحد في ذلك لأنهم يتكلمون عن إل واحد والعقلاء أصحاب الأفكار اختلفت مقالاتهم في الله تعالى على قدر نظرهم فالإله الذي يعبد بالعقل مجردا عن الايمان كأنه بل هو إله موضوع بحسب ما أعطاه نظر ذلك العقل فاختلفت حقيقته بالنظر إلى كل عقل وتقابلت العقول وكل طائفة من أهل العقول تجهل الأخرى بالله وإن كانوا من النظار الإسلاميين المتأولين

فكل طائفة تكفر الأخرى والرسل صلوات الله عليهم من آدم ع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما نقل عنهم اختلاف فيما ينسبونه إلى الله من النعوت بل كلهم على لسان واحد في ذلك والكتب التي جاءوا بها كلها تنطق في حق الله بلسان واحد ما اختلف منهم اثنان يصدق بعضهم بعضا مع طول الأزمان وعدم الاجتماع وما بينهم من الفرق المنازعين لهم من العقلاء ما اختل نظامهم وكذلك المؤمنون بهم على بصيرة المسلمون المسلمون الذين لم يدخلوا نفوسهم في تأويل فهم أحد رجلين إما رجل آمن وسلم وجعل علم ذلك إليه إلى أن مات وهو المقلد وإما رجل عمل بما علم من فروع الأحكام واعتقد الايمان بما جاءت به الرسل والكتب فكشف الله عن بصيرته وصيره ذا بصيرة في شأنه كما فعل بنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم وأهل عنايته فكاشف وأبصر ودعا إلى الله عز وجل على بصيرة كما قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم مخبرا له أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وهؤلاء هم العلماء بالله العارفون وإن لم يكونوا رسلا ولا أنبياء فهم على بينة من ربهم في علمهم به وبما جاء من عنده وكذلك وصف نفسه بكثير من صفات المخلوقين من المجيء والإتيان والتجلي للأشياء والحدود والحجب والوجه والعين والأعين واليدين والرضي والكراهة والغضب والفرح والتبشبش وكل خبر صحيح ورد في كتاب وسنة والأخبار أكثر من أن تحصى مما لا يقبلها إلا مؤمن بها من غير تأويل أو بعض أرباب النظر من المؤمنين بتأويل اضطره إليه إيمانه فانظر مرتبة المؤمن ما أعزها ومرتبة أهل الكشف ما أعظمها حيث ألحقت أصحابها بالرسل والأنبياء عليهم السلام فيما خصوا به من العلم الإلهي لأن العلماء ورثة الأنبياء وما ورثوا دينارا ولا درهما بل ورثوا العلم يقول صلى الله عليه وسلم إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة فمن كان عنده شيء من هذه الدنيا فليوقفه صدقة على من يراه من الأقربين إلى الله فهو النسب الحقيقي أو يزهد فيه ولا يترك شيئا يورث عنه إن أراد أن يلحق بهم ولا يرث أحدا فالحمد لله الذي أعطانا من هذا المقام الحظ الوافر فهذا بعض ما ورد علينا من الله عز وجل في الله تعالى من الأوصاف وأما في قلب الحقائق فلا خلاف بين العقلاء في أنه لا يكون ودل دليل العقل القاصر من جهة فكره ونظره لا من جهة إيمانه وقبوله إذ لا أعقل من الرسل وأهل الله إن الأعيان لا تنقلب حقيقة في نفسها وإن الصفات والأعراض في مذهب من يقول إنها أعيان موجودة لا نقوم بأنفسها ولا بد لها من محل قائم بنفسه أو غير قائم بنفسه لكنه في قائم بنفسه ولا بد ومثال الأول السواد مثلا أو أي لون كان لا يقوم إلا بمحل يقال فيه لقيام السواد به أسود

ومثال الثاني كالسواد المشرق مثلا فالسواد هو المشرق فإنه نعت له فهذا معنى قولي أو غير قائم بنفسه لكنه في قائم بنفسه وهذه مسألة خلاف بين النظار هل يقوم المعنى بالمعنى فمن قائل به ومانع من ذلك وقد ثبت أن جميع الأعمال كلها أعراض وإنها تفني ولا بقاء لها وإنه ليس لها عين موجودة بعد ذهابها ولا توصف بالانتقال وإن الموت إما عرض موجود في الميت في مذهب بعض النظار وإما نسبة افتراق بعد اجتماع وكذا جميع الأكوان في مذهب بعضهم وهو الصحيح الذي يقتضيه الدليل وعلى كل حال فإنه لا يقوم بنفسه ووردت الأخبار النبوية بما يناقض هذا كله مع كوننا مجمعين على إن الأعمال أعراض أو نسب فقال الشارع وهو الصادق صاحب العلم الصحيح والكشف الصريح إن الموت يجاء به يوم القيامة في صورة كبش أملح يعرفه الناس ولا ينكره أحد فيذبح بين الجنة والنار روى أن يحيى ع هو الذي يضجعه ويذبحه بشفرة تكون في يده والناس ينظرون إليه وورد أيضا في الخبر أن عمل الإنسان يدخل معه في قبره في صورة حسنة أو قبيحة فيسأله صاحبه فيقول أنا عملك وأن مانع الزكاة يأتيه ماله شجاعا أقرع له زبيبتان وأمثال هذا في الشرع لا تحصى كثرة فأما المؤمنون فيؤمنون بهذا كله من غير تأويل وأما أهل النظر من أهل الايمان وغيرهم فيقولون حمل هذا على ظاهره محال عقلا وله تأويل فيتأوّلونه بحسب ما يعطيهم نظرهم فيه ثم يقولون أهل الايمان منهم عقيب تأويلهم والله أعلم يعني في ذلك التأويل الخاص الذي ذهب إليه هل هو المراد لله أم لا وأما حمله على ظاهره فمحال عندهم جملة واحدة والايمان إنما يتعلق بلفظ الشارع به خاصة هذا هو اعتقاد أهل الأفكار.

وبعد أن بينا لك هذه الأمور ومراتب الناس فيها فإنها من هذا الباب الذي نحن بصدده فاعلم أنه ما ثم إلا ذوات أوجدها الله تعالى فضلا منه عليها قائمة بأنفسها وكل ما وصفت به فنسب وإضافات بينها وبين الحق من حيث ما وصفت فإذا أوجد الموجد قيل فيه إنه قادر على الإيجاد ولولا ذاك ما أوجد وإذا خصص الممكن بأمر دون غيره مما يجوز أن يقوم به قيل مريد ولولا ذلك ما خصصه بهذا دون غيره وسبب هذا كله إنما تعطيه حقيقة الممكن فالممكنات أعطت هذه النسب.

فافهم إن كنت ذا لب ونظر إلهي وكشف رحماني.

وقد قررنا في الباب الذي قبل هذا أن مآخذ العلوم من طرق مختلفة وهي السمع والبصر والشم واللمس والطعم والعقل من حيث ضروریاته وهو ما يدركه بنفسه من غير قوة

أخرى ومن حيث فكره الصحيح أيضا مما يرجع إلى طرق الحواس أو الضروريات والبديهيات لا غير فذلك يسمى علما والأمور العارضة الحاصل عنها العلوم أيضا ترجع إلى هذه الأصول لا تنفك عنها وإنما سميت عوارض من أجل أن العادة في إدراك الألوان إن اللمس لا يدركها وإنما يدركها البصر فإذا أدركها الأكمه باللمس وقد رأينا ذلك فقد عرض لحاسة اللمس ما ليس من حقيقتها في العادة أن تدركه وكذلك سائر الطرق إذا عرض لها درك ما ليس من شأنها في العادة أن يدرك بها يقال فيه عرض لها وإنما فعل الله هذا تنبيها لنا أنه ما ثم حقيقة كما يزعم أهل النظر لا ينفذ فيها الاقتدار الإلهي بل تلك الحقيقة إنما هي بجعل الله لها على تلك الصورة وإنها ما أدركت الأشياء المربوط إدراكها بها من كونها بصرا ولا غير ذلك يقول الله بل بجعلنا فيدرك جميع العلوم كلها بحقيقة واحدة من هذه الحقائق إذا شاء الحق فلهذا قلنا عرض لها إدراك ما لم تجر العادة بإدراكها إياه فتعلم قطعا أنه عز وجل قد يكون مما يعرض لها أن تعلم وترى من ليس كمثله شئ وإن كانت الإدراكات لم تدرك شيئا قط إلا ومثله أشياء كثيرة من جميع المدركات ولم ينف سبحانه عن إدراكه قوة من القوي التي خلقها إلا البصر فقال لا تدركه الأبصار فمنع ذلك شرعا وما قال لا يدركه السمع ولا العقل ولا غيرهما من القوي الموصوف بها الإنسان كما لم يقل أيضا إن غير البصر يدركه بل ترك الأمر مبهما وأظهر العوارض التي تعرض لهذه القوي في معرض التنبيه أنه ربما وضع ذلك في رؤيتنا من ليس كمثله شئ كما رأينا أول مرئي وسمعنا أول مسموع وشممنا أول مشموم وطعمنا أول مطعوم ولمسنا أول ملموس وعقلنا أول معقول مما لم يكن له مثل عندنا وإن كان له أمثال في نفس الأمر ولكن في أولية الإدراك سر عجيب في نفي المماثلة له فقد أدرك المدرك من لا مثل له عنده فيقيسه عليه وكون ذلك المدرك يقبل لذاته المثل أو لا يقبله حكم آخر زائد على كونه مدركا لا يحتاج إليه في الإدراك إن كنت ذا فطنة بل نقول إن التوسع الإلهي يقتضي أن لا مثل في الأعيان الموجودة وأن المثلية أمر معقول متوهم فإنه لو كانت المثلية صحيحة ما امتاز شئ عن شيء مما يقال هو مثله فذلك الذي امتاز به الشئ عن الشئ هو عين ذلك الشيء وما لم يمتز به عن غيره فما هو إلا عين واحدة فإن قلت رأيناه مفترقا مفارقا ينفصل هذا عن هذا مع كونه يماثله في الحد والحقيقة يقال له أنت الغالط فإن الذي وقع به الانفصال هو المعبر عنه بأنه تلك العين وما لم يقع به الانفصال هو الذي توهمت أنه مثل وهذا من أغمض مسائل هذا الباب فما ثم مثل أصلا ولا يقدر على إنكار الأمثال ولكن بالحدود لا

غير ولهذا انطلق المثلية من حيث الحقيقة الجامعة المعقولة لا الموجودة فالأمثال معقولة لا موجودة فنقول في الإنسان إنه حيوان ناطق بلا شك وأن زيدا ليس هو عين عمرو من حيث صورته وهو عين عمرو من حيث إنسانيته لا غيره أصلا وإذا لم يكن غيره في إنسانيته فليس مثله بل هو هو فإن حقيقة الإنسانية لا تتبعض بل هي في كل إنسان بعينها لا بجزئيتها فلا مثل لها وهكذا جميع الحقائق كلها فلم تصح المثلية إذا جعلتها غير عين المثل فزيد ليس مثل عمرو من حيث إنسانيته بل هو هو وليس زيد مثل عمرو في صورته فإن الفرقان بينهما ظاهر ولولا الفارق لالتبس زيد بعمرو ولم تكن معرفة بالأشياء فما أدرك المدرك أي شيء أدرك إلا من ليس كمثله شيء وذلك لأن الأصل الذي نرجع إليه في وجودنا، وهو الله –تعالى– ﴿ليس كمثله شيء﴾[1] فلا يكون ما يوجد عنه إلا على حقيقة أنه لا مثل له فإنه كيف يخلق ما لا تعطيه صفته وحقيقته لا تقبل المثل فلا بد أن يكون كل جوهر فرد في العالم لا يقبل المثل إن كنت ذا فطنة ولب فإنه ليس في الإله حقيقة تقبل المثل فلو كان قبول المثل موجودا في العالم لاستند في وجوده من ذلك الوجه إلى غير حقيقة إلهية وما ثم موجد إلا الله ولا مثل له فما في الوجود شيء له مثل بل كل موجود متميز عن غيره بحقيقة هو عليها في ذاته وهذا هو الذي يعطيه الكشف والعلم الإلهي الحق فإذا أطلقت المثل على الأشياء كما قد تقرر فاعلم أني أطلق ذلك عرفا قال تعالى أمم أمثالكم أي كما انطلق عليكم اسم الأمة كذلك ينطلق اسم أمة على كل دابة وطائر يطير بجناحيه وكما إن كل أمة وكل عين في الوجود ما سوى الحق تفتقر في إيجادها إلى موجد نقول بتلك النسبة في كل واحد إنه مثل للآخر في الافتقار إلى الله.

وبهذا يصحّ قطعا إن الله ليس كمثله شيء بزيادة الكاف أو بفرض المثل فإنك إذا عرفت أن كل محدث لا يقبل المثلية كما قررناه لك فالحق أولى بهذه الصفة فلم تبق المثلية الواردة في القرآن وغيره إلا في الافتقار إلى الله الموجد أعيان الأشياء ثم ارجع وأقول إن كل واحد من أهل الله لا يخلو أن يكون قد جعل الله علم هذا الشّخص بالأشياء في جميع القوي أو في قوة بعينها كما قررنا إما في الشم وهو صاحب علم الأنفاس وإما في النظر فيقال هو صاحب نظر وإما في الضرب وهو من باب اللمس بطريق خاص ولذلك كني عن ذلك بوجود برد الأنامل فينسب صاحب تلك الصفة التي بها تحصل العلوم إليها فيقال هو

1

صاحب كذا كما قررنا إن الصفة هي عين الموصوف في هذا الباب أعني الصفة النفسية فكما رجع المعنى الذي يقال فيه إنه لا يقوم بنفسه صورة قائمة بنفسها رجعت الصورة التي هي هذا العالم معنى لتحققه بذلك المعنى وتألفه به كما تألفت هذه المعاني فصار من تأليفها ذات قائمة بنفسها يقال فيها جسم وإنسان وفرس ونبات فافهم فيصير صاحب علم الذوق ذوقا وصاحب علم الشم شما ومعنى ذلك أنه يفعل في غيره ما يفعل الذوق فيه إن كان صاحب ذوق أو ما فعل الشم فيه إن كان صاحب شم فقد التحق في الحكم بمعناه وصار هو في نفسه معنى يدرك به المدرك الأشياء كما يدرك الرائي بالنظر في المرآة الأشياء التي لا يدركها في تلك الحالة إلا بالمرآة كان للشيخ أبي مدين ولد صغير من سوداء وكان أبو مدين صاحب نظر فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول أرى في البحر في موضع صفته كذا وكذا سفنا وقد جرى فيها كذا وكذا فإذا كان بعد أيام وتجئ تلك السفن إلى بجاية مدينة هذا الصبي التي كان فيها يوجد الأمر على ما قاله الصبي فيقال للصبي بما ذا ترى فيقول بعيني ثم يقول لا إنما أراه بقلبي ثم يقول لا إنما أراه بوالدي إذا كان حاضرا ونظرت إليه رأيت هذا الذي أخبركم به وإذا غاب عني لا أرى شيئا من ذلك ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى في العبد الذي يتقرب إلى الله بالنوافل حتى بحبه يقول فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث فبه يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش ويسعى فهذا معنى قولنا يرجع المحقق بمثل صورة معنى ما تحقق به فكان ينظر بأبيه كما ينظر الإنسان بعينه في المرآة فافهم وهكذا كل صاحب طريق من طرق هذه القوي وقد يجمع الكل واحد فيرى بكل قوة ويسمع بكل قوة ويشم بكل قوة وهو أتم الجماعة وأما أحوالهم بعد موتهم فعلى قدر ما كانوا عليه في الدنيا من التفرع لأمر ما معين أو أمور مختلفة على قدر ما تحققوا به في التفرع له وهم في الآخرة على قدر أحوالهم في الدنيا فمن كان في الدنيا عبدا محضا كان في الآخرة ملكا محضا ومن كان في الدنيا يتصف بالملك ولو في جوارحه أنها ملك له نقص من ملكه في الآخرة بقدر ما استوفاه في الدنيا ولو أقام العدل في ذلك وصرفه فيما أوجب الله عليه أن يصرفه فيه شرعا وهو يرى أنه مالك لذلك لغفلة طرأت منه فإن وبال ذلك يعود عليه ويؤثر فيه فلا أعز في الآخرة ممن بلغ في الدنيا غاية الذل في جناب الحق والحقيقة ولا أذل في الآخرة ممن بلغ

في الدنيا غاية العزة في نفسه ولو كان مصفوعا في الدنيا ولا أريد بعز الدنيا أن يكون فيها ملكا إلا أن يكون صفته في نفسه العزة وكذلك الذلة وأما أن يكون في ظاهر الأمر ملكا أو غير ذلك فما نبالي في أي مقام وفي أي حال أقام الحق عبده في ظاهره وإنما المعتبر في ذلك حاله في نفسه ذكر عبد الكريم بن هوازن القشيري في بعض كتبه وغيره عن رجل من الناس أنه دفن رجلا من الصالحين فلما جعله في قبره نزع الكفن عن خده ووضع خده على التراب ففتح الميت عينيه وقال له يا هذا أتذللني بين يدي من أعزني فتعجب من ذلك وخرج من القبر ورأيت أنا مثل هذا لعبد الله صاحبي الحبشي في قبره ورآه غاسله وقد هاب أن يغسله في حديث طويل ففتح عينيه في المغتسل وقال له اغسل فمن أحوالهم بعد الموت أنهم أحياء بالحياة النفسية التي بها يسبح كل شئ ومن كانت له همة بمعبده في حال عبادته في حياته بحيث أن يكون يحفظها من الداخل فيها حتى لا يتغير عليه الحال إن كان صاحب نفس فإذا مات ودخل أحد بعده معبده ففعل فيه ما لا يليق بصاحبه الذي كان يعمره ظهرت فيه آية وهذا قد رويناه في حكاية عن أبي يزيد البسطامي كان له بيت يتعبد فيه يسمى بيت الأبرار فلما مات أبو يزيد بقي البيت محفوظا محترما لا يفعل فيه إلا ما يليق بالمساجد فاتفق أنه جاء رجل فبات فيه قيل وكان جنبا فاحترقت عليه ثيابه من غير نار معهودة ففر من البيت فما كان يدخله أحد فيفعل فيه ما لا يليق إلا رأى آية فيبقى أثر مثل هذا الشخص بعد موته يفعل مثل ما كان يفعله في حياته سواء وقد قال بعضهم وكان محبا في الصلاة يا رب إن كنت أذنت لأحد أن يصلي في قبره فاجعلني ذلك فرؤي وهو يصلي في قبره وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة إسراءه بقبر موسى ع فرآه وهو يصلي في قبره ثم عرج به إلى السماء وذكر الإسراء وما جرى له فيه مع الأنبياء ورأى موسى في السماء السادسة وقد رآه وهو يصلي في قبره فمن أحوال هذا الشخص بعد موته مثل هذه الأشياء لا فرق في حقه بين حياته وموته فإنه كان في زمان حياته في الدنيا في صورة الميت حاله الموت فجعله الله في حال موته كمن حاله الحياة جزاء وفاقا ومن صفات صاحب هذا المقام في موته إذا نظر الناظر إلى وجهه وهو ميت يقول فيه حي وإذا نظر إلى مجس عروقه يقول فيه ميت فيحار الناظر فيه فإن الله جمع له بين الحياة والموت في حال حياته وموته وقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله يكاد إنا ما دفناه إلا على

شك مما كان عليه في وجهه من صورة الأحياء ومما كان من سكون عروقه وانقطاع نفسه من صورة الأموات وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرني بموته وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان فلما كان يوم موته وكان مريضا شديد المرض استوى قاعدا غير مستند وقال لي يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء فقلت له كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقائك ففرح بذلك وقال لي جزاك الله يا ولدي عني خيرا كل ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هو ذا أنا أشهده ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء له نور يتلألأ لأقشعر بها الوالد ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه فقبلته ووادعته وخرجت من عنده وقلت له أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك فقال لي رح ولا تترك أحدا يدخل علي وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر جاءني نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم فسبحان من يختص برحمته من يشاء فصاحب هذا المقام حياته وموته سواء وكل ما قدمناه في هذا الباب من العلم هو علم صاحب هذا المقام فإنه من علم الأنفاس ولهذا ذكرنا ما ذكرنا من ذلك والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السّادس والثّلاثون
في معرفة العيسويين وأقطابهم وأصولهم

كلّ مَن أحيا حقيقته * وشفى من علة الحجب
فهو عيسى لا يناط به * عندنا شيء من الريب
فلقد أعطت سجيته * رتبة تسمو على الرتب
بنعوت القدس تعرفه * في صريح الوحي والكتب
لم ينلها غير وارثه * صفة في سالف الحقب
فسرت في الكون همّته * في أعاجم وفي عرب
فبها تحيا نفوسهمو * وبها إزالة النّوب

اعلم –أيّدك الله– أنّه لمّا كان شرع محمد –صلّى الله عليه وسلّم– تضمن جميع الشرائع المتقدمة وأنه ما بقي لها حكم في هذه الدنيا إلا ما قررته الشريعة المحمدية فبتقريرها ثبتت فتعبدنا بها نفوسنا من حيث إن محمدا –صلّى الله عليه وسلّم– قررها لا من حيث إن النبي المخصوص بها في وقته قررها فلهذا أوتي رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– جوامع الكلم فإذا عمل المحمدي وجميع العالم المكلف اليوم من الإنس والجنّ محمدي ليس في العالم اليوم شرع إلهي سوى هذا الشرع المحمدي فلا يخلو هذا العامل من هذه الأمة إن يصادف في عمله فيما يفتح له منه في قلبه وطريقه ويتحقق به طريقة من طرق نبي من الأنبياء المتقدمين ممّا تتضمنّه هذه الشّريعة وقرّرت طريقته وصحبتها نتيجته فإذا فتح له في ذلك فإنه ينتسب إلى صاحب تلك الشريعة فيقال فيه عيسوي أو موسوي أو إبراهيمي وذلك لتحقيق ما تميّز له من المعارف وظهر له من المقام من جملة ما هو تحت حيطة شريعة محمد –صلّى الله عليه وسلّم–، فيتميز بتلك النسبة أو بذلك النّسب من غيره ليعرف أنّه ما ورث من محمد –صلّى الله عليه وسلّم– إلا ما لو كان موسى أو غيره من الأنبياء حيا واتبعه ما ورث إلا ذلك منه ولما تقدمت شرائعهم قبل هذه الشريعة جعلنا هذا العارف وارثا إذ كان الورث للآخر من الأول فلو لم يكن لذلك الأول شرع مقرر قبل تقرير محمد صلى الله عليه وسلم لساوينا الأنبياء والرسل إذ جمعنا زمان شريعة محمد

صلى الله عليه وسلم كما يساوينا اليوم الياس والخضر وعيسى إذا نزل فإنّ الوقت يحكم عليه، إذ لا نبوة تشريع بعد محمّد –صلى الله عليه وسلّم– ولا يقال في أحد من أهل هذه الطريقة أنه محمدي إلا لشخصين إما شخص اختص بميراث علم من حكم لم يكن في شرع قبله فيقال فيه محمدي وإما شخص جمع المقامات ثم خرج عنها إلى لا مقام كأبي يزيد وأمثاله فهذا أيضا يقال فيه محمدي وما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبي من الأنبياء ولهذا ورد في الخبر أن العلماء ورثة الأنبياء ولم يقل ورثة نبي خاص والمخاطب بهذا علماء هذه الأمة وقد ورد أيضا بهذا اللفظ قوله صلى الله عليه وسلم علماء هذه الأمة أنبياء سائر الأمم وفي رواية كأنبياء بني إسرائيل فالعيسويون الأول هم الحواريون أتباع عيسى فمن أدرك منهم إلى الآن شرع محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به واتبعه واتفق أن يكون قد حصل له من هذه الشريعة ما كان قبل هذا شرعا لعيسى ع فيرث من عيسى عليه السلام ما ورثه من غير حجاب ثم يرث من عيسى عليه السلام في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ميراث تابع من تابع لا من متبوع وبينهما في الذوق فرقان ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الشخص أن له الأجر مرتين كذلك له ميراثان وفتحان وذوقان مختلفان ولا ينسب فيهما إلا إلى ذلك النبي ع فهؤلاء هم العيسويون الثواني وأصولهم توحيد التجريد من طريق المثال لأن وجود عيسى عليه السلام لم يكن عن ذكر بشري وإنما كان عن تمثل روح في صورة بشر ولهذا غلب على أمة عيسى بن مريم دون سائر الأمم القول بالصورة فيصورون في كنائسهم مثلا ويتعبدون في أنفسهم بالتوجه إليها فإن أصل نبيهم ع كان عن تمثل فسرت تلك الحقيقة في أمته إلى الآن ولما جاء شرع محمد صلى الله عليه وسلم ونهى عن الصور وهو صلى الله عليه وسلم قد حوى على حقيقة عيسى وانطوى شرعه في شرعه فشرع لنا صلى الله عليه وسلم أن نعبد الله كأنا نراه فأدخله لنا في الخيال وهذا هو معنى التصوير إلا أنه نهى عنه في الحس أن يظهر في هذه الأمة بصورة حسية ثم إن هذا الشرع الخاص الذي هو اعبد الله كأنك تراه ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم لنا بلا واسطة بل قاله لجبريل عليه السلام وهو الذي تمثل لمريم بشرا سويا عند إيجاد عيسى عليه السلام فكان كما قيل في المثل السائر إياك أعني فاسمعي يا جارة فكنا نحن المرادين بذلك القول ولهذا جاء في آخر الحديث هذا جبريل أراد أن تعلموا إذا لم تسألوا وفي رواية جاء ليعلم الناس دينهم وفي رواية أتاكم يعلمكم دينكم فما خرجت الروايات عن كوننا المقصودين بالتعليم ثم لتعلم إن الذي لنا من غير شرع عيسى

ع قوله فإن لم تكن تراه فإنه يراك فهذا من أصولهم وكان شيخنا أبو العباس العربي رحمه الله عيسويا في نهايته وهي كانت بدايتنا أعني نهاية شيخنا في هذا الطريق كانت عيسوية ثم نقلنا إلى الفتح الموسوي الشمسي ثم بعد ذلك نقلنا إلى هود عليه السلام ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع النبيين عليهم السلام ثم بعد ذلك نقلنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم هكذا كان أمرنا في هذا الطريق ثبته الله علينا ولا حاد بنا عن سواء السبيل فأعطانا الله من أجل هذه النشأة التي أنشأنا الله عليها في هذا الطريق وجه الحق في كل شئ فليس في العالم عندنا في نظرنا شئ موجود إلا ولنا فيه شهود عين حق نعظمه منه فلا نرمي بشئ من العالم الوجودي وفي زماننا اليوم جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ويونس عليه السلام يحبون وهم منقطعون عن الناس فأما القوم الذين هم من قوم يونس فرأيت أثر قدم واحد منهم بالساحل كان صاحبه قد سبقني بقليل فشبرت قدمه في الأرض فوجدت طول قدمه ثلاثة أشبار ونصفا وربعا بشبري وأخبرني صاحبي أبو عبد الله بن خرز الطنجي أنه اجتمع به في حكاية وجاءني بكلام من عنده مما يتفق في الأندلس في سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي السنة التي كنا فيها وما يتفق في سنة ست وثمانين مع الإفرنج فكان كما قال ما غادر حرفا وأما الذي في الزمان من أصحاب عيسى فهو ما رويناه من حديث عربشاه بن محمد بن أبي المعالي العلوي النوقي الخبوشاني كتابة قال حدثنا محمد بن الحسن بن سهل العباسي الطوسي أنا أبو المحاسن علي بن أبي الفضل الفارمدي إنا أحمد بن الحسين بن علي قال حدثنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو عمر وعثمان بن أحمد بن السماك ببغداد إملاء ثنا يحيى بن أبي طالب ثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي ثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو بالقادسية أن وجه نضلة بن معاوية الأنصاري إلى حلوان العراق فليغز على ضواحيها قال فوجه سعد نضلة في ثلاثمائة فارس فخرجوا حتى أتوا حلوان العراق وأغاروا على ضواحيها وأصابوا غنيمة وسبيا فأقبلوا يسوقون الغنيمة والسبي حتى رهقت بهم العصر وكادت الشمس أن تغرب فالجأ نضلة السبي والغنيمة إلى سفح الجبل ثم قام فاذن فقال الله أكبر الله أكبر قال ومجيب من الجبل يجيبه كبرت كبيرا يا نضلة ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله فقال كلمة الإخلاص يا نضلة وقال أشهد أن محمدا رسول الله فقال هو الدين وهو الذي بشرنا به عيسى بن مريم عليهما السلام وعلى رأس أمته تقوم الساعة ثم قال حي على الصلاة قال طوبى لمن مشى إليها وواظب عليها ثم قال حي على الفلاح قال قد أفلح من

أجاب محمدا صلى الله عليه وسلم وهو البقاء لأمته قال الله أكبر الله أكبر قال كبرت كبيرا قال لا إله إلا الله قال أخلصت الإخلاص يا نضلة فحرم الله جسدك على النار قال فلما فرغ من أذانه قمنا فقلنا من أنت يرحمك الله أملك أنت أم ساكن من الجن أم من عباد الله أسمعتنا صوتك فأرنا شخصك فإنا وفد الله ووفد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفد عمر بن الخطاب قال فانفلق الجبل عن هامة كالرحى أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقلنا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت يرحمك الله قال أنا زريب بن برثملا وصي العبد الصالح عيسى بن مريم عليهما السلام أسكنني هذا الجبل ودعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبرأ مما نحلته النصارى ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم قلنا قبض فبكى بكاء طويلا حتى خضب لحيته بالدموع ثم قال فمن قام فيكم بعده قلنا أبو بكر قال ما فعل قلنا قبض قال فمن قام فيكم بعده قلنا عمر قال إذا فاتني لقاء محمد صلى الله عليه وسلم فاقرءوا عمر مني السلام وقولوا يا عمر سدد وقارب فقد دنا الأمر وأخبروه بهذه الخصال التي أخبركم بها يا عمر إذا ظهرت هذه الخصال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فالهرب الهرب إذا استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وانتسبوا في غير مناسبهم وانتموا إلى غير مواليهم ولم يرحم كبيرهم صغيرهم ولم يوقر صغيرهم كبيرهم وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به وترك النهي عن المنكر فلم ينه عنه وتعلم عالمهم العلم ليجلب به الدنانير والدراهم وكان المطر قيظا والولد غيظا وطولوا المنابر وفضضوا المصاحف وزخرفوا المساجد وأظهروا الرشي وشيدوا البناء واتبعوا الهوى وباعوا الدين بالدنيا واستخفوا الدماء وتقطعت الأرحام وبيع الحكم وأكل الربا وصار التسلط فخرا والغنى عزا وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه وركبت النساء السروج قال ثم غاب عنا فكتب بذلك نضلة إلى سعد وكتب سعد إلى عمر فكتب عمر إئت أنت ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزل هذا الجبل فإذا لقيته فأقرئه مني السلام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن بعض أوصياء عيسى بن مريم عليه السلام نزل بذلك الجبل بناحية العراق فنزل سعد في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار حتى نزل الجبل أربعين يوما ينادي بالأذان في وقت كل صلاة فلم يجده لم يتابع الراسبي على قوله عن مالك ابن أنس والمعروف في هذا الحديث مالك بن الأزهر عن نافع وابن الأزهر مجهول قال أبو عبد الله الحاكم لم يسمع بذكر ابن الأزهر في غير هذا الحديث والسؤال عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي

بكر هو من حديث ابن لهيعة عن ابن الأزهر قلنا هذا الحديث وإن تكلم في طريقه فهو صحيح عند أمثالنا كشفا وقوله في زخرفة المساجد وتفضيض المصاحف ليسا على طريق الذم وإنما هما دلالة على اقتراب الساعة وفساد الزمان كدلالة نزول عيسى ع وخروج المهدي وطلوع الشمس من مغربها معلوم كل ذلك إنه ليس على طريق الذم وإنما الدلالات على الشئ قد تكون مذمومة ومحمودة هذا الوصي العيسوي بن برثملا لم يزل في ذلك الجبل يتعبد لا يعاشر أحدا وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أترى ذلك الراهب بقي على أحكام النصارى لا والله فإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة يقول صلى الله عليه وسلم لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني وهذا عيسى إذا نزل ما يؤمنا إلا منا أي بسنتنا ولا يحكم فينا إلا بشرعنا فهذا الراهب ممن هو على بينة من ربه علمه ربه من عنده ما افترضه عليه من شرع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على الطريق التي اعتادها من الله وهذا عندنا ذوق محقق فإنا أخذنا كثيرا من أحكام محمد صلى الله عليه وسلم المقررة في شرعه عند علماء الرسوم وما كان عندنا منها علم فأخذناها من هذا الطريق ووجدناها عند علماء الرسوم كما هي عندنا ومن تلك الطريق نصحح الأحاديث النبوية ونردها أيضا إذا أعلمنا أنها واهية الطرق غير صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن قرر الشارع حكم المجتهد وإن أخطأ ولكن أهل هذه الطريقة ما يأخذون إلا بما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الوصي من الأفراد وطريقه في مآخذ العلوم طريق الخضر صاحب موسى عليه السلام فهو على شرعنا وإن اختلف الطريق الموصل إلى العلم الصحيح فإن ذلك لا يقدح في العلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن أعطى الولاية من غير مسألة إن الله يعينه عليها وإن الله يبعث إليه ملكا يسدده يريد عصمته من الغلط فيما يحكم به قال الخضر وما فعلته عن أمري وقال عليه السلام إن يكن في أمتي محدثون فمنهم عمر ثم إنه قد ثبت عندنا إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الرهبان الذين اعتزلوا الخلق وانفردوا بربهم فقال ذروهم وما انقطعوا إليه فأتى بلفظ مجمل ولم يأمرنا بأن ندعوهم لعلمه صلى الله عليه وسلم أنهم على بينة من ربهم وقد أمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ وأمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب فلولا ما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يتولى تعليمهم مثل ما تولى تعليم الخضر وغيره ما كان كلامه هذا ولا قرره على شرع منسوخ عنده في هذه الملة وهو الصادق في دعواه صلى الله عليه وسلم أنه بعث إلى الناس كافة كما ذكر الله تعالى فيه فعمت رسالته جميع الخلق وروح هذا التعريف

أنه كل من أدركه زمانه وبلغت إليه دعوته لم يتعبده الله إلا بشرعه فإنا نعلم قطعا أنه صلى الله عليه وسلم ما شافه جميع الناس بالخطاب في زمانه فما هو إلا الوجه الذي ذكرنا وهذا الراهب من العيسويين الذين ورثوا عيسى عليه السلام إلى زمان بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم تعبد الله هذا الراهب بشرعه صلى الله عليه وسلم وعلمه من لدنه علما بالرحمة التي آتاه من عنده كان ورثه أيضا حالة عيسوية من محمد صلى الله عليه وسلم فلم يزل عيسويا في الشريعتين ألا ترى هذا الراهب قد أخبر بنزول عيسى عليه السلام وأخبر أنه إذا نزل يقتل الخنزير ويكسر الصليب أتراه بقي على تحليل لحم الخنزير فلم يزل هذا الراهب عيسويا في الشريعتين فله الأجر مرتين أجر اتباعه نبيه وأجر اتباعه محمدا صلى الله عليه وسلم وهو في انتظار عيسى إلى أن ينزل وهؤلاء الصحابة قد رأوه مع نضلة وما سألوه عن حاله في الإسلام والايمان ولا بما يتعبد نفسه من الشرائع لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما أمرهم بسؤال مثله فعلمنا قطعا أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقر أحدا على الشرك وعلم إن لله عبادا يتولى الحق تعليمهم من لدنه علم ما أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم رحمة منه وفضلا وكان فضل الله عظيما ولو كان ممن يؤدي الجزية لقلنا إن الشرع المحمدي قد قرر له دينه ما دام يعطي الجزية وهذه مسألة دقيقة في عموم رسالته وأنه بظهوره لم يبق شرع إلا ما شرعه ومما شرع تقريرهم على شرعهم ما داموا يعطون الجزية إذا كانوا من أهل الكتاب وكم لله تعالى من هؤلاء العباد في الأرض فأصل العيسويين كما قررناه تجريد التوحيد من الصور الظاهرة في الأمة العيسوية والمثل التي لهم في الكنائس من أجل أنهم على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الروحانية الحالية التي هم عليها عيسوية في النصارى وموسوية في اليهود من مشكاة محمد صلى الله عليه وسلم من قوله صلى الله عليه وسلم اعبد الله كأنك تراه والله في قبلة المصلي وإن العبد إذا صلى استقبل ربه ومن كل ما ورد في الله من أمثال هذه النسب وليس للعيسوي من هذه الأمة من الكرامات المشي في الهواء ولكن لهم المشي على الماء والمحمدي يمشي في الهواء بحكم التبعية فإن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وكان محمولا قال في عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى في الهواء ولا شك أن عيسى عليه السلام أقوى في اليقين منا بما لا يتقارب فإنه من أولي العزم من الرسل ونحن نمشي في الهواء بلا شك وقد رأينا خلقا كثيرا ممن يمشي في الهواء في حال مشيهم في الهواء فعلمنا قطعا إن مشينا في الهواء إنما هو بحكم صدق التبعية لا بزيادة اليقين على

يقين عيسى عليه السلام قد علم كل منا مشربه فمشينا بحكم التبعية لمحمد صلى الله عليه وسلم من الوجه الخاص الذي له هذا المقام لا من قوة اليقين كما قلنا الذي كنا نفضل به عيسى عليه السلام حاشى لله أن نقول بهذا كما إن أمة عيسى يمشون على الماء بحكم التبعية لا بمساواة يقينهم يقين عيسى عليه السلام فنحن مع الرسل في خرق العوائد الذين اختصوا بها من الله وظهر أمثالها علينا بحكم التبعية كما مثلناه في كتاب اليقين لنا أن لمماليك الخواص الذين يمسكون نعال أستاذيهم من الأمراء إذا دخلوا على السلطان وبقي بعض الأمراء خارج الباب حين لم يؤذن لهم في الدخول أترى المماليك الداخلين مع أستاذيهم أرفع منصبا من الأمراء الذي ما أذن لهم فهل دخلوا إلا بحكم التبعية لأستاذيهم بل كل شخص على رتبته فالأمراء متميزون على الأمراء والمماليك متميزون على المماليك في جنسهم كذلك نحن مع الأنبياء فيما يكون للاتباع من خرق العوائد ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم ما مشى في الهواء إلا محمولا على البراق كالراكب وعلى الرفرف كالمحمول في المحفة فأظهر البراق والرفرف صورة المقام الذي هو عليه في نفسه بأنه محمول في نفسه ونسبة أيضا إلهية من قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ومن قوله ويحمل عرش ربك فالعرش محمول فهذا حمل كرامة بالحاملين وحال راحة ومجد وعز للمحمولين وقد قررنا لك في غير موضع أن المحمول أعلى من غير المحمول في هذا المقام وأمثاله وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله مما اختص به الحملة وإن كان جميع الخلق محمولين ولكن لم يكشف ذلك الحمل لكل أحد وإن كان الحمل على مراتب حمل عن عجز وحمل عن حقيقة كحمل الأثقال وحمل عن شرف ومجد فالعناية بهذه الطائفة أن يكونوا محمولين ظاهرا كما هو الأمر في نفسه باطنا لتبريهم من الدعوى كما قررناه في بابه وللعيسويين همة فعالة ودعاء مقبول وكلمة مسموعة ومن علامة العيسويين إذا أردت أن تعرفهم فتنظر كل شخص فيه رحمة بالعالم وشفقة عليه كان من كان وعلى أي دين كان وبأية نحلة ظهر وتسليم لله فيهم لا ينطقون بما تضيق الصدور له في حق الخلق أجمعين عند خطابهم عباد الله ومن علامتهم أنهم ينظرون من كل شيء أحسنه ولا يجري على ألسنتهم إلا الخير واشتركت في ذلك الطبقة الأولى والثانية فالأولى مثل ما روى عن عيسى ع أنه رأى خنزيرا فقال له أنج بسلام فقيل له في ذلك فقال أعود لساني قول الخير وأما الثانية فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الميتة حين مر عليها ما أحسن بياض أسنانها وقال من كان معه ما أنتن ريحها وأن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان قد أمر بقتل

الحيات على وجه خاص وأخبر أن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية ومع هذا فإنه كان بالغار في منى وقد نزلت عليه سورة والمرسلات وبالمرسلات يعرف الغار إلى الآن دخلته تبركا فخرجت حية وابتدر الصحابة إلى قتلها فأعجزهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله وقاها شركم كما وقاكم شرها فسماه شرا مع كونه مأمورا به مثل قوله تعالى في القصاص وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمى القصاص سيئة وندب إلى العفو فما وقعت عينه صلى الله عليه وسلم إلا على أحسن ما كان في الميتة فهكذا أولياء الله لا ينظرون من كل منظورا لا أحسن ما فيه وهم العمي عن مساوي الخلق لا عن المساوي لأنهم مأمورون باجتنابها كما هم ضم عن سماع الفحشاء كما هم البكم عن التلفظ بالسوء من القول وإن كان مباحا في بعض المواطن هكذا عرفناهم فسبحان من اصطفاهم واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده فهذا مقام عيسى عليه السلام في محمد صلى الله عليه وسلم لأنه تقدمه بالزمان ونقلت عنه هذه الأحوال قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حين ذكر في القرآن من ذكر من النبيين وعيسى في جملة من ذكر عليهم السلام أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وإن كان مقام الرسالة يقتضي تبيين الحسن من القبيح ليعلم كما قال تعالى لتبين للناس ما نزل إليهم فإن بين السوء في حق شخص فبوحي من الله كما قال في شخص بئس أين العشيرة والخضر قتل الغلام وقال فيه طبع كافر أو أخبر لو تركه بما يكون منه من السوء في حق أبويه وقال ما فعلت ذلك عن أمري فالذي للرجال من ذواتهم القول الحسن والنظر إلى الحسن والإصغاء بالسمع إلى الحسن فإن ظهر منهم وقتا ما خلاف هذا من نبي أو ولي مرجوم فذلك عن أمر إلهي ما هو لسانهم فهذا قد ذكرنا من أحوال العيسويين ما يسره الله على لساني والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون
في معرفة الأقطاب العيسويين وأسرارهم

فاعلم –أيّدك الله بروح القدس–:

أنّ القطب من ثبتت في الأمر أقدامه * والعيسوي الذي يبديه قدامه
والعيسوي الذي يوما له رفعت * بين النبيين في الإشهاد أعلامه
وجاءه من أبيه كل رائحة * كالمسك في شمها بالوحي أعلامه
له الحياة فيحي من يشاء بها * فلا يموت ولا تفنيه أيامه
فلو تراه وقد جاءته آيته * تسعى لتظهر في الأكوان أحكامه
مواجها بلسان أنت قلت لهم * بأنك الله وهو الله علامة جوابه
قيل ما قد قيل فاعف ولا * تنظر لجرم الذي أرداه إجرامه
صلى عليه إله الخلق من رجل * أعطى وأعطى الذي أعطاه إكرامه

اعلم –أيدك الله بروح القدس– إنّا قد عرفناك إن العيسوي من الأقطاب هو الذي جمع له الميراثان الميراث الروحاني الذي يقع به الانفعال والميراث المحمدي ولكن من ذوق عيسى عليه السلام لا بد من ذلك وقد بينا مقاماتهم وأحوالهم فلنذكر في هذا الباب نبذا من أسرارهم فمنها أنهم إذا أرادوا أن يعطوا حالا من الأحوال التي هم عليها وهي تحت سلطانهم لما يرون في ذلك الشخص من الاستعداد إما بالكشف وإما بالتعريف الإلهي فيلمسون ذلك الشخص أو يعانقونه أو يقبلونه أو يعطونه ثوبا من لباسهم أو يقولون له ابسط ثوبك ثم يغرفون له مما يريدون أن يعطوه والحاضر ينظر أنهم يغرفون في الهواء ويجعلونه في ثوبه على قدر ما يحد لهم من الغرفات ثم يقولون له ضم ثوبك مجموع الأطراف إلى صدرك أو ألبسه على قدر الحال التي يحبون أن يهبوه إياها فأي شيء فعلوا من ذلك سرى ذلك الحال في ذلك الشخص المأمور المراد به من وقته لا يتأخر وقد رأينا ذلك لبعض شيوخنا جاء لأقوام من العامة فيقول لي هذا شخص عنده استعداد فيقرب منه

فإذا لمسه أو ضربه بصدره في ظهره قاصدا أن يهبه ما أراد سرى فيه ذلك الحال من ساعته وخرج مما كان فيه وانقطع إلى ربه وكان أيضا له هذه الحال مكي الواسطي المدفون بمكة تلميذ أزدشير كان إذا أخذه الحال يقول لمن يكون حاضرا معه عانقني أو تعرف الحاضر أمره فإذا رآه متلبسا بحاله عانقة فيسري ذلك الحال في هذا الشخص ويتلبس به شكى جابر بن عبد الله 7 لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يثبت على ظهر الفرس فضرب في صدره بيده فما سقط عن ظهر فرس بعد ونخس رسول الله صلى الله عليه وسلم مركوبا كان تحت بعض أصحابه بطيئا يمشي به في آخر الناس فلما نخسه لم يقدر صاحبه على إمساكه وكان يتقدم على جميع الركاب وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا بطيئا لأبي طلحة يوم أغير على سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق ذلك الفرس إنا وجدناه لبحرا فما سبق بعد ذلك وشكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو هريرة أنه ينسى ما يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له يا أبا هريرة ابسط رداءك فبسط أبو هريرة رداءه فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم غرفة من الهواء أو ثلاث غرفات وألقاها في رداء أبي هريرة وقال له ضم رداءك إلى صدرك فضمه إلى صدره فما نسي بعد ذلك شيئا يسمعه.

وهذا كلّه من هذا المقام فانظر في سر هذا الأمر أنه ما ظهر شيء من ذلك إلا بحركة محسوسة لإثبات الأسباب التي وضعها الله ليعلم أن الأمر الإلهي لا ينخرم وأنه في نفسه على هذا الحد فيعرف العارف من ذلك نسب الأسماء الإلهية وما ارتبط بها من وجود الكائنات وأن ذلك تقتضيه الحضرة الإلهية لذاتها فنصرف العالم المحقق بهذه الأمور والتنبيهات الإلهية على إن الحكمة فيما ظهر وأن ذلك لا يتبدل وأن الأسباب لا ترفع أبدا وكل من زعم أنه رفع سببا بغير سبب فما عنده علم لا بما رفع به ولا بما رفع فلم يمنح عبد شيئا أفضل من العلم والعمل به وهذه أحوال الأدباء من عباد الله تعالى ومن أسرارهم أيضا أنهم يتكلمون في فصول البلاغة في النطق ويعلمون إعجاز القرآن ولم يعلم منهم ولا حصل لهم من العلم بلسان العرب والتحقق به على الطريقة المعهودة من قراءة كتب الأدب ما يعلم أنهم حصل لهم ذلك من هذه الجهة بل كان ذلك لهم من الهبات الإلهية بطريق خاص يعرفونه من نفوسهم إذا أعطوا العبارة عن الذي يرد عليهم في بواطنهم من الحقائق وهم أميون وإن أحسنوا الكتابة من طريق النقش ولكن هم عوام الناس فينطقون بما هو خارج في المعتاد عن قوتهم إذ لم يكونوا من العرب وإن كانوا من العرب فلم يكونوا إلا

بالنسب لا باللسان فيعرف الإعجاز فيه منه فمن هنالك يعرف إعجاز القرآن وذلك قول الحق قيل لي في بعض الوقائع أتعرف ما هو إعجاز القرآن قلت لا قال كونه إخبارا عن حق التزم الحق يكن كلامك معجزا فإن المعارض للقرآن أول ما يكذب فيه أنه يجعله من الله وليس من الله فيقول على الله ما لا يعلم فلا يثمر ولا يثبت فإن الباطل زهوق لا ثبات له ثم يخبر في كلامه عن

(7)قوله جابر كذا بالأصل ولعل صوابه جرير اه مصححه

أمور مناسبة للسورة التي يريد معارضتها بأمور تناسبها في الألفاظ مما لم يقع ولا كانت فهي باطل والباطل عدم والعدم لا يقاوم الوجود والقرآن إخبار عن أمر وجودي حق في نفس الأمر فلا بد أن يعجز المعارض عن الإتيان بمثله فمن التزم الحق في أفعاله وأقواله وأحواله فقد امتاز عن أهل زمانه وعن كل من لم يسلك مسلكه فأعجز من أراد التصور على مقامه من غير حق ومن أسرارهم أيضا علم الطبائع وتأليفها وتحليلها ومنافع العقاقير يعلم ذلك منها كشفا خرج شيخنا أبو عبد الله الغزال كان بالمرية رحمه الله في حال سلوكه من مجلس شيخه أبي العباس بن العريف وكان ابن العريف أديب زمانه فهو بالأحرش بطريق الصماد حية إذ رأى أعشاب ذلك المرج كلها تخاطبه بمنافعها فتقول له الشجرة أو النجم خذني فإني أنفع لكذا وأدفع من المضار كذا حتى ذهل وبقي حائرا من نداء كل شجرة منها تحببا له وتقربا منه فرجع إلى الشيخ وعرفه بذلك فقال له الشيخ ما لهذا خدمتنا أين كان منك الضار النافع حين قالت لك الأشجار إنها نافعة ضارة فقال يا سيدي التوبة قال له الشيخ إن الله فتنك واختبرك فإني ما دللتك إلا على الله لا على غيره فمن صدق توبتك أن ترجع إلى ذلك الموضع فلا تكلمك تلك الأشجار التي كلمتك إن كنت صادقا في توبتك فرجع أبو عبد الله الغزال إلى الموضع فما سمع شيئا مما كان قد سمعه فسجد لله شكرا ورجع إلى الشيخ فعرفه فقال الشيخ الحمد لله الذي اختارك لنفسه ولم يدفعك إلى كون مثلك من أكوانه تشرف به وهو على الحقيقة يشرف بك فانظر همته رضي الله عنه وإذا علم أسرار الطبائع ووقف على حقائقها علم من الأسماء الإلهية التي علمها الله آدم عليه السلام نصفها وهي علوم عجيبة لما أطلعنا الله عليها من هذه الطريقة رأينا أمرا هائلا وعلمنا من سر الله في خلقه وكيف سر الاقتدار الإلهي في كل شئ فلا شئ ينفع إلا به ولا

يضر إلا به ولا ينطق إلا به ولا يتحرك إلا به وحجب العالم بالصور فنسبوا كل ذلك إلى أنفسهم وإلى الأشياء والله يقول يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله وكلامه حق وهو خبر ومثل هذه الأخبار لا يدخلها النسخ فلا فقر إلا إلى الله ففي هذه الآية تسمى الله بكل شئ يفتقر إليه ومن هذا الباب يكون الفقير من يفتقر إلى كل شئ ولا يفتقر إليه شئ فيتناول الأسباب على أوضاعها الحكمية لا يخل بشئ منها وهذا الذوق عزيز ما رأينا أحدا عليه فيمن رأيناه ولا نقل إلينا سماعا لا في المتقدم ولا في المتأخر لكن رأينا ونقل إلينا عن جماعة إثبات الأسباب وليس من هذا الباب فإن الذي نذكره ونطلبه سريان الألوهية في الأسباب أو تجليات الحق خلف حجاب الأسباب في أعيان الأسباب أو سريان الأسباب في الألوهية هذا هو الذي لم نجد له ذائقا إلا قول الله تعالى فهي الآية اليتيمة في القرآن لا يعرف قدرها إذ لا قيمة لها وكل ما لا قيمة له ثبت بالضرورة أنه مجهول القدر ولو اعتقدت فيه النفاسة ومن أسرارهم أيضا معرفة النشأتين في الدنيا وهي النشأة الطبيعية والنشأة الروحانية وما أصلهما ومعرفة النشأتين في الدار الآخرة الطبيعية والروحانية وما أصلهما ومعرفة النشأتين نشأة الدنيا ونشأة الآخرة فهي ستة علوم لا بد من معرفتها ومن أسرارهم أنه ما منهم شخص كمل له هذا المقام إلا ويوهب ستمائة قوة إلهية ورثها من جده الأقرب لأبيه فيفعل بها بحسب ما تعطيه فإن شاء أخفاها وإن شاء أظهرها والإخفاء أعلى فإن العبودة إنما تأخذ من القوي ما تستعين بها على أداء حق أوامر سيدها لثبوت حكم عبوديتها وكل قوة تخرجه عن هذا الباب بالقصد فليس هو مطلوبا لرجال الله فإنهم لا يزاحمون ذا القوة المتين فإن الله ما طلب منهم أن يطلبوا العون منه إلا في عبادته لا أن يظهروا بها ملوكا أربابا كما زعمت طائفة من أهل الكتاب ممن اتخذوا عيسى ربا قالوا إن محمدا يطلب منا أن نعبده كما عبدنا عيسى فأنزل الله –تعالى–: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلى الله ولا تشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾[1] * ومن أسرارهم أيضا أنهم لا يتعدون في معارجهم من حيث أبيهم السماء الثانية إلا أن يتوجهوا إلى الجد الأقرب فربما ينتهي بعضهم إلى السدرة المنتهى وهي المرتبة التي تنتهي إليها أعمال العباد لا تتعداها ومن هناك يقبلها الحق وهي برزخها إلى يوم القيامة الذي يموت فيه صاحب ذلك العمل ويكفي هذا القدر من علم أسرار هذه الجماعة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل انتهى الجزء العشرون.

1

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الباب الثّامن والثّلاثون
في معرفة من اطّلع على المقام المحمّدي
ولم يناله من الوقطاب

بين النبوة والولاية فارق * لكن لها الشرف الأتم الأعظم
يعنو لها الفلك المحيط بسرّه * وكذلك القلم العلي الأفخم
إن النبوة والرسالة كانتا * وقد انتهت ولها السّبيل الأقوم
وأقام بيتا للولاية محكما * في ذاته فله البقاء الأدوم
لا تطلبنه نهاية يسعى لها * فيكون عند بلوغه يتهدّم
صفة الدوام لذاته نفسية * فهو الولي فقهره متحكّم
يأوي إليه نبيه ورسوله * والعالم الأعلى ومَن هو أقدم

ثبت أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– قال إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي الحديث بكماله فهذا الحديث من أشد ما جرعت الأولياء مرارته فإنه قاطع للوصلة بين الإنسان وبين عبوديته وإذا انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين عبوديته من أكمل الوجوه انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين الله فإن العبد على قدر ما يخرج به عن عبوديته ينقصه من تقريبه من سيده، لأنّه يزاحمه في أسمائه وأقل المزاحمة الاسمية فأبقى علينا اسم الولي وهو من أسمائه سبحانه وكان هذا الاسم قد نزعه من رسوله وخلع عليه وسماه بالعبد والرسول ولا يليق بالله أن يسمى بالرسول فهذا الاسم من خصائص العبودية التي لا تصح أن تكون للرب وسبب إطلاق هذا الاسم وجود الرسالة والرسالة قد انقطعت فارتفع حكم هذا الاسم بارتفاعها من حيث نسبتها بها من الله ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في أمته من يجرع مثل هذا الكأس وعلم ما يطرأ عليهم في نفوسهم من الألم لذلك رحمهم فجعل لهم نصيبا ليكونوا بذلك عبيد العبيد فقال للصحابة ليبلغ

الشاهد الغائب فأمرهم بالتبليغ كما أمره الله بالتبليغ لينطلق عليهم أسماء الرسل التي هي مخصوصة بالعبيد وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها يعني حرفا حرفا وهذا لا يكون إلا لمن بلغ الوحي من قرآن أو سنة بلفظه الذي جاء به وهذا لا يكون إلا لنقلة الوحي من المقرئين والمحدثين ليس للفقهاء ولا لمن نقل الحديث على المعنى كما يراه سفيان الثوري وغيره نصيب ولا حظ فيه فإن الناقل على المعنى إنما نقل إلينا فهمه في ذلك الحديث النبوي ومن نقل إلينا فهمه فإنما هو رسول نفسه ولا يحشر يوم القيامة فيمن بلغ الوحي كما سمعه وأدى الرسالة كما يحشر المقرئ والمحدث الناقل لفظ الرسول عينه في صف الرسل عليهم السلام فالصحابة إذا نقلوا الوحي على لفظه فهم رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون رسل الصحابة وهكذا الأمر جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة فإن شئنا قلنا في المبلغ إلينا أنه رسول الله وإن شئنا أضفناه لمن بلغ عنه وإنما جوزنا حذف الوسائط لأن رسول الله كان يخبره جبريل عليه السلام وملك من الملائكة ولا نقول فيه رسول جبريل وإنما نقول فيه رسول الله كما قال الله تعالى محمد رسول الله والذين معه وقال عز وجل ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله مع قوله نزل به الروح الأمين على قلبك ومع هذا فما أضافه الله إلا إلى نفسه فهذا القدر بقي لهم من العبودية وهو خير عظيم أمتن به عليهم ومهما لم ينقله الشخص بسنده متصلا غير منقطع فليس له هذا المقام ولا شم له رائحة وكان من الأولياء المزاحمين الحق في الاسم الولي فنقصه من عبوديته بقدر هذا الاسم فلهذا اسم المحدث بفتح الدال أولى به من اسم الولي فإن مقام الرسالة لا يناله أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بقدر ما بيناه فهو الذي أبقاه الحق تعالى علينا ومن هنا تعرف مقام شرف العبودية وشرف المحدثين نقلة الوحي بالرواية ولهذا اشتد علينا غلق هذا الباب وعلمنا إن الله قد طردنا من حال العبودية الاختصاصية التي كان ينبغي لنا أن نكون عليها وأما النبوة فقد بينا هالك فيما تقدم في باب معرفة الأفراد وهم أصحاب الركاب ثم إنه تعالى من باب طردنا من العبودة ومقامها قال تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ومن نحن حتى تقع القسمة بيننا وبينه وهو السيد الفاعل المحرك الذي يقولنا في قولنا إياك نعبد وأمثال ذلك مما أضافه إلينا وقد علمنا أن نواصينا بيده في قيامنا وركوعنا وسجودنا وجلوسنا وفي نطقنا يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي تفضلا منه فإنه من قوله بهذه اللفظة وما قدره حتى يقول السيد قال عبدي وقلت له هذا حجاب

مسدل فينبغي للعبد أن يعرف أن لله مكرا خفيا في عباده وكل أحد يمكر به على قدر علمه بربه فيأخذ هذا التكريم الإلهي ابتداء من الله مدرجا في نعمة فإذا صلى وتلا قال الحمد لله يقولها حكاية من حيث ما هو مأمور بها لتصح عبوديته في صلاته ولا ينتظر الجواب ولا يقول ليجاب بل يشتغل بما كلفه سيده به من العمل حتى يكون ذلك الجواب والإنعام من السيد لا من كونه قال فإن القائل على الحقيقة خالق القول فيه فنسلم من هذا المكر وإن كان منزلة رفيعة ولكن بالنظر إلى من هو في غير هذه المنزلة ممن نزل عنها فما ورثنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المقام الذي أغلق بابه دوننا إلا ما ذكرناه من عناية الحق بمن كشف له عن ذلك ورزقه علم نقل الوحي بالرواية من كتاب وسنة فما أشرف مقام أهل الرواية من المقرئين والمحدثين جعلنا الله ممن اختص بنقله من قرآن وسنة فإن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته والحديث مثل القرآن بالنص فإنه صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وممن تحقق بهذا المقام معنا أبو يزيد البسطامي كشف له منه بعد السؤال والتضرع قدر خرق الإبرة فأراد أن بضع قدمه فيه فاحترق فعلم أنه لا ينال ذوقا وهو كمال العبودة وقد حصل لنا منه صلى الله عليه وسلم شعرة وهذا كثير لمن عرف فما عند الخلق منه إلا ظله ولما أطلعني الله عليه لم يكن عن سؤال وإنما كان عن عناية من الله ثم إنه أيدني فيه بالأدب رزقا من لدنه وعناية من الله بي فلم يصدر مني هناك ما صدر من أبي يزيد بل اطلعت عليه وجاء الأمر بالرقي في سلمة فعلمت إن ذلك خطاب ابتلاء وأمر ابتلاء لا خطاب تشريف على أنه قد يكون بعض الابتلاء تشريفا فتوقفت وسألت الحجاب فعلم ما أردت فوضع الحجاب بيني وبين المقام وشكر لي ذلك فمنحني منه الشعرة التي ذكرناها اختصاصا إلهيا فشكرت الله على الاختصاص بتلك الشعرة غير طالب بالشكر الزيادة وكيف أطلب الزيادة من ذلك وأنا أسأل الحجاب الذي هو من كمال العبودية فسرت في العبودة وظهر سلطانها وحيل بيني وبين مرتبة السيادة لله الحمد على ذلك وكم طلبت إليها وما أجبت وهكذا إن شاء الله أكون في الآخرة عبدا محضا خالصا ولو ملكني جميع العالم ما ملكت منه إلا عبوديته خاصة حتى يقوم بذاتي جميع عبودية العالم وللناس في هذا مراتب فالذي ينبغي للعبد أن لا يزيد على هذا الاسم غيره فإن أطلق الله ألسنة الخلق عليه بأنه ولي الله ورأى أن الله قد أطلق عليه اسما أطلقه تعالى على نفسه فلا يسمعه ممن يسميه به إلا على أنه بمعنى المفعول لا بمعنى الفاعل حتى يشم فيه رائحة العبودية فإن بنية فعيل قد تكون بمعنى الفاعل وإنما قلنا هذا من أجل

ما أمرنا أن نتخذه سبحانه وكيلا فيما هو له مما نحن مستخلفون فيه فإن في مثل هذا مكرا خفيا فتحفظ منه ويكفي من التنبيه الإلهي العاصم من المكر كونك مأمورا بذلك فامتثل أمره واتخذه وكيلا لا تدعى الملك فإن الله تولاك فإنه قال وهو يتولى الصالحين واسم الصالح من خصائص العبودية ولهذا وصف محمد صلى الله عليه وسلم نفسه بالصلاح فإنه ادعى حالة لا تكون إلا للعبيد الكمل فمنهم من شهد له بها الحق عز وجل بشرى من الله فقال في عبده يحيى عليه السلام نبيا من الصالحين وقال في نبيه عيسى عليه السلام وكهلا ومن الصالحين وقال في إبراهيم عليه السلام وإنه في الآخرة لمن الصالحين من أجل الثلاثة الأمور التي صدرت منه في الدنيا وهي قوله عن زوجته سارة إنها أخته بتأويل وقوله إني سقيم اعتذارا وقوله بل فعله كبيرهم إقامة حجة فبهذه الثلاثة يعتذر يوم القيامة للناس إذا سألوه أن يسأل ربه فتح باب الشفاعة فلهذا ذكر صلاحه في الآخرة إذ لم يؤاخذه بذلك كما قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقال عفا الله عنك لم أذنت لهم فقدم البشرى قبل العتاب وهذه الآية عندنا بشرى خاصة ما فيها عتاب بل هو استفهام لمن أنصف وأعطى أهل العلم حقهم وأما سليمان وأمثاله عليهم السلام فأخبرنا الحق أنه قال وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين وإن كانوا صالحين في نفس الأمر عند الله فهم بين سائل في الصلاح ومشهود له به مع كونه نعتا عبوديا لا يليق بالله فما ظنك بالاسم الولي الذي قد تسمى الله به بمعنى الفاعل فينبغي أن لا ينطلق ذلك الاسم على العبد وإن أطلقه الحق عليه فذلك إليه تعالى ويلزم الإنسان عبوديته وما يختص به من الأسماء التي لم تنطلق قط على الحق لفظا فيما أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم فلما أنزل الله تعالى على عبده محمد صلى الله عليه وسلم هذه الآية ليعرف الناس بها فكان الله حكى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا بد له أن يقوله ويتلفظ به فجعله تعالى قرآنا يتلى إذ كان ذلك من خصائص العبيد في نفس الأمر فقال تعالى إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين فشهد له بالصلاح إذا كان الحق حاكيا في هذه الآية وإن كان آمرا فيكون من المشهودين لهم بالصلاح فعرفنا إن الله تولاه وأخبرنا أن الله يتولى الصالحين فشهد لنفسه بالصلاح بالوجه الذي ذكرناه ولم ينقل ذلك عن غيره بل نقل ما يقاربه من قول عيسى عليه السلام إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا يقول الله تعالى تلك الرسل فضلنا

بعضهم على بعض أي فكذلك أنت فكان من فضله نيل مثل هذا المقام فاحفظ يا ولي نفسك في التخلق بأسماء الله الحسنى فإن العلماء لم يختلفوا في التخلق بها فإذا وفقت للتخلق بها فلا تغب في ذلك عن شهود آثارها فيك ولتكن فيها ومعها بحكم النيابة عنها فتكون مثل اسم الرسول لا تشارك الحق في إطلاق اسم عليك من أسمائه بذلك المعنى وألزم الأدب وقل رب زدني علما والله يقول الحق وهو يهدي السبيل (الباب التاسع والثلاثون في معرفة المنزل الذي يحط إليه الولي إذا طرده الحق تعالى من جواره) إذا حط الولي فليس إلا * عروج وارتقاء في علو فإن الحق لا تقييد فيه * ففي عين النوى عين الدنو فحال المجتبى في كل حال * سمو في سمو في سمو فلا حكم عليه بكل وجه * ولا تأثير فيه للعلو اعلم أيدك الله بروح منه إن الله تعالى يقول لإبليس اسجد لآدم فظهر الأمر فيه وقال لآدم وحواء لا تقربا هذه الشجرة فظهر النهي فيهما والتكليف مقسم بين أمر ونهي وهما محمولان على الوجوب حتى تخرجهما عن مقام الوجوب قرينة حال وإن كان مذهبنا فيهما التوقيف فتعين امتثال الأمر والنهي وهذا أول أمر ظهر في العالم الطبيعي وأول نهي وقد أعلمناك أن الخاطر الأول وأن جميع الأوليات لا تكون إلا ربانية ولهذا تصدق ولا تخطئ أبدا ويقطع به صاحبه فسلطانه قوي ولما كان هذا أول أمر ونهي لذلك وقعت العقوبة عند المخالفة ولم يمهل فإذا جاءت الأوامر بالوسائط لم تقو قوة الأول وهي الأوامر الواردة إلينا على ألسنة الرسل وهي على قسمين إما ثوان وهو ما يلقي الله إلى نبيه في نفسه من غير واسطة الملك فيصل إلينا الأمر الإلهي وقد جاز على حضرة كونية فاكتسب منه حالة لم يكن عليها فإن الأسماء الإلهية تلقته في هذه الحضرة الكونية فشاركته بأحكامها في حكمه وإما أن ينزل عليه بذلك الأمر الملك فيكون الأمر الإلهي قد جاز على حضرتين من الكون جبريل وأي ملك كان وأي نبي كان فيكون فعله وأثره في القوة دون الأول والثاني فلذلك لم تقع المؤاخذة معجلة فأما إمهال إلى الآخرة وإما غفران فلا يؤاخذ بذلك أبدا وفعل الله ذلك رحمة بعباده كما أنه تعالى خص النهي بآدم وحواء والنهي ليس بتكليف عملي فإنه يتضمن أمرا عدميا وهو لا تفعل ومن حقيقة الممكن أنه لا يفعل فكأنه قيل له لا تفارق أصلك والأمر ليس كذلك فإنه يتضمن أمرا وجوديا وهو أن يفعل فكأنه قيل له أخرج عن أصلك فالأمر أشق على النفس من النهي إذ كلف الخروج عن أصله فلو أن إبليس لما عصى ولم يسجد لم يقل ما قال من التكبر والفضيلة التي نسبها إلى نفسه على غيره فخرج عن عبوديته بقدر ذلك فحلت به عقوبة الله وكانت

العقوبة لآدم وحواء لما تكلفا الخروج عن أصلهما وهو الترك وهو أمر عدمي بالأكل وهو أمر وجودي فشرك الله بين إبليس وآدم وحواء في ضمير واحد وهو كان أشد العقوبة على آدم فقيل لهم اهبطوا بضمير الجماعة ولم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحواء وإنما كان عقوبة لإبليس فإن آدم أهبط لصدق الوعد بأن يجعل في الأرض خليفة بعد ما تاب عليه واجتباه وتلقى الكلمات من ربه بالاعتراف فاعترافه عليه السلام في مقابلة كلام إبليس أنا خير منه فعرفنا الحق بمقام الاعتراف عند الله وما ينتجه من السعادة لنتخذه طريقا في مخالفتنا وعرفنا بدعوى إبليس ومقالته لنحذر من مثلها عند مخالفتنا وأهبطت حواء للتناسل وأهبط إبليس للاغواء فكان هبوط آدم وحواء هبوط كرامة وهبوط إبليس هبوط خذلان وعقوبة واكتساب أو زار فإن معصيته كانت لا تقتضي تأبيد الشقاء فإنه لم يشرك بل افتخر بما خلقه الله عليه وكتبه شقيا ودار الشقاء مخصوصة بأهل الشرك فأنزله الله إلى الأرض ليسن الشرك بالوسوسة في قلوب العباد فإذا أشركوا وتبرأ إبليس من المشرك ومن الشرك لم ينفعه تبريه منه فإنه هو الذي قال له أكفر كما أخبر الله تعالى فحار عليه وزر كل مشرك في العالم وإن كان موحدا فإنه من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها فإن الشخص الطبيعي كإبليس وبني آدم لا بد أن يتصور في نفسه مثال ما يريد أن يبرزه فما سن الشرك ووسوس به حتى تصوره في نفسه على الصورة التي إذا حصلت في نفس المشرك زالت عنه صورة التوحيد فإذا تصورها في نفسه بهذه الصورة فقد خرج التوحيد عن تصوره في نفسه ضرورة فإن الشريك متصور له في نفسه إلى جانب الحق الذي في نفسه متخيلا أعني من العلم بوجوده فما تركه في نفسه وحده فكان إبليس مشركا في نفسه بلا شك ولا ريب ولا بد أن يحفظ في نفسه بقاء صورة الشريك ليمد بها المشركين مع الأنفاس فإنه خائف منهم أن تزول عنهم صفة الشرك فيوحدوا الله فيسعدوا فلا يزال إبليس يحفظ صورة الشرك في نفسه ويراقب بها قلوب المشركين الكائنين في الوقت شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ويرد بها الموحدين في المستقبل إلى الشرك ممن ليس بمشرك فلا ينفك إبليس دائما على الشرك فبذلك أشقاه الله لأنه لا يقدر أن يتصور التوحيد نفسا واحدا لملازمته هذه الصفة وحرصه على بقائها في نفس المشرك فإنها لو ذهبت من نفسه لم يجد المشرك من يحدثه في نفسه بالشرك فيذهب الشرك عنه ويكون إبليس لا يتصور الشريك لأنه قد زالت عن نفسه صورة الشريك فيكون لا يعلم أن ذلك المشرك قد زال عن إشراكه فدل إن الشريك يستصحب إبليس دائما فهو أول مشرك بالله وأول من سن الشرك وهو أشقى العالمين

فلذلك يطمع في الرحمة من عين المنة ولهذا قلنا إن العقوبة في حق آدم إنما كانت في جمعه مع إبليس في الضمير حيث خاطبهم الحق بالهبوط بالكلام الذي يليق بجلاله ولكن لا بد أن يكون في الكلام الصفة التي يقتضيها لفظ الضمير فإن صورة اللفظ يطلب المعنى الخاص وهذه طريقة لم تجعل العلماء بالها من ذلك وإنما ذكرنا مسألة آدم تأنيسا لأهل الله تعالى إذا زالوا فحطوا عن مقامهم أن ذلك الانحطاط لا يقضي بشقائهم ولا بد بل يكون هبوطهم كهبوط آدم فإن الله لا يتحيز ولا يتقيد وإذا كان الأمر على هذا الحد وكان الله بهذه الصفة من عدم التقييد فيكون عين هبوط الولي عند الزلة وما قام به من الذلة والحياء والانكسار فيها عين الترقي إلى أعلى مما كان فيه لأن علوه بالمعرفة والحال وقد يزيد من العلم بالله ما لم يكن عنده ومن الحال وهو الذلة والانكسار ما لم يكن عليهما وهذا هو عين الترقي إلى مقام أشرف فإذا فقد الإنسان هذه الحالة في زلته ولم يندم ولا انكسر ولا ذل ولا خاف مقام ربه فليس من أهل هذه الطريقة بل ذلك جليس إبليس بل إبليس أحسن حالا منه لأنه يقول لمن يطيعه في الكفر إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين ونحن إنما نتكلم على زلات أهل الله إذا وقعت منهم قال تعالى ولم يصروا على ما فعلوا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الندم توبة وإنما الإنسان الولي إذا كان في المقام الذي كان والحال التي كان عليها ملتذا بها فلذته إنما كانت بحاله فإن الله يتعالى أن يلتذ به فلما زل وعرته حالة الذلة والانكسار زالت ضرورة الحالة التي كان يلتذ بوجودها وهي حالة الطاعة والموافقة فلما فقدها نخيل أنه انحط من عين الله وإنما تلك الحالة لما زالت عنه انحط عنها إذ كانت حالة تقتضي الرفعة وهو الآن في معراج الذلة والندم والافتقار والانكسار والاعتراف والأدب مع الله تعالى والحياء منه فهو يترقى في هذا المعراج فيجد هذا العبد في غاية هذا المعراج حالة أشرف من الحالة التي كان عليها فعند ذلك يعلم أنه ما انحط وأنه ترقي من حيث لا يشعر أنه في ترق وأخفى الله ذلك عن أوليائه لئلا يجترءوا عليه في المخالفات كما أخفى الاستدراج فيمن أشقاه الله فقال سنستدرجهم من حيث لا يعلمون فهم كما قال الله تعالى فيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا كذلك أخفى سبحانه تقريبه وعنايته فيمن أسعده الله بما شغله الله به من البكاء على ذنبه ومشاهدته زلته ونظره إليها في كتابه وذهل عن إن ذلك الندم يعطيه الترقي عند الله فإنه ما بشره بقبول التوبة فهو متحقق وقوع الزلة حاكم عليه الانكسار والحياء مما وقع فيه وإن لم يؤاخذه الله بذلك الذنب فكان الاستدراج حاصلا في الخير والشر وفي السعداء والأشقياء ولقيت بمدينة فاس رجلا

عليه كآبة كأنه يخدم في الأتون فسألت أبا العباس الحصار وكان من كبار الشيوخ عنه فإني رأيته يجالسه ويحن إليه فقال لي هذا رجل كان في مقام فانحط عنه فكان في هذا المقام وكان من الحياء والانكسار بحالة وجبت عليه السكوت عن كلام الخلق فما زلت ألاطفه بمثل هذه الأدوية وأزيل عنه مرض تلك الزلة بمثل هذا العلاج وكان قد مكنني من نفسه فلم أزل به حتى سرى ذلك الدواء في أعضائه فأطلق محياه وفتح له في عين قلبه باب إلى قبوله ومع هذا فكان الحياء يستلزمه وكذلك ينبغي أن تكون زلات الأكابر غالبا نزولهم إلى المباحات لا غير وفي حكم النادر تقع منهم الكبائر قيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه أيعصي العارف فقال وكان أمر الله قدرا مقدورا يريد أن معصيتهم بحكم القدر النافذ فيهم لا أنهم يقصدون انتهاك حرمات الله هم بحمد الله إذا كانوا أولياء عند الله تعالى وجل معصومون في هذا المقام فلا تصدر منهم معصية أصلا انتهاكا لحرمة الله كمعاصي الغير فإن الايمان المكتوب في القلوب يمنع من ذلك فمنهم من يعصي غفلة ومنهم من يخالف على حضور عن كشف إلهي قد عرفه الله فيه ما قدره عليه قبل وقوعه فهو على بصيرة من أمره وبينة من ربه وهذه الحالة بمنزلة البشرى في قوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقد أعلمه بالذنوب الواقعة المغفورة فلا حكم لها ولا لسلطانها فيه فإنه إذا جاء وقت ظهورها يكون في صحبتها الاسم الغفار فتنزل بالعبد ويحجب الغفار حكمها فتكون بمنزلة من يلقي في النار ولا يحترق كإبراهيم عليه السلام فكان في النار ولا حكم لها فيه بالحجاب الذي هو المانع كذلك زلة العارف صاحب مقام الكشف للأقدار تحل به النازلة وحكمها بمعزل عنها فلا تؤثر في مقامه بخلاف من تحل فيه وهو على غير بينة ولا بصيرة بما قدر عليه فهذا يستلزمه الحياء والندم والذلة وذلك ليس كذلك وهنا أسرار إلهية لا يسعنا التعبير عنها وبعد أن فهمناك مراتبهم في هذا المقام وفرقنا لك بين معصية العارفين وبين معاصي العامة من علماء الرسوم ومقلديهم فاعلم أنه حكي عن بعضهم أنه قال اقعد على البساط يريد بساط العبادة وإياك والانبساط أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودة من حيث إنها مكلفة بأمور حدها له سيدها فإنه لولا تلك الأمور لاقتضي مقامها الإدلال والفخر والزهو من أجل مقام من هو عبد له ومنزلته كما زها يوما عتبة الغلام وافتخر فقيل له ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك مما لم يكن يعرف قبل ذلك منك فقال وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبدا فما قبض العبيد من الإدلال وأن يكونوا في الدنيا مثل ما هم في الآخرة إلا التكليف فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها فإذا لم يبق لهم

شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية وذلك لا يكون إلا في الدار الآخرة فإن التكليف لهم مع الأنفاس في الدار الدنيا فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله ولا يبلغ درجة غيره ممن ليس له إدلال أبدا فإنه فاتته أنفاس كثيرة في حال إدلاله غاب عما يجب عليه فيها من التكليف الذي يناقض الاشتغال به الإدلال فليست الدنيا بدار إدلال ألا ترى عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدار ذلك القدر الزماني وضع خده في الأرض واعترف بأن الذي هو فيه الآن هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار وسبب ذلك أنه كان في أوقات صاحب إدلال لما كان الحق يعرفه به من حوادث الأكوان وعصم الله أبا السعود تلميذه من ذلك الإدلال فلازم العبودية المكلفة مع الأنفاس إلى حين موته فما حكي أنه تغير عليه الحال عند موته كما تغير على شيخه عبد القادر وحكى لنا الثقة عندنا قال سمعته يقول طريق عبد القادر في طرق الأولياء غريب وطريقنا في طرق عبد القادر غريب رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم والله يعصمنا من المخالفات وإن كانت قدرت علينا فالله أسأل أن يجعلنا في ارتكابها على بصيرة حتى يكون لنا بها ارتقاء درجات والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الربعون

في معرفة منزل مجاور لعلم جزئي من علوم الكون ونتيجته وغرائبه وأقطابه

نظم يتضمن ما ترجمنا عليه مجاور علم الكون علم إلهي * يقول الذي يعطاه كشف حقيقي
وما هو من علم البرازخ خالص * وما هو علوي وما هو سفلي
له في العلى وجه غريب محقق * وفي السفل وجه بالحقائق علوي
وليس الذي يدريه ملك مخلص * ولا هو جني ولا هو إنسي
ولكنها الأعيان لما تألفت * بدا لك شكل مستفاد كياني
فقل فيه ما تهواء يقبله أصله * فلست تراه وهو للعين مرئي
فما هو محكوم وليس بحاكم * فما هو غيبي وما هو حسي
تنزه عن حصر الجهات ضياؤه * فلا هو شرقي ولا هو غربي
فسبحان من أخفى عن العين ذاته * ويسرى مثال منه فينا اتصالي
نراه إذا كنا وما هو عينه * ولكنه كشف صحيح خيالي
تجلى لرأي العين في كل صورة * فذلك مقصودي بقولي مثالي

اعلم –أيّدك الله– بروح القدس أنّ هذا المنزل منزل الكمال، وهو مجاور منزل الجلال والجمال هو من أجل المنازل والنّازل فيه أتم نازل.

اعلم أنّ خرق العوائد على ثلاثة أقسام قسم منها يرجع إلى ما يدركه البصر أو بعض القوي على حسب ما يظهر لتلك القوة ممّا ارتبطت في العادة بإدراكه وهو في نفسه على غير ما أدركته تلك القوّة مثل قوله –تعالى– يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى.

وهذا القسم داخل تحت قدرة البشر وهو على قسمين منه ما يرجع إلى قوة نفسيّة ومنه ما يرجع إلى خواص أسماء إذا تلّفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصّور في عين الرّائي أو في سمعه خيالا وما ثم في نفس الأمر أعني في المحسوس شيء من صورة مرئيّة ولا مسموعة

وهو فعل الساحر وهو على علم أنه ما ثم شيء مما وقع في الأعين والأسماع والقسم الآخر الذي هو قوة نفسية يكون عنها فيما تراه العين أو أي إدراك كان ما كان من الأمر الذي ظهر عن خواص الأسماء والفرق بينهما إن الذي يفعله بطريق الأسماء وهو الساحر يعلم أنه ما ثم شيء من خارج وإنما لها سلطان على خيال الحاضرين فتخطف أبصار الناظرين فيرى صورا في خياله كما يرى النائم في نومه وما ثم في الخارج شيء مما يدركه وهذا القسم الآخر الذي للقوة النفسية منهم من يعلم أنه ما ثم شيء في الخارج ومنهم من لا يعلم ذلك فيعتقد إن الأمر كما رآه ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب مقامات الأولياء في باب الكرامات منه أن عليما الأسود وكان من أكابر أهل الطريق إن بعض الصالحين اجتمع به في قصة أدته إلى أن ضرب عليم الأسود إلى أسطوانة كانت قائمة في المسجد من رخام فإذا هي كلها ذهب فنظر إليها الرجل أسطوانة ذهب فتعجب فقال له يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك وهي غير ذلك فخرج من كلامه فيما يظهر لمن لا علم له بالأشياء ببادي الرأي أو من أول نظر أن الأسطوانة حجر كما كانت وليست ذهبا إلا في عين الرائي ثم إن الرجل أبصرها بعد ذلك حجرا كما كانت أول مرة قال –تعالى– في عصا موسى –عليه السّلام– وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي ثم قال ألقها يا موسى فألقاها من يده في الأرض فإذا هي حية تسعى فلما خاف موسى عليه السلام منها على مجرى العادة في النفوس أنها تخاف من الحيات إذا فاجأتها لما قرن الله بها من الضرر لبني آدم وما علم موسى مراد الله في ذلك ولو علمه ما خاف فقال الله تعالى له خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى أي ترجع عصا كما كانت أو ترجع تراها عصا كما كانت فالآية محتملة فإنّ الضمير الذي في قوله عز وجل سنعيدها سيرتها الأولى إذا لم تكن عصا في حال كونها في نظر موسى حيّة لم يجد الضمير على من يعود كما إنّ الإنسان إذا عودك أمرا ما، وهو أنّه كان يحسن إليك ثمّ أساء إليك فتقول له قد تغيرت سيرتك معي ما أنت هو ذاك الذي كان يحسن إلي ومعلوم أنه هو فيقال له سيعود معك إلى سيرته الأولى من الإحسان إليك، وهو في صورته ما تغيّر ولكن تغير عليك فعله معك وقدم الله هذا لموسى –عليه السّلام– توطئة لما سبق في علمه سبحانه أن السحرة تظهر لعينه مثل هذا فيكون عنده علم من ذلك حتى لا يذهل ولا يخاف إذا وقع منهم عند إلقائهم حبالهم وعصيهم وخيل إلى موسى أنها تسعى يقول له فلا تخف إذا رأيت ذلك منهم يقوى جأشه فلما وقع من السحرة ما وقع مما ذكر الله لنا في كتابه وامتلأ

الوادي من حبالهم وعصيهم ورآها موسى فيما خيل له حيات تسعى أو جسر في نفسه خيفة موسى فلم يكن نسبة الخوف إليه في هذا الوقت نسبة الخوف الأول فإن الخوف الأول كان من الحية فولى مدبرا ولم يعقب حتى أخبره الله تعالى وكان هذا الخوف الآخر الذي ظهر منه للسحرة على الحاضرين لئلا تظهر عليه السحرة بالحجة فيلتبس الأمر على الناس ولهذا قال الله له لا تخلف إنك أنت الأعلى ولما ظهر للسحرة خوف موسى مما رآه وما علموا متعلق هذا الخوف أي شئ هو علموا أنه ليس عند موسى من علم السحر شئ فإن الساحر لا يخاف مما يفعله لعلمه أنه لا حقيقة له من خارج وأنه ليس كما يظهر لا عين الناظرين فأمر الله موسى أن يلقي عصاه وأخبر أنها تلقف ما صنعوا فلما ألقى موسى عصاه فكانت حية علمت السحرة بأجمعها مما علمت من خوف موسى أنه لو كان ذلك منه وكان ساحرا ما خاف ورأوا عصاه حية حقيقة علموا عند ذلك أنه أمر غيب من الله الذي يدعوهم إلى الايمان به وما عنده من علم السحر خبر فتلقفت تلك الحية جميع ما كان في الوادي من الحبال والعصي أي تلقفت صور الحيات منها فبدت حبالا وعصيا كما هي وأخذ الله بأبصارهم عن ذلك فإن الله يقول تلقف ما صنعوا وما صنعوا الحبال ولا العصي وإنما صنعوا في أعين الناظرين صور الحيات وهي التي تلقفت عصا موسى فتنبه لما ذكرت لك فإن المفسرين ذهلوا عن هذا الإدراك في أخبار الله تعالى فإنه ما قال تلقف حبالهم وعصيهم فكانت الآية عند السحرة خوف موسى وأخذ صور الحيات من الحبال والعصي وعلموا إن الذي جاء به موسى من عند الله فآمنوا بما جاء به موسى عن آخرهم وخروا سجدا عند هذه الآية وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون حتى يرتفع الالتباس فإنهم لو وقفوا على العالمين لقال فرعون أنا رب العالمين إياي عنوا فزادوا رب موسى وهرون أي الذي يدعو إليه موسى وهارون فارتفع الإشكال فتوعدهم فرعون بالعذاب فآثروا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة وكان من كلامهم ما قص الله علينا وأما العامة فنسبوا ما جاء به موسى إلى أنه من قبيل ما جاءت به السحرة إلا أنه أقوى منهم وأعلم بالسحر بالتلقف الذي ظهر من حية عصا موسى عليه السلام فقالوا هذا سحر عظيم ولم تكن آية موسى عند السحرة إلا خوفه وأخذ صور الحيات من الحبال والعصي خاصة فمثل هذا خارج عن قوة النفس وعن خواص الأسماء لوجود الخوف الذي ظهر من موسى في أول مرة فكان الفعل من الله ولما واقع السحرة اللبس على أعين الناظرين بتصيير الحبال والعصي حيات في نظرهم أراد الحق أن يأتيهم من بابهم الذي يعرفونه كما قال تعالى

وللبسنا عليهم ما يلبسون فإن الله يراعي في الأمور المناسبات فجعل العصا حية كحيات عصيهم في عموم الناس ولبس على السحرة بما أظهر من خوف موسى فتخيلوا أنه خاف من الحيات وكان موسى في نفس الأمر غير خائف من الحيات لما تقدم له في ذلك من الله في الفعل الأول حين قال له خذها ولا تخف فنهاه عن الخوف منها وأعلمه أن ذلك آية له فكان خوفه الثاني على الناس لئلا يلتبس عليهم الدليل والشبهة والسحرة تظن أنه خاف من الحيات فلبس الله عليهم خوفه كما لبسوا على الناس وهذا غاية الاستقصاء الإلهي في المناسبات في هذا الموطن لأن السحرة لو علمت إن خوف موسى من الغلبة بالحجة لما سارعت إلى الايمان ثم إنه كان لحية موسى التلقف ولم يكن لحياتهم تلقف ولا أثر لأنها حبال وعصى في نفس الأمر فهذا المنزل الذي ذكرناه في هذا الباب أنه مجاور لعلم جزئي من علوم الكون هو هذا العلم الجزئي علم المعجزات لأنه ليس عن قوة نفسية ولا عن خواص أسماء فإن موسى عليه السلام لو كان انفعال العصا حية عن قوة همية أو عن أسماء أعطيها ما ولى مدبرا ولم يعقب خوفا فعلمنا إن ثم أمورا تختص بجانب الحق في علمه لا يعرفها من ظهرت على يده تلك الصورة فهذا المنزل مجاور لما جاءت به الأنبياء من كونه ليس عن حيلة ولم يكن مثل معجزات الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء لا علم لهم بذلك وهؤلاء ظهر ذلك عنهم بهمتهم أو قوة نفسهم أو صدقهم قل كيف شئت فلهذا اختصت باسم الكرامات ولم تسم معجزات ولا سميت سحرا فإن المعجزة ما يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها إما صرفا وإما أن تكون ليست من مقدورات البشر العدم قوة النفس وخواص الأسماء وتظهر على أيديهم وإن السحر هو الذي يظهر فيه وجه إلى الحق وهو في نفس الأمر ليس حقا مشتق من السحر الزماني وهو اختلاط الضوء والظلمة فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح وهو ليس بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار فكذلك هذا الذي يسمى سحرا ما هو باطل محقق فيكون عدما فإن العين أدركت أمرا ما لا تشك فيه وما هو حق محض فيكون له وجود في عينه فإنه ليس في نفسه كما تشهده العين ويظنه الرائي وكرامات الأولياء ليست من قبيل السحر فإن لها حقيقة في نفسها وجودية وليست بمعجزة فإنه على علم وعن قوة همة وأما قول عليم لحقيقتك بربك تراها ذهبا فإن الأعيان لا تنقلب وذلك لما رآه قد عظم ذلك الأمر عند ما رآه فقال له العلم بك أشرف مما رأيت فاتصف بالعلم فإنه أعظم من كون الأسطوانة كانت ذهبا في نفس الأمر فأعلمه إن الأعيان لا تنقلب وهو صحيح في نفس الأمر أي أن الحجرية لم ترجع

ذهبا فإن حقيقة الحجرية قبلها هذا الجوهر كما قبل الجسم الحرارة فقيل فيه إنه حار فإذا أراد الله أن يكسو هذا الجوهر صورة الذهب خلع عنه صورة الحجر وكساه صورة الذهب فظهر الجوهر أو الجسم الذي كان حجرا ذهبا كما خلع عن الجسم الحار الحرارة وكساه البرد فصار باردا فما انقلبت عين الحرارة برودة والجسم البارد بعينه هو الذي كان حارا فما انقلبت الأعيان كذلك حكاية عليم الجوهر الذي قبل صورة الذهب عند الضرب هو الذي كان قد قبل صورة الحجر والجوهر هو الجوهر بعينه فالحجر ما عاد ذهبا ولا الذهب عاد حجرا كما إن الجوهر الهيولاني قبل صورة الماء فقيل هو ماء بلا شك فإذا جعلته في القدر وأغليتها على النار إلى أن يصعد بخارا فتعلم قطعا إن صورة الماء زالت عنه وقبل صورة البخار فصار يطلب الصعود لعنصره الأعظم كما كان إذ قامت به صورة الماء يطلب عنصره الأعظم فيأخذ سفلا فهدا معنى قول عليم في هذا المنزل المختص بالأولياء والهمة المجاورة لعلم المعجزة أن الأعيان لا تنقلب وقوله لحقيقتك بربك أي إذا اطلعت إلى حقيقتك وجدت نفسك عبدا محضا عاجزا ميتا ضعيفا عدما لا وجود لك كمثل هذا الجوهر ما لم يلبس الصور لم يظهر له عين في الوجود فهذا العبد يلبس صور الأسماء الإلهية فتظهر بها عينه فأول اسم يلبسه الوجود فيظهر موجودا لنفسه حتى يقبل جميع ما يمكن أن يقبله الموجود من حيث ما هو موجود فيقبل جميع ما يخلع عليه الحق من الأسماء الإلهية فيتصف عند ذلك بالحي والقادر والعليم والمريد والسميع والبصير والمتكلم والشكور والرحيم والخالق والمصور وجميع الأسماء كما اتصف هذا الجسم بالحجر والذهب والفضة والنحاس والماء والهواء ولم تزل حقيقة الجسمية عن كل واحد مع وجود هذه الصفات كذلك لا يزول عن الإنسان حقيقة كونه عبدا إنسانا مع وجود هذه الأسماء الإلهية فيه فهذا معنى قوله لحقيقتك بربك أي لارتباط حقيقتك بربك فلا تخلو عن صورة إلهية تظهر فيها كذلك هذا الجسم لا يخلو عن صورة يظهر فيها وكما تتنوع أنت بصور الأسماء الإلهية فينطلق عليك بحسب كل صورة اسم غير الاسم الآخر كذلك ينطلق على هذا الجوهر اسم الحجرية والذهبية للوصف لا لعينه فقد تبينت فيما ذكرناه الثلاثة الأقسام في خرق العوائد وهي المعجزات والكرامات والسحر وما ثم خرق عادة أكثر من هذا ولست أعني بالكرامات إلا ما ظهر عن قوة الهمة لا إني أريد بهذا الاصطلاح في هذا الموضع التقريب الإلهي لهذا الشخص فإنه قد يكون ذلك استدراجا ومكرا وإنما أطلقت عليه اسم الكرامة لأنه الغالب والمكر فيه قليل جدا فهذا المنزل مجاور آيات الأنبياء

عليهم السلام وهو العلم الجزئي من علوم الكون لا يجاور السحر فإن كرامة الولي وخرق العادة له إنما كانت باتباع الرسول والجري على سنته فكأنها من آيات ذلك النبي إذ باتباعه ظهرت للمتحقق بالاتباع فلهذا جاورته فأقطاب هذا المنزل كل ولي ظهر عليه خرق عادة عن غير همته فيكون إلى النبوة أقرب ممن ظهر عنه خرق العادة بهمته والأنبياء هم العبيد على أصلهم فكذلك أقطاب هذا المنزل فكلّما قربت أحوالك من أحوال الأنبياء عليهم السلام كنت في العبودة أمكن وكانت لك الحجة ولم يكن للشيطان عليك سلطان كما قال –تعالى– إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وقال يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا فلا أثر للشيطان فيهم فكذلك من قرب منهم.

ولما عاينت هذا المشهد قلت القصيدة التي أوّلها تنزّلت الأملاك ليلا على قلبي * ودارت عليه مثل دائرة القلب حذرا من إلقاء اللعين إذا يرى * نزول علوم الغيب عينا على القلب وذلك حفظ الله في مثل طورنا * وعصمته في المرسلين بلا ريب القصيدة بكمالها وهي مذكورة في أول الباب الثلاثين وثلاثمائة من هذا الكتاب وترتيب هذا الباب هو ما ذكرناه من مراتب خرق العوائد وأما ما فيه من الغرائب فإلحاق البشر بالروحانيين في التمثل وإلحاق الروحانيين بالبشر في الصورة وظهور صورة عنهم شبيه الصورة التي يتمثلون بها قال تعالى فتمثل لها بشرا سويا يسمى روحا مثل ما هو جبريل روح فيحيي الموتى كما يحيي جبريل قال ابن عباس ما وطئ جبريل عليه السلام قط موضعا من الأرض إلا حيي ذلك الموضع ولهذا أخذ السامري قبضة من أثره حين عرفه لما جاء لموسى وقد علم إن وطأته يحيا بها ما وطئه من الأشياء فقبض قبضة من أثر الرسول فرمى بها في العجل الذي صنعه فحيي ذلك العجل وكان ذلك إلقاء من الشيطان في نفس السامري لأن الشيطان يعلم منزلة الأرواح فوجد السامري في نفسه هذه القوة وما علم بأنها من إلقاء إبليس فقال وكذلك سولت لي نفسي وفعل ذلك إبليس من حرصه على إضلاله بما يعتقده من الشريك لله تعالى فخرج عيسى على صورة جبريل في المعنى والاسم والصورة الممثلة فالتحقق البشر بالروحاني والتحق الروحاني بصورة البشر في نازلة واحدة ويكفي هذا القدر من هذا الباب فإنه باب واسع لمريم وآسية لحقائق الرسل عليهم السلام فيه مجال رحب فإنه منزل الكمال من حصله ساد على أبناء جنسه وظهر حاكما على صاحب الجلال والجمال وهو من مقامات أبي يزيد البسطامي والأفراد والله يقول الحق وهو يهدي السبيل انتهى الجزء الحادي والعشرون.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الباب الحادي والربعون
في معرفة أهل الليل واختلاف طبقاتهم وتباينهم في مراتبهم وأسرار أقطابهم

ألا إنّ أهل اللّيل أهل تنزل * وأهل معاريج وأهل تنقل
فمن صاعد نحو المقام بهمة * ومن نازل يبغي اللّحوق بأسفل
بحكم التّداني والتّدلّي هما وعن * وجود الترقي والتّلقّي بمعزل
فإن قلت فيهم إنهم خير عصبة * صدقت فقد حلوا بأكرم منزل
وإن قلت فيهم إنهم شر فتية * صدقت فليسوا بالنّبيّ ولا الولي
فهم لا همو ليسوا بهم وبغيرهم * ولكنّهم في معقل متزلزل
عزيز الحمى بين المشاهد والنهي * وبين جنوب في الهبوب وشمال
فما منهمو إلا إمام مسود * إذا أصبحوا نالوا المنى بالتأمل
لهم نظرة لا يعرف الغير حكمها * لهم سطوة في كلّ تاج مكلّل

اعلم أيدك الله بروح منه أن الله جعل الليل لأهله مثل الغيب لنفسه فكما لا يشهد أحد فعل الله في خلقه لحجاب الغيب الذي أرسله دونهم كذلك لا يشهد أحد فعل أهل الليل مع الله في عبادتهم لحجاب ظلمة اللّيل التي أرسلها الله دونهم فهم خير عصبة في حقّ الله، وهم شرّ فتية في حقّ أنفسهم ليسوا بأنبياء تشريع لما ورد من غلق باب النّبوّة ولا يقال في واحد منهم عندهم إنه ولي لما فيه من المشاركة مع اسم الله فيقال فيهم أولياء ولا يقولون ذلك عن أنفسهم وإن بشروا فجعل اللّيل لباسا لأهله يلبسونه فيسترهم هذا اللّباس عن أعين الأغيار يتمتعون في خلواتهم اللّيليّة بحبيبهم فيناجونه من غير رقيب، لأنّه جعل النّوم في أعين الرقباء سباتا أي راحة لأهل اللّيل إلهية، كما هو راحة للناس طبيعية فإذا نام النّاس استراح هؤلاء مع ربّهم وخلوا به حسًّا ومعنى فيما يسألونه من قبول توبة وإجابة دعوة

ومغفرة حوبة وغير ذلك فنوم الناس راحة لهم وإن الله تعالى ينزل إليهم باللّيل إلى السماء الدنيا فلا يبقى بينه وبينهم حجاب فلكي ونزوله إليهم رحمة بهم ويتجلى من سماء الدنيا عليهم كما ورد في الخبر فيقول كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه هو أنا ذا قد تجليت لعبادي هل من داع فاستجيب له هل من نائب فأتوب عليه هل من مستغفر فاغفر له حتى ينصدع الفجر فأهل الليل هم الفائزون بهذه الحظوة في هذه الخلوة وهذه المسامرة في محاريبهم فهم قائمون يتلون كلامه ويفتحون أسماعهم لما يقول لهم في كلامه إذا قال يا أيها الناس يصفون ويقولون نحن الناس ما تريد منا يا ربنا في ندائك هذا فيقول لهم عز وجل على لسانهم بتلاوتهم كلامه الذي أنزله اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يا أيها الناس يقولون لبيك ربنا يقول لهم اتقوا ربكم الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون فيقولون يا ربنا خاطبتنا فسمعنا وفهمتنا ففهمنا فيا ربنا وفقنا واستعملنا فيما طلبته منا من عبادتك وتقواك إذ لا حول لنا ولا قوة إلا بك ومن نحن حتى تنزل إلينا من علو جلالك وتنادينا وتسألنا وتطلب منا يا أيها الناس يقولون لبيك إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا فيقولون يا ربنا أسمعتنا فسمعنا وأعلمتنا فعلمنا فاعصمنا وتعطف علينا فالمنصور من نصرته والمؤيد من أيدته والمخذول من خذلته يا أيها الإنسان فيقول الإنسان منهم لبيك يا رب ما غرك بربك الكريم فيقول كرمك يا رب فيقول صدقت يا أيها الذين آمنوا فيقولون لبيك ربنا اتقوا الله حق تقاته اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يقولون وأيّ قول لنا إلا ما تقولنا وهل لمخلوق حول أو قوة إلّا بك فاجعل نطقنا ذكرك وقولنا تلاوة كتابك يا أيها الذين آمنوا فيقولون لبيك ربنا فيقول –تعالى–: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فيقولون ربنا أغريتنا بأنفسنا لما جعلتها محلا لإيمانك﴾[1] فقلت ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[2] وقلت ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبين لهم أنه الحق﴾[3] والآيات ليست مطلوبة إلا لما تدلّ عليه وأنت مدلولها فكأنّك تقول في قولك: ﴿عليكم أنفسكم﴾[4]، أي ألزمونا وثابروا علينا وألظوا بنا ثم قلت لا يضركم من ضلّ، أي حار وتلف حين طلبنا بفكره فأراد

1
2
3
4

أن يدخلنا تحت حكم نظره وعقله إذا اهتديتم بما عرفتكم به مني في كتابي وعلى لسان رسولي فعرفتموني بما وصفت لكم به نفسي فما عرفتموني إلا بي فلم تضلوا فكانت لكم هدايتي وتقريبي نورا تمشون به على صراطنا المستقيم فلا يزال دأب أهل الليل هكذا مع الله في كل آية يقرؤونها في صلاتهم وفي كل ذكر يذكرونه به حتى ينصدع الفجر قال محمد بن عبد الجبار النفري وكان من أهل الليل أوقفني الحقّ في موقف العلم وذكر رضي الله عنه ما قال له الحق في موقفه ذلك فكان من جملة ما قال له في ذلك الموقف يا عبدي الليل لي لا للقرآن يتلى اللّيل لي لا للمحمدة والثناء يقول الله –تعالى–: ﴿إن لك في النهار سبحا طويلا﴾[1] فاجعل اللّيل لي كما هو لي فإن في اللّيل نزولي فلا أراك في النهار في معاشك فإذا جاء الليل وطلبتك ونزلت إليك وجدتك نائما في راحتك وفي عالم حياتك وما ثم إلا ليل ونهار فلا في النهار وجدتك وقد جعلته لك ولم أنزل فيه إليك وسلمته لك وجعلت الليل لي فنزلت إليك فيه لأناجيك وأسامرك وأقضي حوائجك فوجدتك قد نمت عني وأسأت الأدب معي مع دعواك محبتي وإيثار جنابي فقم بين يدي وسلني حتى أعطيك مسألتك وما طلبتك لتتلو القرآن فتقف مع معانيه فإن معانيه تفرقك عني فآية تمشي بك في جنتي وما أعددت لأوليائي فيها فأين أنا إذا كنت أنت في جنتي مع الحور المقصورات في الخيام كأنهن الياقوت والمرجان متكئا على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان تسقى من رحيق مختوم مزاجه من تسنيم وآية توقفك مع ملائكتي وهم يدخلون عليك من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وآية تستشرف بك على جهنم فتعاين ما أعددت فيها لمن عصاني وأشرك بي من سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم وترى الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة أي مسلطة في عمد ممددة أين أنا يا عبدي إذا تلوت هذه الآية وأنت بخاطرك وهمتك في الجنة تارة وفي جهنم تارة ثم تتلو آية فتمشي بك في القارعة وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد وترى في ذلك اليوم من هذه الآية يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وترى العرش في ذلك اليوم تحمله ثمانية أملاك وفي ذلك اليوم تعرضون فأين أنا والليل لي فها أنت يا

1

عبدي في النهار في معاشك وفي الليل فيما تعطيه تلاوتك من جنة ونار وعرض فأنت بين آخرة ودنيا وبرزخ فما تركت لي وقتا تخلو بي فيه إلا جعلته لنفسك والليل لي يا عبدي لا للمحمدة والثناء ثم تتلو آية أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فتشاهدهم في تلاوتك وتفكر في مقاماتهم وأحوالهم وما أعطيت المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات فوقفت بالثناء والمحمدة مع كل طائفة أثنيت عليهم في كتابي فأين أنا وأين خلوتك بي ما عرفني ولا عرف مقدار قولي الليل لي وما عرف لما ذا نزلت إليك بالليل إلا العارف المحقق الذي لقيه بعض إخوانه فقال له يا أخي اذكرني في خلوتك بربك فأجابه ذلك العبد فقال إذا ذكرتك فلست معه في خلوة فمثل ذلك عرف قدر نزولي إلى السماء الدنيا بالليل ولما ذا نزلت ولمن طلبت فإنا أتلو كتابي عليه بلسانه وهو يسمع فتلك مسامرتي وذلك العبد هو الملتذ بكلامي فإذا وقف مع معانيه فقد خرج عني بفكره وتأمله فالذي ينبغي له أن يصغي إلي ويخلي سمعه لكلامي حتى أكون أنا في تلك التلاوة كما تلوت عليه وأسمعته أكون أنا الذي أشرح له كلامي وأترجم له عن معناه فتلك مسامرتي معه فيأخذ العلم مني لا من فكره واعتباره فلا يبالي بذكر جنة ولا نار ولا حساب ولا عرض ولا دنيا ولا آخرة فإنه ما نظرها بعقله ولا بحث عن الآية بفكره وإنما ألقى السمع لما أقوله له وهو شهيد حاضر معي أتولي تعليمه بنفسي فأقول له يا عبدي أردت بهذه الآية كذا وكذا وبهذه الآية الأخرى كذا وكذا هكذا إلى أن ينصدع الفجر فيحصل من العلوم على يقين ما لم يكن عنده فإنه مني سمع القرآن ومني سمع شرحه وتفسير معانيه وما أردت بذلك الكلام وبتلك الآية والسورة فيكون حسن الأدب معي في استماعه وإصاخته فإن طالبته بالمسامرة في ذلك فيجيبني بحضور ومشاهدة يعرض على جميع ما كلمته به وعلمته إياه فإن كان أخذه على الاستيفاء وإلا فنجبر له ما نقصه من ذلك فيكون لي لا له ولا لمخلوق فمثل هذا العبد هو لي والليل بيني وبينه فإذا انصدع الفجر استويت على عرشي أدبر الأمر أفصل الآيات ويمشي عبدي إلى معاشه وإلى محادثة إخوانه وقد فتحت بيني وبينه بابا في خلقي ينظر إلي منه وانظر إليه منه والخلق لا يشعرون فأحدثه على ألسنتهم وهم لا يعرفون ويأخذ مني على بصيرة وهم لا يعلمون فيحسبون أنه يكلمهم وما يكلم سواي ويظنون أنه يجيبهم وما يجيب إلا إياي كما قال بعض أصحاب هذه الصفة

يا مؤنسي بالليل إن هجع الورى * ومحدثي من بينهم بنهاري

وإذ قد أبنت لك عن أهل الليل كيف ينبغي أن يكونوا في ليلهم فإن كنت منهم فقد علمتك الأدب الخاص بأهل الله وكيف ينبغي لهم أن يكونوا مع الله.
واعلم أنّه تختلف طبقاتهم في ذلك فالزاهد حاله مع الله في ليله من مقام زهده والمتوكل حاله مع الله من مقام توكله وكذلك صاحب كل مقام ولكل مقام لسان هو الترجمان الإلهي فهم متباينون في المراتب بحسب الأحوال والمقامات وأقطاب أهل الليل هم أصحاب المعاني المجردة عن المواد المحسوسة والخيالية فهم واقفون مع الحق بالحق على الحق من غير حد ولا نهاية ووجود ضد ومن أهل الليل من يكون صاحب عروج وارتقاء ودنو فيتلقاه الحق في الطريق وهو نازل إلى السماء الدنيا فيتدلى إليه فيضع كنفه عليه وكل همة من كل صاحب معراج يتلقاها الحق في ذلك النّزول حيث وجدها فمن الهمم من يلقاها الحق في السّماء الدّنيا ومنها من يلقاها في الثّانية وفيما بينهما وفي الثالثة وفيما بينهما وفي الرابعة وفيما بينهما وفي الخامسة وفيما بينهما وفي السّادسة وفيما بينهما وفي السابعة وفيما بينهما وفي الكرسي وفيما بينهما وفي العرش في أول النزول وفيما بينهما وهو مستوي الرحمن فيعطي لتلك الهمة من المعاني والمعارف والأسرار بحسب المنزل الذي لقيته فيه ثم تنزل معه إلى السّماء الدنيا فتقف الهمم بين يديه ويستشرف الحق على من بقي من الهمم من أهل الليل في محاريبهم وما عرجت فيلقي إليهم الحق –تعالى– بحسب ما يسألونه في صلاتهم ودعائهم وهم في بيوتهم وفي محاريبهم فتسمع تلك الهمم التي لقيته في طريقها ما يكون منه جل جلاله إلى أولئك العبيد فيستفيدون علوما لم تكن عندهم فإنه قد يخطر لهؤلئك الذين ما صعدت هممهم من السؤال للحق في المعارف والأسرار ما لم يكن في قوة هذه الهمم أن تسألها لقصورها عنها فإذا سمعوا الجواب من الحق الذي يجيب به أولئك القوم الذين في محاريبهم وما اخترقت هممهم سماء ولا فلكا فيحصل لهم من العلم بالله بقدر ما سأل عنه أولئك الأقوام وثم همم أخر ارتقت فوق العرش إلى مرتبة النفس فقد تجد الحق هناك وجود تنزيه ما هو وجودها له مثل وجودها له في عالم المساحة والمقدار فيشاهدون مقاما أنزه ومنزلا أقدس وبينية لا يحدها التقدير ولا يأخذها التصوير فبينيتها بينية تمييز علوم ومراتب فهوم ومن الهمم من يلقاه في العقل الأول ومن الهمم ما

تلقاه في المقربين من الأرواح المهيمة ومن الهمم ما تلقاه في العماء ومن الهمم من تلقاه في الأرض المخلوقة من بقية طينة آدم عليه السلام فإذا لقيته هذه الهمم في هذه المراتب أعطاها على قدر تعطشها من المقام الذي بعثها على الترقي إلى هذه المراتب وينزلون معه إلى السماء الدنيا وعلى الحقيقة هو ينزلهم إلى السماء الدنيا وينزل معهم فيستفيدون من العلوم التي يهبها الحق لتلك الهمم التي ما تعدت العرش هكذا كل ليلة ثم تنزل هذه الهمم وقد عرفت ما أكرمها به الحق فاجتمعت بالهمم التي ما برحت من مكانها فوجدتها على طبقات فمنهم من وجد عندهم من العلوم التي لم تتقيد بترق وكان الحق أقرب إليها من حبل الوريد حين كان مع أولئك في العماء وفي السماء الدنيا وما بينهما قال تعالى وهو معكم أينما كنتم فهو مع كل همة حيث كانت ويجدون هما أرضية قد تقدست عن الأينية وعن مراتب العقول فلم تتقيد بحضرة فتنال من العلوم التي تليق بهذه الصفة التي وهبهم الحق منها ما حصلوا عليه من المعارف ما يبهت أولئك الهمم وهي من علوم الإطلاق الخارجة عن الحصر الأيني الفلكي وعن الحصر الروحاني العقلي فهم مع كونهم في ظلمة الطبيعة على نور أضاءت به تلك الظلمة لوجود المشاهدة وهؤلاء هم الذين يعرفون أن إدراك الأشياء المرئية إنما هو من اجتماع نور البصر مع نور الجسم المستنير شمسا كان أو سراجا أو ما كان فتظهر المبصرات فلو فقد الجسم المستنير ما ظهر شئ ولو فقد البصر ما أضاء شيء مما يدركه البصر مع النور الخارج أصلا ألا ترى صاحب الكشف إذا أظلم الليل وانغلق عليه باب بيته ويكون معه في تلك الظلمة شخص آخر وقد تساويا في عدم الكشف للمبصرات فيكون أحدهم ممن يكشف له في أوقات فيتجلى له نور يجتمع ذلك النور مع نور البصر فيدرك ما في ذلك البيت المظلم مما أراد الله أن يكشف له منه كله أو بعضه يراه مثل ما يراه بالنهار أو بالسراج ورفيقه الذي هو معه لا يرى إلا الظلمة غير ذلك لا يراه فإن ذلك النور ما تجلى له حتى يجتمع بنور بصره فينفر حجاب الظلمة فلو لم يكن الأمر كما ذكرناه لكان صاحب هذا الكشف مثل صاحبه لا يدرك شيئا أو يكون رفيقه مثله يدرك الأشياء فيكون إما من أهل الكشف مثله أو يدركه بنور العلم فإن المكاشف يدركه بنور الخيال كما يدركه النائم ورفيقه إلى جانبه مستيقظ لا يرى شيئا كذلك صاحب الكشف ولو سألت صاحب الكشف هل ترى ظلمة في حال كشفك لقال لا بل يقول أنارت البقعة حتى قلت إن الشمس ما غابت فأدركت المبصرات كما أدركها نهارا وهذه المسألة ما رأيت أحدا نبه عليها إلّا أن كان وما وصل إلي فالكون كله في أصله مظلم فلا يرى إلا بالنورين

فإنه يحدث هذا الأمر ونظيره الذي يؤيده إيجاد العالم فإنه من حيث ذاته عدم ولا يكتسب الوجود إلا من كونه قابلا وذلك لإمكانه واقتدار الحقّ المخصّص المرجّح وجوده على عدمه فلو زال القبول من الممكن لكان كالمحال لا يقبل الإيجاد وقد اشترك المحال والممكن قبل التّرجيح بالوجود في العدم كما أنه مع قبوله لو لم يكن اقتدار الحق ما وجد عين هذا المعدوم الذي هو الممكن فلم تظهر الأعيان المعدومة للوجود إلا بكونها قابلة وهو مثل نور البصر وكون الحق قادرا وهو مثل نور الجسم النيّر فظهرت الأعيان كما ظهرت المبصرات بالنورين فكما إن الممكن لا يزال قابلا والحق مقتدرا ومريدا فينحفظ على الممكن إبقاء الوجود إذ له من ذاته العدم كذلك الباصر لا يزال نور بصره في بصره والشمس متجلية في نورها فتحفظ الأبصار المتعلق بالمبصرات، وهي من ذاتها أعني المبصرات غير منوّرة، بل هي مظلمة، فاعقل إن كنت تعقل فهذا الأمر أصل ضلال العقلاء وهم لا يشعرون لما لم يعقلوه وهو سر من أسرار الله –تعالى– جهله أهل النّظر ومن هذه المسألة يتبين لك قدم الحق وحدوث الخلق لكن على غير الوجه الذي يعقله أهل الكلام وعلى غير الوجه الذي تعقله الحكماء باللّقب لا بالحقيقة فإن الحكماء على الحقيقة هم أهل الله الرسل والأنبياء والأولياء إلّا أن الحكماء باللقب أقرب إلى العلم من غيرهم حيث لم يعقلوا الله إلّا إلها وأهل الكلام من النظّار ليس كذلك فأقطاب أهل الليل من يكون اللّيل في حقهم كالنّهار كشفا وشغلا قال –تعالى–: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾[1]، أي تعلمون منهم في الصّباح ما تعلمون منهم في اللّيل إذ كان ليلا عند غيرهم ممّن ليس له مقام الكشف بالليل كما لصاحب النور فالليل والصباح عنده سواء فهذا معنى قوله أفلا تعقلون فإن ادعت لك نفسك أنك من أهل الليل.

فانظر هل لها قدم وكشف فيما ذكرت لك فهو المحك والمعيار ولكل ليل في القرآن أمور وعلوم لا يعرفها إلا أهل الليل خاصّة.

﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾[2].

1

2

الباب الثاني والربعون

في معرفة الفتوة والفتيان ومنازلهم وطبقاتهم وأسرار أقطابهم

وفتيان صدق لا ملالة عندهم * لهم قدم في كل فضل ومكرمة
مقسمة أحوالهم في جليسهم * فهم بين توقير لقوم ومرحمه
وإن جاء كفؤ آثروه ببرهم * ولا تلحق الفتيان في ذاك مندمة
لهم من خفايا العلم كل شعيرة * وما هو موسوم لديهم بسمسمه
كنجل قسي والذي كان قبله * ومن كان منهم ممن الله أعلمه
بذلك حاز والسبق في كل حلبة * فليس يجيبون السفيه بلفظ مه بميمنة
خصوا تعالى مقامها * وليس لها ضد يسمى بمشامه
فكلتا يدي ربي يمين كريمة * وإن كريم القوم من كان أكرمه
إذا خلع الولي على أهله ترى * ملابسهم بين الملابس معلمه

اعلم أنّ للفتوّة مقام القوة وما خلق الله من الطبيعة أقوى من الهواء وخلق الإنسان أقوى من الهواء إذا كان مؤمنا كذا ورد في الخبر النبوي عن الله تعالى مع الملائكة لما خلق الأرض وجعلت تميد الحديث بكماله وفي آخره يا رب فهل خلقت شيئا أشد من الريح قال نعم المؤمن يتصدق بيمينه ما تعرف بذلك شماله وقال –تعالى–: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[1] فنعت الرزّاق بالقوّة لوجود الكفران بالمنعم من المرزوقين فهو يرزقهم مع كفرهم به ولا يمنع عنهم الرّزق والإنعام والإحسان بكفرهم مع أن الكفر بالنعم سبب مانع يمنع النعمة فلا يرزق الكافر مع وجود الكفر منه لما رزقه إلّا من له القوة فلهذا نعته بذي القوة المتين فإنّ المتانة في القوة تضاعفها فما اكتفى –سبحانه– بالقوّة حتى وصف نفسه بأنه المتين فيها إذ كانت لقوة لها طبقات في التمكن من القوي فوصف نفسه بالمتانة

1

وهذه صفة أهل الفتوة فإن الفتوة ليس فيها شئ من الضعف إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة وهو عمر الإنسان من زمان بلوغه إلى تمام الأربعين من ولادته يقول الله تعالى في هذا المقام الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة وذلك حال الفتوة وفيها يسمى فتى وما قرن معها شيئا من الضعف ثم قال سبحانه وتعالى ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يعني ضعف الكهولة إلى آخر العمر وشيبة يعني وقارا أي سكونا لضعفه عن الحركة فإن الوقار من الوقر وهو الثقل فقرن مع هذا الضعف الثاني الشيبة التي هي الوقار فإن الطفل وإن كان ضعيفا فإنه متحرك جدا واختلف في حركته هل هي من الطبيعة أو من الروح روى أن إبراهيم –عليه السّلام– لما رأى الشيب قال يا رب ما هذا قال الوقار قال اللهم زدني وقارا فهذا حال الفتوة ومقامها وأصحابها يسمون الفتيان وهم الذين حازوا مكارم الأخلاق أجمعها ولا يتمكن لأحد أن يكون حاله مكارم الأخلاق ما لم يعلم المحال التي يصرفها فيها ويظهر بها فالفتيان أهل علم وافر وقد أفردنا لها بابا في داخل هذا الكتاب حين تكلمنا على المقامات والأحوال فمن ادعى الفتوة وليس عنده علم بما ذكرناه فدعواه كاذبة وهو سريع الفضيحة فلا ينبغي يسمى فتى إلا من علم مقادير الأكوان ومقدار الحضرة الإلهية فيعامل كل موجود على قدره من المعاملة ويقدم من ينبغي أن يقدم ويؤخر ما ينبغي أن يؤخر وتفاصيل هذا المقام وحكم الطائفة فيه استوفيناه في رسالة الأخلاق التي كتبنا بها للفخر محمّد بن عمر بن خطيب الري –رحمه الله–.

فلنذكر منها في هذا الباب الأصل الذي ينبغي أن يعول عليه وذلك أنه ليس في وسع الإنسان أن يسع العالم بمكارم أخلاقه إذ كان العالم كله واقفا مع غرضه أو إرادته لا مع ما ينبغي فلما اختلفت الأغراض والإرادات وطلب كل صاحب غرض أو إرادة من الفتى أن يعامله بحسب غرضه وإرادته والأغراض متضادّة فيكون غرض زيد في عمر وأن يعادي خالدا ويكون غرض خالد في زيد أن يعادي عمرا أو غرضه أن يواليه ويحبّه ويوده فإن تفتى مع عمر وعادى خالد أو ذمه خالد وأثنى عليه زيد بالفتوة وكريم الخلق وإن لم يعاد خالدا ووالاه وأحبه أثنى عليه خالد وذمه زيد فلما رأينا أن الأمر على هذا الحد وأنه لا يعم ولم يتمكن عقلا ولا عادة أن يقوم الإنسان في هذه الدنيا أو حيث كان في مقام يرضى المتضادين انبغى للفتى أن يترك هوى نفسه ويرجع إلى خالقه الذي هو مولاه وسيده ويقول أنا عبد وينبغي للعبد أن يكون بحكم سيده لا بحكم نفسه ولا بحكم غير سيده يتبع مراضيه ويقف عند حدوده ومراسمه ولا يكن ممن جعل مع سيده شريكا في عموديته

فيكون مع سيده بحسب ما يحد له ويتصرف فيما يرسم له ولا يبالي وافق أغراض العالم أو خالفهم فإن وافق ما وافق منها فذلك راجع إلى سيده فخرج له توقيع من ديوان سيده على يدي رسول قام الدليل له والعلم بأنه خرج إليه من عند سيده وأن ذلك التوقيع توقيع سيده فقام له إجلالا وأخذ توقيع سيده ومع التوقيع مشافهة فشافه العبيد بما أمره السيد أن يشافههم به وذلك هو الشرع المقرر والتوقيع هو الكتاب المنزل المسمى قرآنا والرسول هو جبريل عليه السلام وحاجب الباب الذي يصل إليه الرسول الملكي من عند الله بالتوقيع والمشافهة هو النبي المبشر محمد –صلّى الله عليه وسلّم– أو أي نبي كان من الأنبياء في زمان بعثتهم فلزم العبيد مراسم سيدهم التي ضمنها توقيعه والتي جاءت بها المشافهة فلم يكن لهم في نفوسهم ملك ولا تدبير فمن وقف عند حدود سيده وامتثل مراسيمه ولم يخالفه في شيء ممّا جاءه به على حد ما رسم له من غير زيادة بقياس أو رأى ولا نقصان بتأويل فعامل جنسه من الناس بما أمر أن يعاملهم به من مؤمن وكافر وعاص ومنافق وما ثم إلا هؤلاء الأصناف الأربعة وكلّ صنف من هؤلاء على طبقات فالمؤمن منه طائع وعاص وولي ونبي ورسول وملك وحيوان ونبات ومعدن والكافر منه مشرك وغير مشرك والمنافق منه ينقص في الظاهر عن درك الكافر فإن المنافق له الدرك الأسفل من النار والكافر له الأعلى والأسفل وأما العاصي فينقص في الظاهر عن درجة المؤمن المطيع بقدر معصيته فهذا الواقف عند مراسم سيده هو الفتى فكل إنسان لا بد أن يكون جليسا لأكبر منه أو أصغر منه أو مكافئا له إما في السن وإمّا في الرّتبة أو فيهما فالفتى من وقر الكبير في العلم أو في السن والفتى من رحم الصغير في العلم أو في السن والفتى من آثر المكافئ في السن أو في العلم ولست أعني بقولي في العلم إلا المرتبة خاصّة فأتينا بالعلم لشرفه فإن الملك قد يكون صغيرا في السن صغيرا في العلم ويكون شخص من رعيته كبيرا في السن كبيرا في العلم.

فإن عرف الملك قدر ما رسم له الحق في شرعه من توقير الكبير وشرف العلم عامله الملك بذلك وإن لم يفعل فيكون الملك سيئ الملكة فينبغي للفتى أن يعرف شرف المرتبة التي هي السلطنة، وأنّه نائب الله في عباده وخليفته في بلاده فيعامل من أقامه الله فيها وإن لم يجر الحق على يده بما ينبغي للمرتبة من السمع والطاعة في المنشط والمكره على حد ما رسم له سيده وما هو عليه مما أقام الله ذلك السلطان فيه من الأخلاق المحمودة أو المذمومة في الجور والعدل فينبغي للفتى أن يوفي السّلطان حقه الذي أوجبه الله له عليه

ولا يطلب منه حقه الذي جعله الله له قبل السّلطان ممّا له أن يسامحه فيه إن منعه منه فتوة عليه ورحمة به وتعظيما لمنزلته إذ كان له أن يطلبه به يوم القيامة فالفتى من لا خصم له لأنه فيما عليه يؤديه وفيما له يتركه فليس له خصم فالفتى من لا تصدر منه حركة عبثا جملة واحدة ومعنى هذا أن الله سمعه يقول وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما باطلا وهذه الحركة الصادرة من الفتى مما بينهما وكذلك حركة كل متحرك خلقه الله بين السماء والأرض فما هي عبث فإن الخالق حكيم فالفتى من يتحرك أو يسكن لحكمة في نفسه.

ومن كان هذا حاله في حركاته فلا تكون حركته عبثا لا في يده ولا في رجله ولا شمه ولا أكله ولا لمسه ولا سمعه ولا بصره ولا باطنه فيعلم كل نفس فيه وما ينبغي له وما حكم سيده فيه ومثل هذا لا يكون عبثا وإذا كانت الحركة من غيره فلا ينظرها عبثا فإن الله خلقها أي قدرها وإذا قدرها فما تكون عبثًا ولا باطلا فيكون حاضرا مع هذا عند وقوعها في العالم فإن فتح له بالعلم في الحكمة فيها فبخ على بخ، وهو صاحب عناية وإن لم يفتح له في العلم بالحكمة فيها فيكفيه حضوره في نفسه إنّها حركة مقدرة منسوبة إلى الله وأن الله فيها سرًّا يعلمه الله فيؤديّه هذا القدر من العلم إلى الأدب الإلهي.

وهذا لا يكون إلّا للفتيان أصحاب القوّة الحاكمين على طبائع النفوس والعادات ولا يكون في هذا المقام من هذه الطائفة إلّا الملاميّة فإنّ الله قد ولاهم على نفوسهم وأيدهم بروح منه عليها فلهم التّصريف التّامّ والكلمة الماضية والحكم الغالب فهم السّلاطين في صور العبيد يعرفهم الملأ الأعلى.

فليس أحد ممّا سوى الإنس والجان إلا ويقول بفضله إلّا بعض الثقلين فإنّ الحسد يمنعهم من ذلك فطبقات الفتيان هو ما ذكرناه من يعلم منهم علم الله في الحركات ومَن لا يعلم علم الله في ذلك على التعيين وإن علم إن ثم أمر ألم يطلعه الله عليه وأما منزلتهم فهو الذي قلنا في أوّل الباب في قوله: ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾[1] وينظر إلى هذا الإيجاد من الحقائق الإلهيّة الآية لأخرى، وهي قوله: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[2] فهم يعاملون الخلق بالإحسان إليهم مع إساءتهم لهم كإعطاء الله الرزق للمرزوقين الكافرين بالله ونعمه فلهم القوة العظمى على نفوسهم حيث لم يغلبهم هواهم ولا ما جبلت النفس عليه من حب الثناء والشّكر والاعتراف قال تعالى حاكيا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم

1
2

فأطلق الله على ألسنتهم فتوة إبراهيم بلسانهم لما كانت الفتوة بهذه المثابة لأنه قام في الله حق القيام ولما أحالهم على الكبير من الأصنام على نية طلب السلامة منهم فإنه قال لهم فاسألوهم إن كانوا ينطقون يريد توبيخهم ولهذا رجعوا إلى أنفسهم وهو قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه في كل حال وإنما سمي ذلك كذبا لإضافة الفعل في عالم الألفاظ إلى كبيرهم والكبير الله على الحقيقة والله هو الفاعل المكسر للأصنام بيد إبراهيم فإنه يده التي ببطش بها كذا أخبر عن نفسه فكسر هذه الأصنام التي زعموا أنها آلهة لهم ألا ترى المشركين يقولون فيهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فاعترفوا إن ثم إلها كبيرا أكبر من هؤلاء كما هو أحسن الخالقين وأرحم الراحمين فهذا الذي قاله إبراهيم عليه السلام صحيح في عقد إبراهيم عليه السلام وإنما أخطأ المشركون حيث لم يفهموا عن إبراهيم ما أراد بقوله بل فعله كبيرهم فكان قصد إبراهيم بكبيرهم الله تعالى وإقامة الحجة عليهم وهو موجود في الاعتقادين وكونهم آلهة ذلك على زعمهم والوقف عليه حسن عندنا تام وابتدأ إبراهيم بقوله هذا قولي فالخبر محذوف يدل عليه مساق القصة فاسألوهم إن كانوا ينطقون فهم يخبرونكم ولو نطقت الأصنام في ذلك الوقت لنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم فإنه مقرر عند أهل الكشف من أهل طريقنا إن الجماد والنبات والحيوان قد فطرهم الله على معرفته وتسبيحه بحمده فلا يرون فاعلا إلّا الله ومن كان هذا في فطرته كيف ينسب الفعل لغير الله فكان إبراهيم على بينة من ربه في الأصنام أنهم لو نطقوا لأضافوا الفعل إلى الله، لأنّه ما قال لهم سلوهم إلا في معرض الدلالة سواء نطقوا أو سكتوا فإن لم ينطقوا يقول لهم لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم من الله شيئا ولا عن نفسه ولو نطقوا لقالوا إنّ الله قطعنا قطعا لا يتمكن في الدّلالة أن تقول الأصنام غير هذا فإنها لو قالت الصّنم الكبير فعل ذلك بنا لكذبت ويكون تقريرا من الله بكفرهم وردا على إبراهيم –عليه السّلام– فإن الكبير ما قطعهم جذاذا ولو قالوا في إبراهيم إنّه قطعنا لصدقوا في الإضافة إلى إبراهيم ولم تلزم الدلالة بنطقهم على وحدانية الله ببقاء الكبير فيبطل كون إبراهيم قصد الدلالة فلم تقع ولم يصدق وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه فكانت له الدلالة في نطقهم لو نطقوا كما قرّرنا وفي عدم نطقهم لو لم ينطقوا ومثل هذا ينبغي أن يكون قصد الأنبياء –عليهم السّلام– فهم العلماء صلوات الله عليهم ولهذا رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال الله لمثل هؤلاء أتعبدون ما تنحتون فكان من فتوته إن باع نفسه في حق أحدية خالقه

لا في حق خالقه لأن الشريك ما ينفي وجود الخالق وإنما يتوجه على نفي الأحدية فلا يقوم في هذا المقام إلا من له القطبية في الفتوة بحيث يدور عليه مقامها ومن الفتوة قوله – تعالى–: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾[1] فأطلق عليه باللّسان العبراني معنى يعبر عنه في اللّسان العربي بالفتى، وكان في خدمة موسى –عليه السّلام– وكان موسى في ذلك الوقت حاجب الباب فإنّه الشّارع في تلك الأمة ورسولها ولكلّ أمّة باب خاص إلهي شارعهم هو حاجب ذلك الباب الذي يدخلون منه على الله –تعالى– ومحمّد –صلّى الله عليه وسلّم– هو حاجب الحجاب لعموم رسالته دون سائر الأنبياء –عليهم السّلام–، فهم حجبته صلى الله عليه وسلم من آدم –عليه السّلام– إلى آخر نبي ورسول وإنما قلنا إنهم حجبته لقوله – صلّى الله عليه وسلّم– آدم فمن دونه تحت لوائي فهم نوّابه في عالم الخلق، وهو روح مجرّد عارف بذلك قبل نشأة جسمه قيل له متى كنت نبيًّا، فقال: كنت نبيا وآدم بين الماء والطّين أي لم يوجد آدم بعد إلى أن وصل زمان ظهور جسده المطهر –صلّى الله عليه وسلّم– فلم يبق حكم لنائب من نوابه من سائر الحجاب الإلهيّين، وهم الرّسل والأنبياء عليهم السلام إلا عنت وجوههم لقيوميّة مقامه إذ كان حاجب الحجاب فقرر من شرعهم ما شاءه بإذن سيده ومرسله ورفع من شرعهم وأمر يرفعه ونسخه فربما قال من لا علم له بهذا الأمر إن موسى –عليه السلام– كان مستقلًّا مثل محمد بشرعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان موسى حيا ما وسعه إلّا أن يتبعني وصدق صلى الله عليه وسلم فالفتى أبدا في منزل التّسخير كما قال –عليه السّلام–: خادم القوم سيّدهم فمن كانت خدمته سيادته كان عبدًا محضًا خالصًا وتفضل الفتيان بعضهم على بعض بحسب المفتى عليه من المنزلة عند الله بوجه ومن الضّعف بوجه فأعلاهم من تفتى على الأضعف من ذلك الوجه وأعلاهم أيضًا من تفتى على الأعلى عند الله من ذلك الوجه الآخر فالمتفتّي على الأضعف كصاحب السفرة وهو الشخص الذي أمره شيخه أن يقرب السفرة إلى الأضياف فأبطأ عليهم من أجل النّمل الذي كان فيها فلم ير من الفتوّة أن ينفضّ النّمل من السّفرة فإنّ من الفتوة أن يصرفها في الحيوان، فوقف إلى أن خرجت النّمل من السّفرة من ذاتها من غير أن يكون لهذا الشّخص في إخراج النّمل تعمل قهري فإنّ الفتيان لهم الفتوة وليس لهم القهر إلا على نفوسهم خاصة ومن لا قوة له لا فتوة له كما أنه من لا قدرة له لا حلم له فقال له الشيخ لقد دققت فهذه مراعاة الأضعف لكنه ما تفتى مع الأضياف حيث أبطأ عن

1

المبادرة إلى كرامتهم فلهذا ربطنا في أول الباب أنه لا يتمكن لأحد إرسال المكارم في العموم لاختلاف لأغراض فينظر الفتى في حق الشّخصين المختلفي الأغراض اللذين إذا أرضى الواحد منهما أسخط الآخر وصورة نظره في حق الشخصين أيهما أقرب إلى حكم الوقت والحال في الشرع فالذي هو أقرب إلى حكم الوقت والحال في الشرع صرف الفتوة معه فإن اتسع الوقت إلى أن يتفتّى مع الآخر بوجه يرضى الله فعل أيضا وإن لم يتسع فقد وفي المقام حقه وكان من الفتيان بلا شك وإن كان في رتبة الفعل بالهمة والفعل بالحس فعل الفتوة مع الواحد حسا ومع الآخر بالهمة دخل رجل على شيخنا أبي العباس العريبي وأنا عنده فتفاوضا في إيصال معروف فقال الرّجل يا سيدنا الأقربون أولى بالمعروف فقال الشيخ من غير توقف إلى الله وأخبرني أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن عبد الكريم التميمي الفاسي قال مخبرا عن أبي عبد الله الدقاق كان بمدينة فاس وتذاكروا الفعل بالهمة فقال أبو عبد الله الدقاق فزت بواحدة مالي فيها شريك ما اغتبت أحدا قط ولا اغتبت أحد بحضرتي قط فهذا من الفعل بالهمّة حيث تفتى على من عادته أن يغتاب فيكتسب الأوزار أن لا يقدر على الغيبة في مجلسه بحضوره من غير أن يكون من الشيخ نهي له عن ذلك وتفتى أيضا على الذي يذكر بما يكره بحضوره بأنّه لا يذكر في فيه بما يكره وكان سيد وقته في هذا الباب خرج مناقبه شيخنا أبو عبد الله بن عبد الكريم المذكور آنفا في كتاب المستفاد في ذكر الصالحين والعباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد فقد علمت على الحقيقة أن الفتى من بذلك وسعه واستطاعته في معاملة الخلق على الوجه الذي يرضي الحقّ.

﴿والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل﴾.

الباب الثّالث والربعون

في معرفة جماعة من أقطاب الورعين وعامة ذلك المقام

أنا ختم الولاية دون شك * لورث الهاشمي مع المسيح
كما أنى أبو بكر عتيق * أجاهد كل ذي جسم وروح
بأرماح مثقفة طوال * وترجمة بقرآن فصيح
أشد على كتيبة كل عقل * تنازعني على الوحي الصّريح
لي الورع الذي يسمو اعتلاء * على الأحوال بالنبأ الصّحيح
وساعدني عليه رجال صدق * من الورعين من أهل الفتوح
يوالون الوجوب وكل ندب * ويستثنون سلطنة المبيح

الكلام على الورع وأهله وتركه يردّ في داخل الكتاب في ذكر المقامات والأحوال منه، إن شاء الله –تعالى–، والذي يتعلّق بهذا الباب الكلام على معرفة طائفة من أقطابه وعموم مقامه.

فاعلم إنّ أبا عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي كان من عامّة هذا المقام وأبا يزيد البسطامي وشيخنا أبا مدين في زماننا كانا من خاصّته، فأعلى أقطاب الورعين اجتناب الاشتراك في إطلاق اللّفظ، إذ كان الورع اجتناب المحرمات وكلّ ما فيه شبهة من جانب المحرم فيجتنب لذلك الشبه وهو المعبر عنه بالشبهات أي الشّيء الذي له شبه بما جاء النص الصريح بتحريمه من كتاب أو سنّة أو إجماع بالحال الذي يوجب له هذا الاسم مثل أكل لحم الخنزير لمن ليس له حال الاضطرار، فهو عليه حرام فلهذا قلنا بالحال الذي يوجب له هذا الاسم كما أن المضطر ليس بمخاطب بالتحريم فأكل لحم الخنزير في حق من حاله الاضطرار هو له حلال بلا خلاف.

ولمّا كان التّحريم معناه المنع من الالتباس به، ورأوا أنّ لذلك أحوالا، وأنّه ما ثم في الوضع شيء محرم لعينه لهذا قيده الشّارع بالأحوال وقد انسحب عليه التحريم للحال فما هو محرم لعينه أولى بالاجتناب فلا بد من اجتنابه باطنا علما وقد يحل هذا المحرم لعينه في ظاهر الحال ما يلزمه وهذا هو التّحريم الذي لا يحل أبدا من حيث معناه ولا يصح أن تجئ آية شرعية تحله وهو الاتصاف بأوصاف الحق تعالى التي بها يكون إلها فواجب شرعا وعقلا اجتناب هذه الأسماء الإلهية معنى وإن أطلقت لفظا فينبغي أن لا تطلق لفظا على أحد إلّا تلاوة فيكون الذي يطلقها تاليا حاكيا كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فسماه عزيزا رؤفا رحيما فنسميه بتسمية الله إياه ونعتقد أنه –صلّى الله عليه وسلّم– في نفسه مع ربه عبد ذليل خاشع أواه منيب فاطلاق الألفاظ التي تطلق على الحقّ من الوجه الصّحيح الذي يليق بالجناب الإلهي لا ينبغي أن تطلق على أحد من خلق الله إلّا حيث أطلقها الحق لا غير وإن أباح ذلك فالورع ما هو مع المباح ولا سيما في هذه المسألة خاصة فلا يطلقها مع كون ذلك قد أبيح له فإذا أطلقها على من أطلقها عليه الحقّ أو الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، فيكون هذا المطلق تاليا أو مترجما ناقلا عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– في ذلك الإطلاق ثم من الورع عند هؤلاء الرجال أن ينزلوا إلى ما اختصت به الأنبياء والرّسل من الإطلاق فيتورعوا أن يطلقوا عليهم أو على أحد ممن ليس بنبي ولا رسول اللفظ الذي اختصوا به فيطلقون على الرّسل الذين ليسوا برسل الله لفظ الورثة والمترجمين فيقولون وصل من السلطان الفلاني إلى السّلطان الفلاني ترجمان يقول كذا وكذا فلم يطلقوا على المرسل ولا على المرسل إليه اسم الملك ورعا وأدبا مع الله وأطلقوا عليه اسم السلطان فإن الملك من أسماء الله فاجتنبوا هذا اللّفظ أدبا وحرمة وورعا وقالوا السّلطان إذ كان هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله وأطلقوا على الرّسول الذي جاء من عنده اسم الترجمان ولم يطلقوا عليه اسم الرسول لأنه قد أطلق على رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، فجعلوه من خصائص النبوة والرسالة الإلهية أدبا مع رسل الله –عليهم السّلام– وإن كان هذا اللفظ قد أبيح لهم ولم ينهوا عنه ولكن لم يوجب عليهم فكان لزوم الأدب أولى مع من عرفنا الله أنه أعظم منا منزلة عنده وهذا لا يعرفه إلا الأدباء الورعون.

ثمّ إنّ لهؤلاء مرتبة أخرى في الورع، وهي أنهم رضي الله عنهم يجتنبون كلّ أمر تقع فيه المزاحمة بين الأكوان ويطلبون طريقًا لا يشاركهم فيها من ليس من جنسهم ولا من مقامهم

فلا يزاحمون أحدا في شيء مما يتحققون به في نفوسهم ويتصفون به ويحبون من الله أن يدعوا به في الدنيا والآخرة وهو ما يكونون عليه من الأخلاق الإلهية فيكونون مع تحققهم بمعانيها وظهور أحكامها على ظواهرهم من الرحمة بعباد الله والتلطف بهم والإحسان إليهم والتوكل على الله والقيام بحدود الله ويظهرون في العالم أن جميع ما يرى عليهم إن ذلك فعل الله لا فعلهم وبيد الله لا بيدهم وأن المثنى عليه بذلك الفعل إنما ينبغي أن يتعلق ذلك الثناء بفاعله وفاعله هو الله جل جلاله لا نحن فيتبرّؤون من أفعالهم الحسنة غاية التبري ومن الأوصاف المستحسنة كذلك وكل وصف مذموم شرعا وعرفا يضيفونه إلى أنفسهم أدبا مع الله –تعالى– وورعا شافيا كما قال الخضر في العيب فأردت وفي الخير فأراد ربك وكما قال الخليل –عليه السّلام– وإذا مرضت ولم يقل أمرضني وكما قال –تعالى–: ﴿في معرض التعليم لنا وما أصابك من سيّئة فمن نفسك﴾[1].

هذا، وإن كان الحقّ في هذا الخبر يحكى قولهم، ولكن فيه تنبيه في التّعليم؛ وكما قال –عليه السلام– في دعائه، وهو ممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه في التّنبيه في هذه الآية، فقال: والخير كله بيديك فأكد بكل وهي كلمة تقتضي الإحاطة في اللسان وقال والشر ليس إليك وإن كان لم يؤكده واكتفى بالألف واللام ونفى أضافه الشر أدبا مع الله وحقيقة.

وهذه المسألة من أغمض المسائل الإلهيّة عند أهل الله خاصّة.

وأمّا أهل النّظر، فقد اعتمدت كلّ طائفة منهم على ما اقتضاه دليلها في زعمها وهؤلاء الرجال الغالب عليهم فهم مقاصد الشّرع، فجرّوا معه على مقصده. وذلك من بركة الورع والاحترام الذي احترموا به الجناب الإلهي حقيقة لا مجازا فتح الله لهم بأدبهم عين الفهم في كتبه وفيما جاءت به رسله ممّا لا تستقل العقول بإدراكه وما تستقل لكن أخذوه عن الله لا عن نظرهم ففهموا من ذلك كلّه بهذه العناية ما لم يفهم من لم يتصف بهذه لصفة ولم يكن له هذا المقام.

ولمّا كان هذا حال الورعين سلكوا في أمورهم وحركاتهم مسالك العامة فلم يظهر عليهم ما يتميزون به عنهم واستتروا بالأسباب الموضوعة في العالم التي لا يقع الثناء بها على من تلبس بها فلم ينطق على هؤلاء الرّجال في العموم اسم صلاح يخرجهم عن صلاح العامّة ولا توكل ولا زهد ولا ورع ولا شيء مما يقع عليه اسم ثناء خاصّ يخرجون به عن العامة ويشار إليهم فيه مع أنهم أهل ورع وتوكل وزهد وخلق حسن وقناعة وسخاء وإيثار فأمثال

1

هذا كله اجتنب رجال الله من هؤلاء الطبقة فسموا ورعين في اصطلاح أهل الله لأن الورع الاجتناب وتدبر ما أحسن قول من أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم كيف قال في هذا المقام يعلم رجاله كيف يكونون فيه دع ما يريبك إلى ما لا يريبك وقال استفت قلبك وإن أفتاك المفتون فأحالهم على قلوبهم لما علم ما فيها من سرّ الله الحاوية عليه في تحصيل هذا المقام ففي القلوب عصمة إلهية لا يشعر بها إلا أهل المراقبة وفيه ستر لهم فإن هؤلاء الرجال لو سألوا وعرف منهم البحث والتفتيش في مثل هذا عند الناس وعند العلماء الذين سألوا في ذلك بالضرورة كان يشار إليهم ويعتقد فيهم الذين الخالص كبشر الحافي وغيره، وهو من أقطاب هذا المقام عرف به وسلم له حكي أن أخت بشر الحافي سألت أحد أئمة الدين في الغزل الذي تغزله في ضوء مشاغل الظاهرية إذا مروا بها ليلا وهي على سطحها فعرفت بهذا السؤال أنها من أهل الورع ولو عملت على حديث استفت قلبك لعلمت أنها ما سألت حتّى رابها فكانت تدع ذلك الغزل أو لا تغزل بعد ذلك وتترك الغزل فأفتاها الإمام المسؤول، وهو أحمد بن حنبل، وأثنى عليها بذلك حتى نقل إلينا وسطر في الكتب فأعطانا –صلّى الله عليه وسلّم– الميزان في قلوبنا ليكون مقامنا مستورا عن الأغيار خالصا لله مخلصا لا يعلمه إلّا الله ثم صاحبه وهو قوله ألا لله الدين الخالص فكلّ دين وقع فيه ضرب من الاشتراك المحمود أو المذموم فما هو بالدين الخالص الذي لله إن كان الذي وقع به الاشتراك محمودا كمثلة أخت بشر الحافي وإن وقع الاشتراك بالمذموم فليس بدين أصلا فإنه ليس ثمّ دين إلهي يتعلق به لسان ذم فلما رأى رجال هذا المقام مراعاة النبي –صلّى الله عليه وسلّم– ما يحصل في قلب العبد مما قاله وما أحال به لإنسان على نفسه باجتنابه طلبا للتّستّر تعملّوا في تحصيل ذلك وسلكوا عليه وعلموا إن النجاة المطلوبة من الشّارع لنا إنّما هي في ستر المقام فأعطاهم العمل على هذا والتّحقّق به الحقيقة الإلهيّة التي استندوا إليها في ذلك وهو اجتنابه التّجلّي منه –سبحانه– لعموم عباده في الدنيا فاقتدوا بربّهم في احتجاجه عن خلقه فعلم هؤلاء الرّجال أن هذه الدار دار ستر وأن الله ما اكتفى في التعريف بالدين حتى نعته بالخالص فطلبوا طريقا لا يشوبهم فيها شيء من الاشتراك حتى يعاملوا الموطن بما يستحقه أدبا وحكمة وشرعا واقتداء فاستتروا عن الخلق بحنن الورع الذي لا يشعر به وهو ظاهر الدين والعلم المعهود فإنّهم لو سلكوا غير المعهود في الظّاهر في العموم من الدين لتميزوا وجاء الأمر على خلاف ما قصدوه فكانت أسماؤهم أسماء العامة فهؤلاء الرجال يحمدهم الله وتحمدهم الأسماء الإلهية

القدسية ويحمدهم الملائكة ويحمدهم الأنبياء والرّسل ويحمدهم الحيوان والنبات والجماد وكل شيء يسبح بحمد الله وأما الثقلان فيجهلونهم إلّا أهل التعريف الإلهي فإنهم يحمدونهم ولا يظهرونهم وأما غير أهل التّعريف الإلهي من الثقلين فهم فيهم مثل ما هم في حق العامة يذكرونهم بحسب أغراضهم فيهم لا غير فلهم المقام المجهول في العامّة.

أمّا ثناء الله عليهم، فلتعملهم استخلاصهم لله، فخلصوا له دينه، فأثنى عليهم، حيث لم يملّكهم كون ولا حكم على عبوديّتهم ربّ غير الله.

وأمّا ثناء الأسماء الإلهيّة عليهم، فكونهم تلقوها وعلموا تأثيرها وما أثّروا بها في كون من الأكوان، فيذكرون بذلك الأمر الذي هو لذلك الاسم الإلهي، فيكون حجابًا على ذلك الاسم.

فلمّا لم يفعلوا ذلك وأضافوا الأثر الصادر على أيديهم للاسم الإلهي الذي هو صاحب الأثر على الحقيقة حمدتهم الأسماء الإلهيّة بأجمعها.

وأما ثناء الملائكة فلأنهم ما زاحموهم فيما نسبوه إلى أنفسهم بالنّسبة لا بالفعل في قولهم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك، فقال هؤلاء الرّجال: "لا حول ولا قوة إلّا بك"، فلم يدعوا في شيء ممّا هم علمه من تعظيم الله ونسبوا ذلك إلى الله فأثنت عليهم الملائكة فإنها مع هذه الحال لم تجرح الملائكة وتأدبت معها حيث لم تتعرض للطعن عليها بما صدر منها في حق أبيها آدم –عليه السّلام–، واعتذرت عن الملائكة لإيثارهم جناب الحق وإصابتهم العلم فإنه وقع ما قالوه في بني آدم لا شك من الفساد وسفك الدماء ولهذا سر معلوم.

وأما ثناء الأنبياء والرسل عليهم السلام فلكونهم سلموا لهم ما ادعوه أنه لهم من النّبوّة والرّسالة وآمنوا بهم وما توقفوا مع كونهم على أحوالهم من أجزاء النبوة قد اتصفوا بها ولكن مع هذا لم يتسموا بأنبياء ولا برسل وأخلصوا في اتباع آثارهم قدما بقدم كما روى عن الإمام أحمد بن حنبل المتبع المقتدى سيد وقته في تركه أكل البطيخ لأنه ما ثبت عنده كيف كان يأكله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فدل ذلك على قوة تباعه كيفيات أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم في حركاته وسكناته وجميع أفعاله وأحواله وإنما عرف هذا منه لأنه كان في مقام الوراثة في التبليغ والإرشاد بالقول والعمل والحال لأن ذلك أمكن في نفس السامع فهو وأمثاله حفاظ الشريعة على هذه الأمة وأما ثناء الحيوان والنبات والجماد عليهم فإن هؤلاء الأصناف عرفوا الحركات التي تسمى عبثا من التي لا تسمى

عبثا فكل من تحرك فيهم بحركة تكون عبثًا عند المتحرك بها لا عند المحرك يعلم النّاظر منهم المشاهد لتلك الحركة البعثية أنّه صاحب غفلة عن الله ورأت هذه الطائفة أنها لا تتحرّك في حيوان ولا نبات ولا جماد بحركة تكون عبثا ويلحق بهذا الباب صيد الملوك ومَن لا حاجة له بذلك إلا للفرجة واللهو واللعب فأثنى من ذكرناه من هؤلاء الأصناف على هذه الطائفة فالله يقول وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما بإمهالكم حيث لم يؤاخذكم سريعا بما رددتم من ذلك غفورا حيث ستر عنكم تسبيح هؤلاء فلم تفقهوه.

وقال –تعالى– في حال من مات ممقوتا عند الله: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾[1]، فوصف السّماء والأرض بالبكاء على أهل الله، ولا يشكّ مؤمن في كلّ شيء أنّه مسبّح، وكلّ مسبّح حيّ عقلًا وورد أنّ العصفور يأتي يوم القيامة، فيقول: "يا ربّ، سل هذا لم قتلني عبثًا وكذلك من يقطع شجرة لغير منفعة أو ينقل حجرا لغير فائدة تعود على أحد من خلق الله.

فلمّا أعطى الله هذه المعارف لهؤلاء الأصناف، لذلك وصفتها بالثّناء على هؤلاء الرجال وعرفت ذلك منهم كشفا حسيا مثل ما كان للصحابة سماع تسبيح الحصاء وتسبيح الطعام، لأنّهم ليس بينهم وبين الحركة العبثية دخول بل يجتنبون ذلك جملة واحدة.

ولمّا جهل أكثر الثّقلين هذه العلوم لذلك لا يعرفون مراتب هؤلاء الرجال، فلا يمدحونهم ولا يتعرّضون إليهم ولهذا أخبر –تعالى– أن كل شيء في العالم يسجد لله تعالى من غير تبعيض إلا النّاس، فقال: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السّماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشّجر والدوابّ﴾[2]، ولم يبعّض، ﴿وكثير من الناس﴾[3]، فبعّض.

فإن فهمت ما ذكرناه لك من صفة أصحاب هذا المقام وسلكت طريقهم كنت من المفلحين الفائزين.

﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾[4].

1
2
3
4

انتهى الجزء الثّالث والعشرون.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الباب الرابع والأربعون
في البهاليل وأئمتهم في البهللة

إذا كنت في طاعة راغبا * فلا تكسها حلة الآجل
وكن كالبهاليل في حالهم * مع الوقت يجرون كالعاقل
وحوصل من السّنبل الحاصل * ولا تصبرن إلى قابل
فحوصلة الرّزق قد هيئت * ليحصل ما ليس بالحاصل
ولا تبكين على فائت * يفتك الذي هو في العاجل
وسوف فلا تلتفت حكمها * ولا السّين وارحل مع الرّاحل
عساك إذا كنت ذا عزمة * ومت حصلت على طائل
وقل للذي لم يزل وانيا * تخبّطت في شرك الحابل
وما ظفرت كفكم بالذي * تريد فيا خيبة السّائل
فلو كان فعلك في أمره * كفعل الفتى الحذر الواجل
لميزت بيني وبين الذي * يجلي لك الحق كالباطل

يقول الله –تعالى–: ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾[1]. وذلك أنّ لله قومًا كانت عقولهم محجوبة بما كانوا عليه من الأعمال التي كلّفهم الحقّ –تعالى– في كتابه وعلى لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم– التّصرّف فيها شرعًا وشرّعها لهم، ولم يكن لهم علم بأنّ لله –تعالى– الحقّ فجأة لمن خلا به في سرّه وأطاعه في أمره وهيّأ قلبه لنوره من حيث لا يشعر، ففجأه الحقّ على غفلة منه بذلك وعدم علم واستعداد لهائل أمر، فذهب بعقله في الذّاهبين وأبقى –تعالى– ذلك الأمر الذي فجأه مشهودًا له فهام فيه ومضى معه، فبقي في عالم شهادته بروحه الحيواني يأكل ويشرب ويتصرّف في ضروراته الحيوانيّة

1

تصرف الحيوان المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضاره من غير تدبير ولا روية ولا فكر ينطق بالحكمة ولا علم له بها ولا يقصد نفعك بها لتتعظ وتتذكر أن الأمور ليست بيدك وأنك عبد مصرف بتصريف حكيم وسقط التكليف عن هؤلاء إذ ليس لهم عقول يقبلون بها ولا يفقهون بها تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون خذ العفو أي القليل مما يجري الله على ألسنتهم من الحكم والمواعظ وهؤلاء هم الذين يسمون عقلاء المجانين يريدون بذلك أن جنونهم ما كان سببه فساد مزاج عن أمر كوني من غذاء أو جوع أو غير ذلك وإنما كان عن نجل إلهي لقلوبهم وفجأة من فجآت الحق فجأتهم فذهبت بعقولهم فعقولهم محبوسة عنده منعمة بشهوده عاكفة في حضرته متنزهة في جماله فهم أصحاب عقول بلا عقول وعرفوا في الظاهر بالمجانين أي المستورين عن تدبير عقولهم فلهذا سموا عقلاء المجانين قيل لأبي السعود بن الشبل البغدادي عاقل زمانه ما تقول في عقلاء المجانين من أهل الله، فقال –رضي الله عنه– هو ملاح والعقلاء منهم أملح قيل له فبما ذا نعرف مجانين الحقّ من غيرهم فقال: مجانين الحقّ تظهر عليهم آثار القدرة والعقلاء يشهد الحقّ بشهودهم".

أخبرني بذلك عنه صاحبه أبو البدر التّماسكي –رحمه الله–، وكان ثقة ضابطًا عارفًا بما ينقل لا يجعل فاء مكان واو، فقال الشّيخ: "مَن شاهد ما شاهدوا وأبقى عليه عقله فذلك أحسن وأمكن فإنه قد أقيم وأعطى من القوة قريبا مما أعطيت الرسل وإن تغيروا في وقت الفجأة فقد علمنا أن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– لما فجأه الوحي جئت منه رعبا فأتى خديجة ترجف بوادره فقال: "زمّلوني! زملوني!"، وذلك من تجلى ملك، فكيف به بتجلي ملك؟! فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه الوحي ونزل الرّوح الأمين به على قلبه أخذ عن حسه وسجى ورغا كما يرغو البعير حتى ينفصل عنه وقد وعى ما جاءه به، فيلقيه على الحاضرين ويبلغه للسامعين فمواجده –صلى الله عليه وسلم– من تجليات ربه على قلبه أعظم سطوة من نزول ملك وارد في الوقت الذي لم يكن يسعه فيه غير ربه ولكن كان منتظرا مستعدا لذلك الهول ومع هذا يؤخذ عن نفسه فلولا أنه رسول مطلوب بتبليغ الرسالة وسياسة الأمة لذهب الله بعقول الرسل لعظيم ما يشاهدونه فمكّنهم الله القوي المتين من القوّة بحيث يتمكنون من قبول ما يرد عليهم من الحق ويوصلونه إلى الناس ويعملون به.

فاعلم إنّ النّاس في هذا المقام على إحدى ثلاث مراتب منهم من يكون وارده أعظم من القوة التي يكون في نفسه عليها فيحكم الوارد عليه فيغلب عليه الحال فيكون بحكمه يصرفه الحال ولا تدبير له في نفسه ما دام في ذلك الحال فإن استمر عليه إلى آخر عمره فذلك المسمّى في هذه الطريقة بالجنون كأبي عقال المغربي ومنهم من يمسك عقله هناك ويبقى عليه عقل حيوانيّته فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية فهؤلاء يسمون عقلاء المجانين لتناولهم العيش الطبيعي كسائر الحيوانات.

وأمّا مثل أبي عقال فمجنون مأخوذ عنه بالكلية ولهذا ما أكل وما شرب من حين أخذ إلى أن مات وذلك في مدة أربع سنين بمكة فهو مجنون أي مستور مطلق عن عالم حسه ومنهم من لا يدوم له حكم ذلك الوارد فيزول عنه الحال فيرجع إلى الناس بعقله فيدبر أمره ويعقل ما يقول ويقال له ويتصرف عن تدبير وروية مثل كلّ إنسان وذلك هو النبي وأصحاب الأحوال من الأولياء ومنهم من يكون وارده وتجليه مساويًا لقوته فلا يرى عليه أثر من ذلك حاكم لكن يشعر عند ما يبصران ثم أمرا ما طرأ عليه شعورا خفيا فإنه لا بد لهذا أن يصغي إليه أي إلى ذلك الوارد حتى يأخذ عنه ما جاءه به من عند الحق فحاله كحال جليسك الذي يكون معك في حديث فيأتي شخص آخر في أمر من عند الملك إليه فيترك الحديث معك ويصغي إلى ما يقول له ذلك الشخص فإذا أوصل إليه ما عنده رجع إليك فحادثك فلو لم تبصره عينك ورأيته يصغي إلى أمر شعرت أن ثم أمرا شغله عنك في ذلك كرجل يحدثك فأخذته فكرة في أمر فصرف حسه إليه في خياله فجمدت عينه ونظره وأنت تحدثه فتنظر إليه غير قابل حديثك فتشعر أن باطنه متفكر في أمر آخر خلاف ما أنت عليه ومنهم من تكون قوته أقوى من الوارد فإذا أتاه الوارد وهو معك في حديث لم تشعر به وهو يأخذ من الوارد ما يلقى إليه ويأخذ عنك ما تحدثه به أو يحدثك به وما ثم أمر رابع في واردات الحق على قلوب أهل هذه الطريقة وهي مسألة غلط فيها بعض أهل الطريق في الفرق بين النبي والولي فقالوا الأنبياء يصرفون الأحوال والأولياء تصرفهم الأحوال فالأنبياء مالكون أحوالهم والأولياء مملوكون لأحوالهم والأمر إنما هو كما فصلناه لك وقد بينا لك لما ذا يرد الرسول ويحفظ عليه عقله مع كونه يؤخذ ولا بد عن حسه في وقت وارد الحق على قلبه بالوحي المنزل فافهم ذلك وتحققه وقد لقينا جماعة منهم وعاشرناهم واقتبسنا من فوائدهم ولقد كنت واقفا على واحد منهم والناس قد اجتمعوا عليه وهو ينظر إليهم وهو يقول لهم أطيعوا الله يا مساكين فإنكم من طين خلقتم وأخاف عليكم أن تطبخ النار هذه

الأواني فتردها فخارا فهل رأيتم قط آنية من طين تكون فخارا من غير أن تطبخها نار يا مساكين لا يغرنكم إبليس بكونه يدخل النار معكم وتقولون الله يقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين إبليس خلقه الله من نار فهو يرجع إلى أصله وأنتم من طين تتحكم النار في مفاصلكم يا مساكين انظروا إلى إشارة الحق في خطابه لإبليس بقوله لأملأن جهنم منك وهنا قف ولا تقرأ ما بعدها فقال له جهنم منك وهو قوله خلق الجان من مارج من نار فمن دخل بيته وجاء إلى داره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد عليه فهو رجع إلى ما به افتخر قال أنا خير منه خلقتني من نار فسروره رجوعه إلى أصله وأنتم يا مناحيس تتفخر بالنار طينتكم فلا تسمعوا من إبليس ولا تطيعوا واهربوا إلى محل النور تسعدوا يا مساكين أنتم عمي ما تبصرون الذي أبصره أنا تقولون سقف هذا المسجد ما يمسكه إلا هذه الأسطوانات أنتم تبصرونها أسطوانات من رخام وأنا أبصرها رجالا يذكرون الله ويمجدونه بالرجال تقوم السماوات فكيف هذا المسجد ما أدري إما أنا هو الأعمى لا أبصر الأسطوانات حجارة وإما أنتم هم العمي لا تبصرون هذه الأسطوانات رجالا والله يا إخوتي ما أدري لا والله أنتم هم العمي ثم استشهدني دون الجماعة فقال يا شاب ألست أقول الحق قلت بلي ثم جلست إلى جانبه فجعل يضحك وقال يا ناس الأستاه المنتنة تصفر بعضها لبعض وهذا الشاب منتن مثلي هذه المناسبة جعلته يجلس إلى جانبي ويصدقني أنتم الساعة تحسبونه عاقلا وأنا مجنون هو أجن مني بكثير وإنما أنتم كما أعماكم الله عن رؤية هذه الأسطوانات رجالا أعماكم أيضا عن جنون هذا الشاب ثم أخذ بيدي وقال قم امش بنا عن هؤلاء فخرجت معه فلما فارق الناس ترك يدي من يده وانصرف عني وهو من أكبر من لقيته من المعتوهين كنت إذا سألته ما الذي ذهب بعقلك يقول لي أنت هو المجنون حقا ولو كان لي عقل كنت تقول لي ما الذي ذهب بعقلك أين عقلي حتى يخاطبك قد أخذه معه ما أدري ما يفعل به وتركني هنا في جملة الدواب آكل وأشرب وهو يدبرني قلت له فمن يركبك إذا كنت دابة قال أنا دابة وحشية لا أركب ففهمت أنه يريد خروجه عن عالم الإنس وأنه في مفاوز المعرفة فلا حكم للانس عليه وكذلك كان محفوظا من أذى الصبيان وغيرهم كثير السكوت مبهوتا دائم الاعتبار يلازم المسجد ويصلي في أوقات فربما كنت أسأله عند ما أراه يصلي أقول له أراك تصلي يقول لي لا والله إنما أراه يقيمني ويقعدني ما أدري ما يريد بي أقول له فهل تنوي في صلاتك هذه أداء ما افترض الله عليك فيقول لي أي شيء تكون النية أقول له القصد بهذه الأعمال

القربة إليه فيضحك ويقول أنا أقول له أراه يقيمني ويقعدني فكيف أنوي القربة إلى من هو معي وأنا أشهده ولا يغيب عني هذا كلام المجانين ما عندكم عقول ثم لتعلم إن هؤلاء البهاليل كبهلول وسعدون من المتقدمين وأبي وهب الفاضل وأمثالهم منهم المسرور ومنهم المحزون وهم في ذلك بحسب الوارد الأول الذي ذهب بعقولهم فإن كان وارد قهر قبضهم كيعقوب الكوراني كان بالجسر الأبيض رأيته وكان على هذا القدم وكذلك مسعود الحبشي رأيته بدمشق ممتزجا بين القبض والبسط الغالب عليه البهت وإن كان وارد لطف بسطهم رأيت من هذا الصنف جماعة كأبي الحجاج الغليري وأبي الحسن علي السلاوي والناس لا يعرفون ما ذهب بعقولهم شغلهم ما تجلى لهم عن تدبير نفوسهم فسخر الله لهم الخلق فهم مشتغلون بمصالحهم عن طيب نفس فأشهى ما إلى الناس أن يأكل واحد من هؤلاء عنده أو يقبل منه ثوبا تسخيرا إلهيا فجمع الله لهم بين الراحتين حيث يأكلون ما يشتهون ولا يحاسبون ولا يسألون وجعل لهم القبول في قلوب الخلق والمحبة والعطف عليهم واستراحوا من التكليف ولهم عند الله أجر من أحسن عملا في مدة أعمارهم التي ذهبت بغير عمل لأنه سبحانه هو الذي أخذهم إليه فحفظ عليهم نتائج الأعمال التي لو لم يذهب بعقولهم لعملوها من الخير كمن بات نائما على وضوء وفي نفسه أن يقوم من الليل يصلي فيأخذ الله بروحه فينام حتى يصبح فإن الله يكتب له أجر من قام ليلة لأنه الذي حبسه عنده في حال نومه فالمخاطب بالتكليف منهم وهو روحهم غائب في شهود الحق الذي ظهر سلطانه فيهم فما لهم أذن واعية لحفظ السماع من خارج وتعقل ما جاء به ولقد ذقت هذا المقام ومر على وقت أؤدي فيه الصلوات الخمس إماما بالجماعة على ما قيل لي بإتمام الركوع والسجود وجميع أحوال الصلاة من أفعال وأقوال وأنا في هذا كله لا علم لي بذلك لا بالجماعة ولا بالمحل ولا بالحال ولا بشيء من عالم الحس لشهود غلب على غبت فيه عني وعن غيري وأخبرت أني كنت إذا دخل وقت الصلاة أقيم الصلاة وأصلي بالناس فكان حالي كالحركات الواقعة من النائم ولا علم له بذلك فعلمت إن الله حفظ على وقتي ولم يجر على لساني ذنب كما فعل بالشبلي في ولهه لكنه كان الشبلي يرد في أوقات الصلوات على ما روى عنه فلا أدري هل كان يعقل رده أو كان مثل ما كنت فيه فإن الراوي ما فصل فلما قيل للجنيد عنه قال: "الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب، إلّا أني كنت في أوقات في حال غيبتي أشاهد ذاتي في النور الأعمّ والتجلي الأعظم بالعرش العظيم يصلي بها، وأنا عرى عن الحركة بمعزل عن نفسي وأشاهدها بين يديه راكعة

وساجدة، وأنا أعلم أني أنا ذلك الراكع والساجد كرؤية النائم واليد في ناصيتي، وكنت أتعجب من ذلك.

واعلم أن ذلك ليس غيري ولا هو أنا ومن هناك عرفت المكلف والتّكليف والمكلّف اسم فاعل واسم مفعول، فقد أبنتُ لك حالة المأخوذين عنهم من المجانين الإلهيّين إبانة ذائق بشهود حاصل.

﴿والله يقول الحق وهو يهدي السّبيل﴾[1].

[1]

الباب الخامس والأربعون

في معرفة من عاد بعد ما وصل ومن جعله يعود

وجودك عن تدبير أمر محقق * وتفصيل آيات لو أنك تعقل
فيا أيها الإنسان ما غر ذاتكم * برب يرى الأشياء تعلو وتسفل
فإن كنت ذا عقل وفهم وفطنة * علمت الذي قد كنت بالأمس تجهل
وذلك أن تدري بأنك قابل * لقرب وبعد بالذي أنت تعمل
فخف رب تدبير وتفصيل مجمل * فذاك الذي بالعبد أولى وأجمل
إذا كان هذا حالك اليوم دائبا * لعل بشارات بسعدك تحصل
فإن جلال الحق يعظم قدره * وفي الخلق يقضي ما يشاء ويفصل
إذا أخذ المولى قلوب عباده * إليه ويقضي ما يشاء ويعدل
فمن شاء أبقاه لديه مكرما * ورد الذي قد شاء لما كان يأمل
وذاك نبي أو رسول ووارث * وما ثم إلا هؤلاء فأجملوا
ولم يبق إلا واحد وهو وارث * والاثنان قد راحا فما لك تعدل
فسبحان من خص الولي براحة * ليغبطه فيها الذي هو أفضل

قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–: "العلماء ورثة الأنبياء"، وإن الأنبياء ما ورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم.

ولمّا كانت حالته –صلّى الله عليه وسلّم– في ابتداء أمره –صلّى الله عليه وسلّم– إنّ الله –تعالى– وفّقه لعبادته بملّة إبراهيم الخليل –عليه السّلام–، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه عناية من الله –سبحانه– به –صلّى الله عليه وسلّم– إلى أن فجأه الحقّ فجاءه الملك، فسلّم عليه بالرّسالة وعرّفه بنبوّته.

فلمّا تقرّرت عنده أرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ودعا إلى الله –عزّ وجلّ– على بصيرة فالوارث الكامل من الأولياء منّا مَن انقطع إلى الله بشريعة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– إلى أن فتح الله له في قلبه في فهم ما أنزل الله –عزّ وجلّ– على نبيه ورسوله محمد –صلّى الله عليه وسلّم– بتجل إلهي في باطنه فرزقه الفهم في كتابه عز وجل وجعله من المحدثين في هذه الأمة فقام له هذا مقام الملك الذي جاء إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– ثم رده الله إلى الخلق يرشدهم إلى صلاح قلوبهم مع الله ويفرق لهم بين الخواطر المحمودة والمذمومة ويبين لهم مقاصد الشرع وما ثبت من الأحكام عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وما لم يثبت بإعلام من الله أتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما فيرقى هممهم إلى طلب الأنفس بالمقام الأقدس ويرغبهم فيما عند الله كما فعل رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– في تبليغ رسالته غير إن الوارث لا يحدث شريعة ولا ينسخ حكما مقررا لكن يبين فإنه على بينة من ربه وبصيرة في علمه ويتلوه شاهد منه بصدق اتباعه، وهو الذي أشركه الله – تعالى– مع رسوله –صلّى الله عليه وسلّم– في الصفة التي يدعو بها إلى الله، فأخبر وقال أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وهم الورثة فهم يدعون إلى الله على بصيرة وكذلك شركهم مع الأنبياء –عليهم السّلام– في المحنة وما ابتلوا به فقال إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وهم الورثة فشرك بينهم في البلاء كما شرك بينهم في الدعوة إلى الله فكان شيخنا أبو مدين رضي الله عنه كثيرا ما يقول من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق وهذه حالة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– في خروجه وانقطاعه عن النّاس في غار حراء للتّحنّث ثمّ يقول: ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحقّ فما زال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– يتحنث في انقطاعه حتى فجأه الحقّ ثمّ قال ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق يريد حالة بعثه –صلّى الله عليه وسلّم– بالرسالة إلى الناس ويعني في حق الورثة بالإرشاد وحفظ الشريعة عليهم فأراد الشيخ بهذا صفة الكمال في الورث النبوي فإن لله عبادا إذا فجأهم الحق أخذهم إليه ولم يردهم إلى العالم وشغلهم به وقد وقع هذا كثيرا ولكن كمال الورث النبوي الرّسالي في الرجوع إلى الخلق فإن اعترضك هنا قول أبي سليمان الدّاراني لو وصلوا ما رجعوا إنّما ذلك فيمن رجع إلى شهواته الطّبيعيّة ولذاته وما تاب منه إلى الله.

وأمّا الرّجوع إلى الله –تعالى– بالإرشاد فلا يقول لو لاح لهم بارقة من الحقيقة ما رجعوا إلى ما تابوا إلى الله منه ولو رأوا وجه الحق فيه فإن موطن التكليف والأدب يمنعهم من ذلك وأما قول الآخر من أكابر الرجال لما قيل له فلان يزعم أنه وصل فقال إلى سقر فإنه يريد بهذا أنه من زعم أن الله محدود يوصل إليه وهو القائل وهو معكم أينما كنتم أو ثم أمر إذا وصل إليه سقطت عنه الأعمال المشروعة وأنه غير مخاطب بها مع وجود عقل التكليف عنده وإن ذلك الوصول أعطاه ذلك فهو هذا الذي قال فيه الشيخ إلى سقر أي هذا لا يصح بل الوصول إلى الله بقطع كل ما دونه حتى يكون الإنسان يأخذ عن ربه فهذا لا تمنعه الطائفة بلا خلاف.

وكان شيخنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي يقول بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم نرجع فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه وهو قول أبي سليمان الدّاراني لو وصلوا ما رجعوا يريد إلى رأس العقبة فمن رجع من الناس إنما رجع من قبل الوصول إلى رأس العقبة والإشراف على ما وراءها فالسبب الموجب للرجوع مع هذا إنما هو طلب الكمال ولكن لا ينزل بل يدعوهم من مقامه ذلك، وهو قوله على بصيرة فيشهد فيعرف المدعو على شهود محقق والذي لم يرد ماله وجه إلى العالم فيبقى هناك واقفا وهو أيضا المسمى بالواقف فإنه ما وراء تلك العقبة تكليف ولا ينحدر منها إلّا من مات إلا أنه منهم أعني من الواقفين من يكون مستهلكا فيما يشاهده هنالك، وقد وجد منهم جماعة؛ وقد دامت هذه الحالة على أبي يزيد البسطامي.

وهذا كان حال أبي عقال المغربي وغيره.

واعلم أنه بعد ما أعلمتك ما معنى الوصول إلى الله أنّ الواصلين على مراتب منهم من يكون وصوله إلى اسم ذاتي لا يدلّ إلّا على الله –تعالى– من حيث هو دليل على الذّات كالأسماء الأعلام عندنا لا تدلّ على معنى آخر مع ذلك يعقل فهذا يكون حاله الاستهلاك كالملائكة المهيمن في جلال الله –تعالى– والملائكة الكروبيّين، فلا يعرفون سواه ولا يعرفهم سواه سبحانه ومنهم من يصل إلى الله من حيث الاسم الذي أوصله إلى الله أو من حيث الاسم الذي يتجلّى له من الله ويأخذه من الاسم الذي أوصله إليه –سبحانه– ثمّ إنّ هذين الرجلين المذكورين أو الشّخصين، فإنّه قد يكون منهم النساء إذا وصلوا. فإن كان وصولهم من حيث الاسم الذي أوصلهم فشاهدوه فكان لهم عين يقين فلا يخلو ذلك

الاسم إما أن يطلب صفة فعل كخالق وبارئ أو صفة صفة كالشكور والحسيب أو صفة تنزيه كالغني فيكون بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم ومن ثم يكون مشربه وذوقه وريه ووجوده لا يتعداه فيكون الغالب عليه عندنا في حاله ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهي فتضيفه إليه وبه تدعوه فتقول عبد الشكور وعبد الباري وعبد الغني وعبد الجليل وعبد الرزاق وإن كان وصولهم إلى اسم غير الاسم الذي أوصلهم فإنه يأتي بعلم غريب لا يعطيه حاله بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم فيتكلم بغرائب العلم في ذلك المقام وقد يكون في ذلك العلم ما ينكره عليه من لا علم له بطريق القوم ويرى الناس أن علمه فوق حاله وهو عندنا أعلى من الذي وصل إلى مشاهدة الاسم الذي أوصله فإن هذا لا يأتي بعلم غريب لا يناسب حاله فيرى الناس أن علمه تحت حاله ودونه يقول أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه العارف فوق ما يقول والعالم تحت ما يقول.

فبهذا قد حصرنا لك مراتب الواصلين فمنهم من يعود ومنهم من لا يعود ثم إن الراجعين على قسمين منهم من يرجع اختيارا كأبي مدين ومنهم من يرجع اضطرارا مجبورا كأبي يزيد لما خلع عليه الحق الصفات التي بها ينبغي أن يكون وارثا وراثة إرشاد وهداية خطا خطوة من عنده فغشي عليه فإذا النداء ردوا على حبيبي فلا صبر له عني فمثل هذا لا يرغب في الخروج إلى الناس وهو صاحب حال وأما العالي من الرجال وهم الأكابر وهم الذين ورثوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبوديته فإن أمروا بالتبليغ فيحتالون في ستر مقامهم عن أعين الناس ليظهروا عند الناس بما لا يعلمون في العادة أنهم من أهل الاختصاص الإلهي فيجمعون بين الدعوة إلى الله وبين ستر المقام فيدعونهم بقراءة الحديث وكتب الرقائق وحكايات كلام المشايخ حتى لا تعرفهم العامة إلا أنهم نقلة لا أنهم يتكلمون عن أحوالهم من مقام القربة هذا إذا كانوا مأمورين ولا بد وإن لم يكونوا مأمورين بذلك فهم مع العامة التي لم تزل مستورة الحال لا يعتقد فيهم خير ولا شر ثم إن من الرجال الواصلين من لا يكشف لهم عن العلم بالأسماء الإلهيّة التي تدبرهم ولكن لهم نظر إلى الأعمال المشروعة التي يسلكون بها وهي ثمانية يد ورجل وبطن ولسان وسمع وبصر وفرج وقلب ما ثمّ غير ذلك فهؤلاء يفتح لهم عند وصولهم في عالم المناسبات فينظرون فيما يفتح لهم عند الوصول إلى الباب الذي قرعوه فعند ما يفتح لهم يعرفون فيما يتجلى لهم من الغيب أي باب ذلك الباب الذي فتح لهم فإن كان المشهود لهم يطلب اليد

بمناسبة تظهر لهم كان صاحب يد وإن كان يطلب البصر بمناسبة كان صاحب بصر وهكذا جميع الأعضاء.

ومن ذلك الجنس تكون كراماته إن كان وليا ومعجزاته إن كان نبيا ومن ذلك الجنس تكون منازله ومعارفه كما أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يركع ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشيء فتحت له الثمانية الأبواب من الجنة يدخل من أيها شاء كذلك هذا الشخص يفتح له من أعمال أعضائه إذا كملت طهارته وصفا سره أي شئ كان مما تعطيه أعمال أعضائه المكلفة وقد بينا هذه المراتب العمليّة على الأعضاء في كتاب مواقع النجوم ثم إن الله سبحانه يمدهم من الأنوار بما يناسبهم وهي ثمانية من حضرة النور فمنهم من يكون إمداده من نور البرق وهو المشهد الذاتي وهو على ضربين خلب وغير خلب فإن لم ينتج مثل صفات التنزيه فهو البرق الخلب وإن أنتج ولا ينتج إلا أمرا واحدا لأنه ليس لله صفة نفسية سوى واحدة هي عين ذاته لا يصحّ أن تكون اثنان فإن اتفق أن يحصل له من هذا النّور البرقي في بعض كشف تعريف إلهي لا يكون برق خلب ومنهم مَن يكون إمداده من حضرة النور نور الشمس ومنهم من يكون إمداده من نور البدر ومنهم من يكون إمداده من نور القمر ومنهم من يكون إمداده من نور الهلال ومنهم من يكون إمداده من نور السراج ومنهم من يكون إمداده من نور النّجوم ومنهم من يكون إمداده من نور النار وما ثم نور أكثر وقد ذكرنا مراتب هذه الأنوار في مواقع النجوم أيضا فيكون إدراكهم على قدر مراتب أنوارهم فتتميز المراتب بتمييز الأنوار وتتميز الرجال بتمييز المراتب ومن الرجال الواصلين من ليس لهم معرفة بهذا المقام ولا بالأسماء الإلهية ولكن لهم وصول إلى حقائق الأنبياء ولطائفهم فإذا وصلوا فتح لهم باب من لطائف الأنبياء على قدر ما كانوا عليه من الأعمال في وقت الفتح فمنهم من يتجلى له حقيقة موسى عليه السلام فيكون موسوي المشهد ومنهم من يتجلى له لطيفة عيسى وهكذا سائر الرّسل فينسب إلى ذلك الرّسول بالوراثة، ولكن من حيث شريعة محمد صلى الله عليه وسلم المقررة من شرع ذلك النبي الذي تجلى له فيجد هذا الواصل أنه كان محققا في عمله الموجب لفتحه من جهة ظاهره أو باطنه شرع نبي متقدم مثل قوله تعالى أقم الصلاة لذكري فإن ذلك من شرع موسى وقرره الشارع لنا فيمن خرج عنه وقت الصلاة بنوم أو نسيان فهؤلاء يأخذون من لطائف الأنبياء عليهم السلام ولقينا منهم جماعة وليس لهؤلاء في الأنوار ولا في الأعضاء ولا في الأسماء الإلهية ذوق ولا شرب ولا شرب ومن الواصلين

أيضا إلى الله تعالى الوصول الذي بيناه من يجمع الله له الجميع ومنهم من يكون له من ذلك مرتبتان وأكثر على قدر رزقه الذي قسمه الله له منه وكلّ إنسان من هؤلاء إذا ردّ إلى الخلق بالإرشاد والهداية لا يتعدى ذوقه في أي مرتبة كان.

﴿والله يقول الحق وهو يهدي السّبيل﴾.

الباب السّادس والربعون
في معرفة العلم القليل ومن حصله من الصالحين

العلم بالأشياء علم واحد * والكثر في المعلوم لا في ذاته
والأشعري يرى ويزعم أنه * متعدد في ذاته وصفاته
إن الحقيقة قد أبت ما قاله * ولو أنه من فكره وهباته
الحقّ أبلج لا خفاء بأنه * متوحد في عينه وسماته

قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1]، فكان شيخنا أبو مدين يقول: "إذا سمع من يتلو هذه الآية القليل أعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا والكثير منه لم نصل إليه فنحن الجاهلون على الدوام وقال من هذا الباب خضر لموسى عليه السلام لما رأى الطائر الذي وقع على حرف السفينة ونقر في البحر بمنقاره أتدري ما يقول هذا الطائر في نقرة في الماء قال موسى عليه السلام لا أدري قال يا موسى يقول هذا الطائر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص من هذا البحر منقاري والمراد المعلومات بذلك لا العلم فإن العلم لو تعدد أدى أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى وهو محال فإن المعلومات لا نهاية لها.

فلو كان لكل معلوم علم لزم ما قلناه ومعلوم أن الله يعلم ما لا يتناهى فعلمه واحد فلا بد أن يكون للعلم عين واحدة لأنّه لا يتعلق بالمعلوم حتى يكون موجودا وما هو ذلك العلم هل هو ذات العالم أو أمر زائد في ذلك خلاف بين النظّار في علم الحقّ –سبحانه– ومعلوم أن علم الله متعلق بما لا يتناهى فبطل أن يكون لكلّ معلوم علم وسواء زعمت أن العلم عين ذات العالم أو صفة زائدة على ذاته إلّا أن تكون ممن يقول في الصفات إنها نسب.

وإن كنت ممّن يقول إن العلم نسبة خاصة فالنسب لا تتصف بالوجود نعم ولا بالعدم كالأحوال، فيمكن على هذا أن يكون لكل معلوم علم وقد علمنا إن المعلومات لا تتناهى فالنّسب لا تتناهى ولا يلزم من ذلك محال كحدوث التّعلّقات عند ابن الخطيب

1

والاسترسال عند إمام الحرمين وبعد أن فهمت ما قررناه في هذه المسألة فقل بعد ذلك ما شئت من نسبة الكثرة للعلم والقلة فما وصف الله العلم بالقلة إلا العلم الذي أعطى الله عباده وهو قوله وما أوتيتم أي أعطيتم فجعله هبة وقال في حق عبده خضر وعلمناه من لدنا علما وقال علم القرآن فهذا كله يدلك على أنه نسبة لأن الواحد في ذاته لا يتصف بالقلّة ولا بالكثرة، لأنه لا يتعدد. وبهذا نقول إن الواحد ليس بعدد، وإن كان العدد منه ينشأ.

ألا ترى أنّ العالم وإن استند إلى الله ولم يلزم أن يكون الله من العالم كذلك الواحد وإن نشأ منه العدد فإنه لا يكون بهذا من العدد فالوحدة للواحد نعت نفسي لا يقبل العدد وإن أضيف إليه فإن كان العلم نسبة فاطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق حقيقي وإن كان غير ذلك فاطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق مجازي وكلام العرب مبني على الحقيقة والمجاز عند الناس وإن كنّا قد خالفناهم في هذه المسألة بالنّظر إلى القرآن فإنا ننفي أن يكون في القرآن مجاز بل في كلام العرب وليس هذا موضع شرح هذه المسألة والذي يتعلق بهذا الباب علم الوهب لا علم الكسب فإنّه لو أراد الله العلم المكتسب لم يقل أوتيتم بل كان يقول أوتيتم الطّريق إلى تحصيله لا هو وكان يقول في خضر وعلمناه طريق اكتساب العلوم لم يقل شيئا من هذا.

ونحن نعلم أنّ ثمّ علمًا اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا وثم علما لم نكتسبه بشيء من عندنا بل هبة من الله –عزّ وجلّ– أنزله في قلوبنا وعلى أسرارنا، فوجدناه من غير سبب ظاهر.

وهي مسألة دقيقة فإنّ أكثر النّاس يتخيّلون أنّ العلوم الحاصلة عن التّقوى علوم وهب وليست كذلك وإنما هي علوم مكتسبة بالتقوى فإنّ التقوى جعلها الله طريقًا إلى حصول هذا العلم، فقال: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾[1]، وقال: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[2] كما جعل الفكر الصحيح سببا لحصول العلم، لكن بترتيب المقدمات كما جعل البصر سببا لحصول العلم بالمبصرات والعلم الوهبي لا يحصل عن سبب، بل من لدنّه –سبحانه–.

1
2

فاعلم ذلك حتى لا تختلط عليك حقائق الأسماء الإلهية فإن الوهاب هو الذي تكون أعطياته على هذا الحد بخلاف الاسم الإلهي الكريم والجواد والسخي فإنه من لا يعرف حقائق الأمور لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية ومن لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية لا يعرف تنزيل الثناء على الوجه اللائق به فلهذا نبهتك لتنتبه فلا تكونن من الجاهلين فالنبوات كلها علوم وهبية لأن النبوة ليست مكتسبة فالشّرائع كلها من علوم الوهب عند أهل الإسلام الذين هم أهله وأريد بالاكتساب في العلوم ما يكون للعبد فيه تعمل كما إن الوهب ما ليس للعبد فيه تعمل.

وإنّما قلنا هذا من أجل الاستعدادات التي جعلت العالم يقبل هذا العلم الوهبي والكسبي فإنه لا بد من الاستعداد فإن وجد بعض الاستعدادات ممّا يتعمّل الإنسان في تحصيلها كان العلم الحاصل عنها مكتسبا كمن عمل بما علم فأورثه الله علم ما لم يكن يعلم وأشباه ذلك فالشرائع كلّها علوم وهبيّة وممّن حصل علوم وهب مما ليس بشرع جماعة قليلة من الأولياء منهم الخضر على التّعيين فإنّه قال من لدنه والذي عرفناه من الأنبياء –عليهم السّلام– آدم وإلياس وزكريا ويحيى وعيسى وإدريس وإسماعيل وإن كان قد حصله جميع الأنبياء –عليهم السّلام– ولكن ما ذكرنا منهم إلّا من حصل لنا التّعريف به وسموا لنا من الوجه الذي نأخذ عن الله –تعالى– منه. فلهذا سمّينا هؤلاء، ولم نذكر غيرهم.

فأما قوله –تعالى–: ﴿وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا﴾[1]، فليس بنص في الوهب ولكن له وجهان وجه يطلبه أوتيتم ووجه يطلبه قليلا من الاستقلال أي ما أعطيتم من العلم إلا ما تستقلون نجمله وما لا تطيقونه ما أعطيناكموه فإنكم ما تستقلون به فيدخل في هذا العطاء علوم النظر فإنها علوم تستقل العقول بإدراكها.

واختلف أصحابنا في العلم المحدث: هل يتعلق بما لا يتناهى من المعلومات أم لا؟

فمَن منع أن تعرف ذات الله منع من ذلك ومن لم يمنع من ذلك لم يمنع حصوله ولكن ما نقل إلينا إنّه حصل لأحد في الدّنيا وما أدري في الآخرة ما يكون، فإنّا قد علمنا أنّ محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم– قد علم علم الأولين والآخرين وقد قال صلى الله عليه وسلم عن نفسه إنه يحمد الله غدا يوم القيامة بمحامد عند ما يطلب من الله عز وجل فتح باب الشفاعة أخبر أن الله –تعالى– يعلّمه إيّاها في ذلك الوقت لا يعلمها الآن فلو علمها

[1]

غيره لم يصدق قوله علمت علم الأولين والآخرين وهو صلى الله عليه وسلم الصادق في قوله فحصل من هذا إن أحدا لم يتعلق علمه بما لا يتناهى ولهذا ما تكلم الناس إلا في إمكانه هل يمكن أم لا وما كل ممكن واقع ووقوع الممكنات من المسائل المغلقة وكيف يكون ثم ممكن ولا يقع وهو المعقول عندنا في كل وقت فإن ترجيح أحد الممكنين أو الممكنات يمنع من وقوع ما ليس بمرجح في الحال فإن كان الذي لم يقع في الوجود من الممكنات مرجحا عدم وقوعه في الوجود، فيكون عدمه مرجحا فقد وقع الممكن فإنه لا يلزم فيه من حيث الإمكان إلا اتصافه بكونه مرجحا سواء ترجح عدمه أو وجوده وإذا كان كذلك فقد وقع كلّ ممكن بلا شك وإن لم تتناه الممكنات فإن الترجيح ينسحب عليها، وهي مسألة دقيقة فإنّ الممكنات وإن كانت لا تتناهى، وهي معدومة فإنها عندنا مشهودة للحق –عزّ وجلّ– من كونه يرى فإنا لا نعلل الرؤية بالوجود وإنما نعلل الرؤية للأشياء بكون المرئي مستعدّ القبول تعلق الرّؤية به سواء كان معدوما أو موجودا وكلّ ممكن مستعد للرؤية فالممكنات وإن لم تتناه فهي مرئية لله –عزّ وجلّ– لا من حيث نسبة العلم بل من نسبة خري تسمى رؤية كانت ما كانت قال تعالى ألم يعلم بأن الله يرى ولم يقل هنا ألم يعلم بأن الله يعلم وقال: تجري بأعيننا أي بحيث نراها وقال أيضا لموسى وهارون إنني معكما أسمع وأرى.

﴿والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل﴾[1].

انتهى الجزء الرّابع والعشرون.

[1]

محتويات الجزء الثّالث

من كتاب

الفتوحات المكّية

محتويات الجزء الثّالث من كتاب الفتوحات المكّية

كتاب *الفتوحات المكّية* – الجزء الثّالث **29–144**

محتويات الكتاب **269–276**

الناشر: شركة كيرانيس للطباعة والنشر والتوزيع
العنوان: إقامة الزيتونة - عمارة عدد 3 – شقة عدد 2 - المنار 2 – أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرف الناشر : 02-9938
عدد الطبعة: الأولى
ت د م ك : 978-9938-02-019-9
تم سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطباعة والنشر والتوزيع